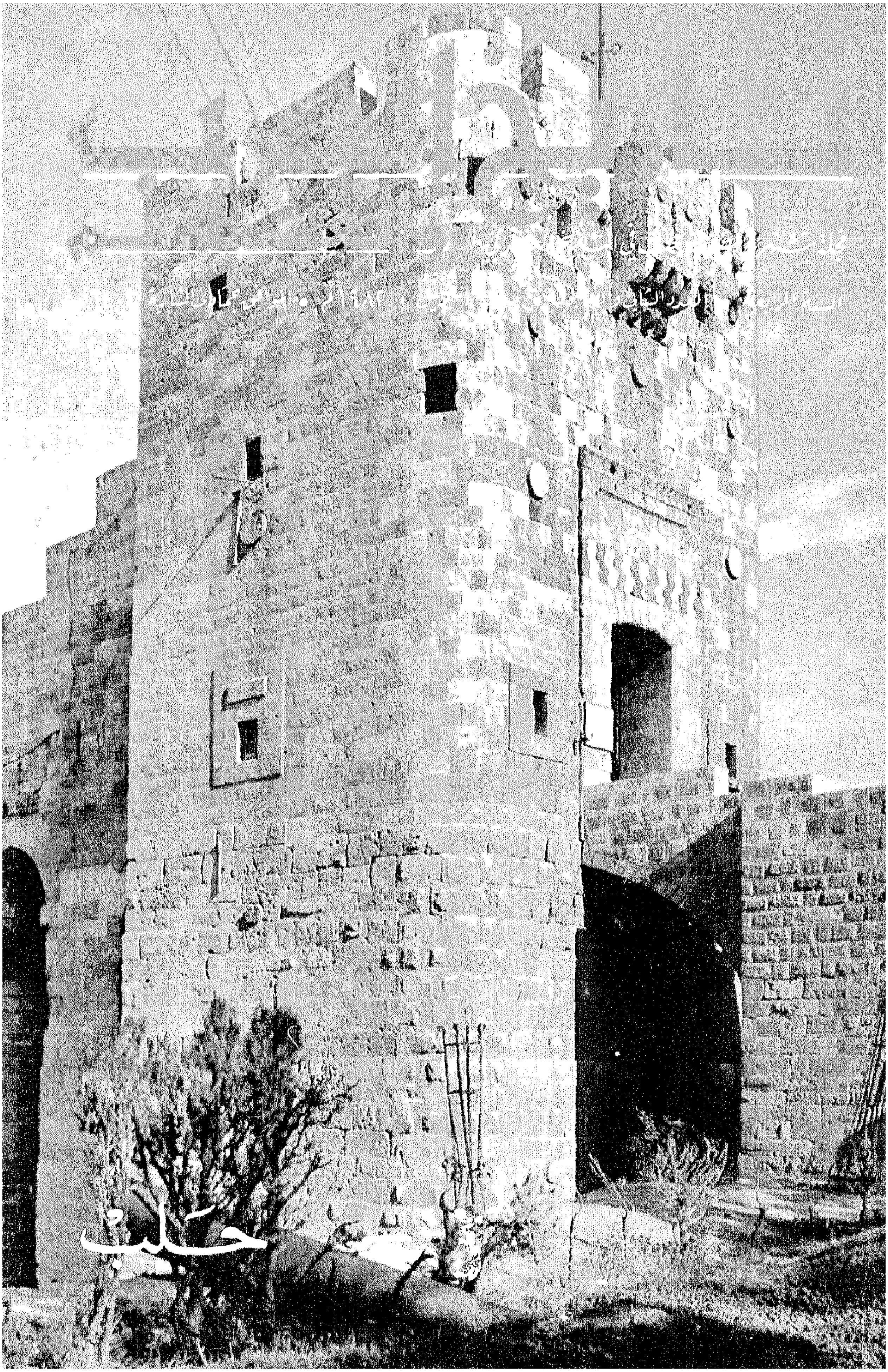

حلب

الحياة الثقافية

مجلة ثقافية جامعة تصدرها وزارة الشؤون الثقافية - بتونس

من أهدافها :

- خدمة القارئ العربي في كل مكان
- المساهمة في تطوير البحث والإنتاج والنقد
- تقديم صورة صادقة عن الحركة الثقافية والفكرية في تونس .

العنوان : وزارة الشؤون الثقافية - القصبة - تونس
الهاتف : 263.819
الاشتراكات : عن ستة أعداد : 2,100 دينار تونسي أو ما يعادلها.

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تعنى بشؤون الحضارة

العدد الثاني والأربعون • نيسان ١٩٨٢م

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ   المدير المسؤول : محمد مشموشي

أمين التحرير : د. محمد أمين فرشوخ

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط: ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٥ ل.ل.	تونس	١ دينار
العراق	٨٠٠ فلس	الكويت	٧٠٠ فلس
السعودية	٨ ريال	الامارات	٨ درهم
الأردن	٥٠٠ فلس	قطر	٨ ريال
البحرين	٨٠٠ فلس	عدن	٨ شلنات
مسقط	٨٠٠ بيزة	المغرب	٦ درهم
فرنسا	١٠ فرنكات	بريطانيا	جنيه استرليني
سوريا	٦ ل.س.	اميركا	٣ دولارات

الاشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ٧٥ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٠٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٤٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولار
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ــ بيروت، لبنان • بناية أبو هليل
شقة ١١ • شارع السادات ــ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 4. No. 42. APRIL 1982

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■

صيانة المدن العربية الإسلامية

مدينة حلب

د. شوقي شعث

لم يكن اختيارنا لمدينة حلب كمثال للمدن الاسلامية صدفة في هذه الدراسة، فحلب تستحق أن تكون انموذجاً يحتذى لأنه قل أن توجد مدينة في العالم العربي والعالم الاسلامي تضارعها غنى بالآثار الاسلامية الاّ مدينة القاهرة، ولكنها تتميز عن مدينة القاهرة بأنها لا زالت تحتفظ بشخصيتها المتميزة وطابعها العمراني الفريد فهي لا زالت تحمل طابع العصور الوسطى الاسلامية بأزقتها وخاناتها وأسواقها وجوامعها ومساجدها وقلعتها الخ..

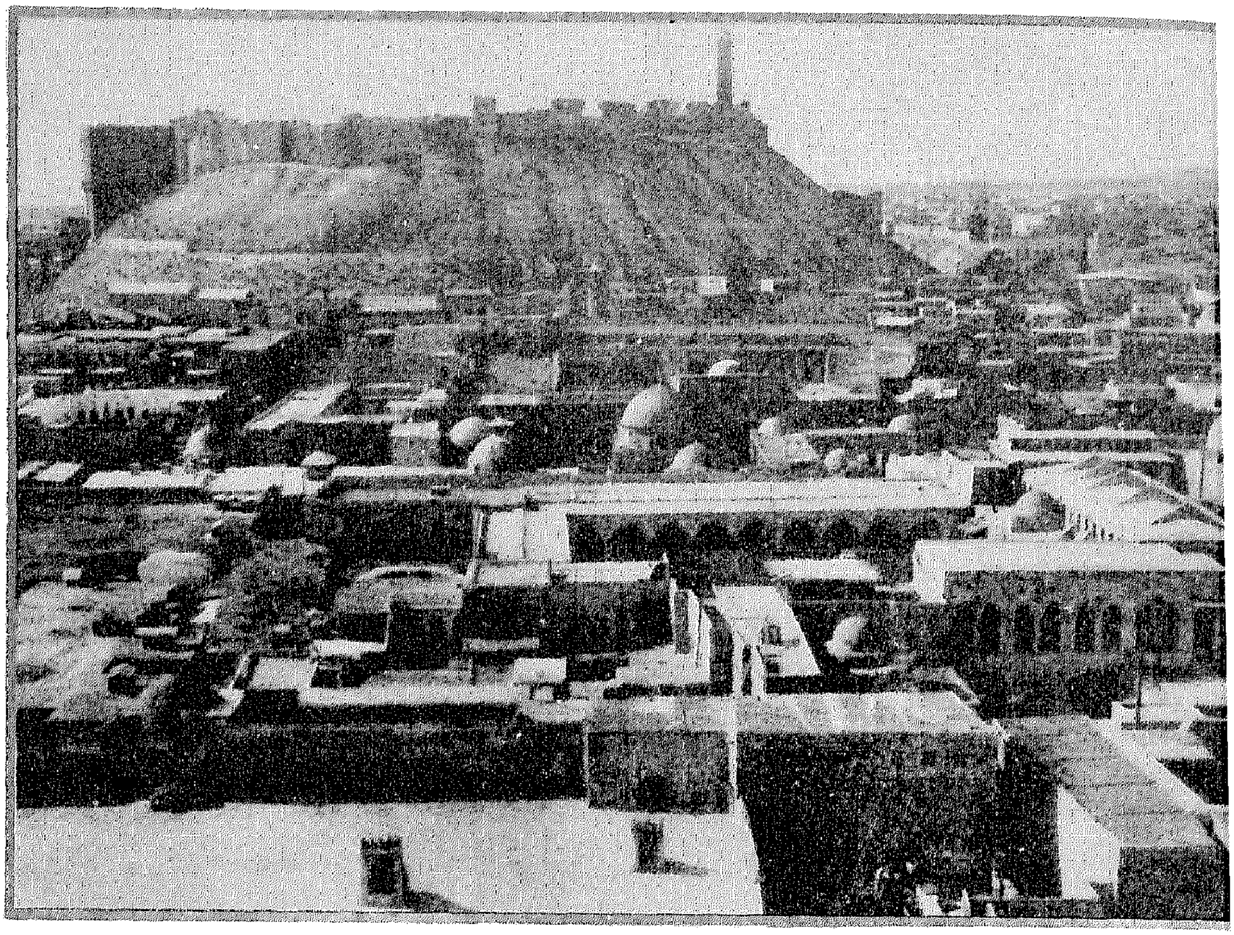
في حين أن القاهرة فقدت الكثير من المميزات بسبب هجمة التحديث وهجرة سكان الريف الى القاهرة على نطاق واسع،وغلاء الأراضي عموماً بسبب التطور السريع الذي لم يعدّ له مسبقاً أو على الأقل لم يرافقه التخطيط الناجح، ومما يضفي على مدينة حلب رونقاً وبهاء هو استعمال الحجارة في بنائها وهذا تقليد استمر منذ زمن قديم حتى يومنا هذا.

تاريخ مدينة حلب موغل في القدم ولكننا لا نعرف بالضبط متى بدأ الاستيطان فيها لعدم تمكن الأثريين من اجراء التنقيبات الأثرية المنهجية بسبب امتداد الأبنية الحديثة فوق بقعة كبيرة من الأرض يزيد بكثير عن مساحة المستوطنة التي يعتقد أن مدينة حلب كانت قائمة فوقها.

ولكن قربها من نهر الفرات ووقوعها في منطقة استراتيجية تجارياً وعسكرياً وفي وسط السهول الخصبة جعل كثيراً من علماء الدراسات التاريخية يفترض أهميتها التاريخية الكبيرة، وقد تأكد هذا الافتراض بسبب الاكتشافات الأثرية الحديثة في حوض الفرات وتل رفعت وحوض نهر قويق والسفيرة وماري و(تل الحريري) وأبيلا (تل مرديخ) وكركميش وبوغاز كوى وغيرها.

في مطلع الألف الثانية قبل الميلاد كانت حلب عاصمة لملكة يمحاض الكبيرة التي كانت تسيطر على جزء هام من سوريا الشمالية ربما فاقت بقوتها قوة مملكة ماري على نهر الفرات والأمبراطورية البابلية في العراق المعاصرتين لها، وكانت أبيلا (تل مرديخ) والالاخ (تل عطشانة) وابمار (مسكنة القديمة) ممالك تابعة لها. في حوالي منتصف الألف الثانية سقطت يمحاض في يد الحثيين وبذلك فقدت أهميتها السياسية ولكنها بقيت تحتفظ بأهميتها الدينية كمركز لعبادة الرب السامي (حدد) وفي مطلع الألف الأول قبل الميلاد أصبحت تابعة لملكة أرباد الأرامية (تل رفعت) مع انها استمرت أيضاً كمركز ديني هام. بعد ذلك تناوب السيطرة عليها الأشوريون والكلدان والفرس والسلوقيون

■ د. شوقي شعث
خبير المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم/ الجامعة العربية/ في قضايا التراث.



والرومـان والبيزنـطيـون ثم حـررهـا العـرب المسلمون وبقيت في أيديهم حتى يومنا هذا.

معظم الآثار الاسلامية الهامة التي ما زالت قائمة في مدينة حلب هي من نتائج العصـور الاسلامية المتأخرة، ففيها مجموعة من المدارس والتكايا والمساجد والبيمارستانات من العهدين النوري والأيوبي، هذه الأبنية يغلب عليها طابع المتانة ومرد ذلك روح العصر الذي قامت فيه فقد كان الأيوبيون وقبلهم النوريون مشغولين بالجهاد المقدس لتحرير البلاد الاسـلامية من مـوجات الغـزو الافرنجي القـادم من الغرب، فأنفقوا معظم أموالهم في الجهاد وبناء المدارس والمساجد والبيمـارستانـات، أما مبـاني العصر المملوكي الكثيرة والمتنوعة ففيها جمال واضح غنيـة بـالزخـارف وذلك للاستقـرار السيـاسي والتجاري الذي ساد العصر ومن أمثلتها جامع الأطروش وكذلك المباني العثمانية ومن أمثلتها المدرسة الخسروية وجامعها وجـامع العـادلية وغيرها الكثير من المباني.

وفيما يتعلق بتخطيط المدينة القديمة في حلب فلا يزال يحمل طابع مدينة (بيرية) الكلاسيكية، هـذا الاسم حملته مـدينـة حلب في العهـود الكلاسيكية، كان المخطط عـلى النمط الشبكي (الشطرنجي) واذا أمعنا النظر في مخطط مدينة حلب القديمة نرى أنه لا يزال يحمل تلك الصفة رغم أن المدينة اتسعت عبر العصور عدة مرات وسورت وهدمت ورممت وبالتالي أدخـل عليها كثير من التعديلات.

صيانة مدينة حلب:

الاحساس بأهميـة التراث الاسـلامي كان موجوداً ومرغوبـاً فيـه وزاد من الرغبة فيـه الاتصال بالغرب، ونحن نعلم أن مدينة حلب في طليعة المدن العربية الاسـلامية التي اتصلت بالغرب عن طريق التجارة حيث قامت فيها عدة وكالات تجارية للبنادقة (ايطالية) والافـرنسيس والهـولنديـين والانكليـز وغيـرهم، وبعـد ذلك تأسست عدة قنصليات. أقبل تجار الافرنج كما

كان يسمونهم في مدينة حلب على شراء التحف والعاديات ونقلها الى بلادهم الأصلية كما أن البعثات الأثرية العربية التي كانت تعمل في سوريا وتتخذ مدينة حلب كمركز هام لها (مثل البعثة الألمانية التي نقبت في تل حلف، بالقرب من رأس العين في أواخر العهد العثماني)، كل ذلك نمى الاحساس بضرورة الاهتمام بالتراث ناهيك عن أهمية الجوامع والمباني الاسلامية الأخرى بما لها من أهمية روحية في النفوس. وعندما جاء الانتداب الفرنسي لسوريا تأسست دائرة للآثار في حلب كانت تابعة للمفوضية العليا الافرنسية في بيروت ولا ننكر أن رجالها قاموا بدور في صيانة مدينة حلب القديمة. كما تأسست جمعية العاديات الحلبية من نفر من أبناء مدينة حلب — مسلمين ومسيحيين — وعلى رأسهم المرحوم الشيخ كامل الغزى، وقد ساعدت هذه الجمعية على نشر الوعي التراثي بين المواطنين.

بالواقع كان أول عمل جاد في موضوع صيانة الأبنية التاريخية في مدينة حلب هو ما قام به السيد سوفاجيه الافرنسي، فقد قام بعمل احصاء لأهم المباني التاريخية ونشره، وقد تحمل الكثير من العناء في سبيل ذلك الّا أن عمله كان ناقصاً بسبب الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي كانت تمر بها مدينة حلب فسوفاجيه فرنسي وهو من أبناء السلطة الحاكمة في البلاد آنذاك ولم يكن يسمح له بدخول البيوت الحلبية كما هو نفسه لم يكن مغامراً لدرجة الدخول في الحارات والأزقة الضيقة سيما وان الوقت الذي قام به السيد سوفاجيه باحصائه كان الحجاب سائداً. هذه الصعوبات لازالت قائمة في بعض الأحيان يواجهها موظفو المديرية العامة للآثار والمتاحف، الّا أنه يمكن القول أنها اختفت بالمقارنة مع زمن سوفاجيه. أتبع سوفاجيه عمله هذا بدراسة أكثر شمولاً للمباني الأثرية في حلب وصنفها حسب عهودها ودرس عناصرها الزخرفية ونمط عمارتها وتحصيناتها، صدرت تلك الدراسة في كتاب حصل بموجبه على الدكتوراه في الآداب من جامعة باريس.

هذا الى جانب ما قام به بعض المؤرخين من أبناء حلب باحصاء للمباني الأثرية في مدينتهم مع دراسات اجتماعية واقتصادية كالغزى وطباخ وطلس، ولكن لم تتوفر في تلك الدراسات وسائل البحث الحديث في صيانة المدن.

استمر هذا النهج في صيانة المباني التاريخية وقامت مديرية الآثار والمتاحف باصدار القرارات اللازمة لحماية المباني التاريخية بشكل افرادي وبمعزل عن البيئة العمرانية لها، وقد أثار هذا التسجيل مشاكل جمة لمديرية الآثار ولكنه ظلّ مناسباً وساعد على حماية كثير من المباني الأثرية الهامة. وعندما بدأت المدينة بالتوسع استقدمت بلدية حلب ١٩٥١ أحد أساتذة الهندسة العمرانية في معهد الهندسة العمرانية في باريس الذي وضع مخططاً للمدينة عرف بمخطط (كوتون) نسبة له وأرفق ذلك المخطط بمذكرة عرض فيها الأسباب التي دعته لتصور عناصره، وعلى الرغم من رغبته في العمل على تأمين توسيع المدينة البشري والاجتماعي الّا أنه رأى من اللازم أن تقدر «القيمة التاريخية لكل حي من الأحياء ولكل بناء من الأبنية» وقد أدرك أهمية أسواق حلب التجارية القديمة فأوصى باحترام موقعها الذي هدده الزمن والذي ما زال في عصرنا الحاضر كما كان قديماً وقال ما نصه «يجب أن تتخذ الطرق المؤدية الى الخانات التي تغذي الأسواق والتي هي عناصر طبيعية للتبادل بين تجار الجملة وتجار المفرق على شكل يجعلها تستفيد من الطرقات الحالية المؤلفة من أزمان بعيدة والتي تنفذ بسهولة الى داخل الجزيرات العمرانية».

ومن الأمور الهامة التي عالجها كوتون في مخططه أنه أوصى بتنسيق الأبنية الجديدة في جو الأبنية الأثرية الموجودة. فقد قال «من الواجب أن يساهم المخطط كله بانقاذ آثار الماضي واحترامها».

أساء بعض القائمين على تنفيذ هذا المخطط تطبيقه فقاموا بشق الشوارع بوسط المدينة القديمة مشوهين بذلك خان الوزير الذي يعتبر من أجمل خانات حلب وبناء المطبخ العجمي الذي يعتبر فريداً في العصر الاسلامي، وبعض البيوت الأخرى التي ضربها شارع آخر

زقاق داخلي



هو شارع السجن، كذلك وافقوا على هدم كثير من المباني القديمة والسماح بالبناء بارتفاعات عالية. وقد وقفت مديرية الآثار ومؤيدوها في وجه تلك الهجمة وقد ساعدها في وقفتها تلك بعض رؤساء البلديات والموظفين الواعين لخطورة تلك القضايا وبذلك تمكنت من انقاذ ما يمكن انقاذه من المدينة القديمة.

في ١٩٥٣ استقدمت الحكومة السورية بعثة من الخبراء بمؤازرة اليونسكو لدراسة المدن التاريخية القديمة في سوريا وسبل المحافظة عليها واحيائها وقد قدّمت تلك البعثة تقريراً جيداً نقتطف منه الفقرات التالية المتعلقة بمدينة حلب:

«يتصف نمو مدينة حلب بمنطق خاص ووحدة قوية وانسجام شديد على الرغم من التغيرات التي أحدثتها الشروط السياسية في المدينة ولم تنفك خلال العهود السلوقية والرومانية والبيزنطية من توسيع علاقاتها ونشر شهرتها فأصبحت آنئذ الحاضرة الحقيقية لسورية الشمالية وعلى حين عدت انطاكية مدينة الثقافة فان حلب عدت مدينة التجارة والصناعة والعمل».

فيما يتعلق بفن البناء في مدينة حلب فقد ورد بالتقرير «أن حلب تأتي في طليعة المدن السورية تحافظ على هذه الميزة دون اسفاف وانحطاط لأنها عرفت كيف تمزج المنطق العقلي الهندسي للمنشآت اليونانية بمفاهيم روما الضخمة».

في عامي ١٩٧٢ و١٩٧٣ طرحت مشكلة صيانة المدينة القديمة بشكل جدي الى جانب صيانة المناطق الأخرى خارج المدينة القديمة التي تحتاج الى صيانة. ولكن التركيز كان على المدينة القديمة، تألفت لجنة من البلدية ومن مديرية الآثار والمتاحف مكلفة بوضع دراسة للمدينة لعرضها على اللجنة الاقليمية لتخطيط المدن والقرى والتي تمثل فيها مديرية الآثار بموجب الأنظمة النافذة، وقد مثل الكاتب مديرية الآثار بوصفه آنذاك مديراً للآثار والمتاحف في المنطقة الشمالية. قامت هذه اللجنة باحصاء شامل لكثير من المباني التي لم تكن مصنفة ولم تكن

معروفة كما درست موضوع المدينة القديمة بشكل كامل واقترحت حمايتها كمركب عمراني من ادخال بعض التعديلات الطفيفة على الشوارع والساحات التي فرضتها ظروف ربط المدينة بسائر الأحياء الأخرى وظروف الدفاع المدني، عرضت هذه الدراسة على اللجنة الاقليمية للتخطيط واقرتها ثم رفعت الى اللجنة العليا للتخطيط في وزارة الاسكان والمرافق والتي تمثل فيها المديرية العامة للآثار والمتاحف وأقرت مشروع تخطيط المدينة القديمة حيث أصدره السيد وزير الاسكان والمرافق بموجب القرار الوزاري ذي الرقم ٦٥٠ والتاريخ ٢٣/٤/٧٤ ثم أصدرته وزارة الثقافة والارشاد القومي على اعتبار أنها الجهة التي تقوم بتسجيل المدن التاريخية والمباني الأثرية بالقرار رقم ١٩٣/أ تاريخ ١٦/٨/١٩٧٦ حيث سجلت بموجبه الأحياء القديمة لمدينة حلب ومنع الهدم والبناء والترميم في كافة العقارات الواقعة في تلك الأحياء الّا بموافقة السلطات الأثرية ولم يعتبر القرار آنف الذكر المباني الحديثة ضمن الأحياء المسجلة عقارات أثرية الّا انه منع اجراء أي تعديل في أوصافها ومنع بناءها مجدداً في حال هدمها الّا بعد موافقة السلطات الأثرية، وفيما بعد عدل هذا القرار رسمياً المادة الأولى منه بالقرار رقم ٤٩/أ تاريخ ١٣/٣/١٩٧٨، من قبل وزارة الثقافة والارشاد القومي لتصبح على الشكل التالي «تسجل الأحياء القديمة في مدينة حلب الموضحة باللونين الأحمر والأصفر على المخطط التنظيمي بمدينة حلب المصدق بقرار وزارة الاسكان والمرافق ذي الرقم ٦٥٠ تاريخ ٢٣/٤/١٩٧٤ في عداد المواقع والمباني الأثرية» وبذلك أصبحت مدينة حلب القديمة داخل الأسوار مسجلة تسجيلاً أثرياً.

هذه الاجراءات تمت بشكل سريع حفاظاً على المدينة القديمة للوقوف أمام عملية التحديث الزاحف، ولم تكن هذه الاجراءات مدروسة بشكل دقيق من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والفنية والتاريخية وكل ما جرى دراسة سريعة تحتاج الى اعادة نظر في أقرب وقت ممكن ليكون العمل قائماً على أسس علمية منهجية. في عام ١٩٧٦ استقدمت الحكومة السورية أحد خبراء اليونسكو لدراسة حالة مدينة دمشق القديمة واقتراح الحلول المناسبة لها من أجل صيانتها وبعد أن فرغ من دراسة المدينة زار مدينة حلب ليوم واحد وأذهله ما رأى فيها من تكامل معماري عمراني وظيفي وقد ورد في التقرير الذي وضعه حول مهمته «نظراً لجمال مدينة حلب المعماري الذي حافظت عليه عبر العصور وأنها تستحق الاعتبار الذي استحقته مدينة البندقية وفلورنسا بجعلها جزءاً من التراث الثقافي العالمي الذي يجب أن يصان» كما أثنى على الجهود التي بذلتها محافظة حلب وبلديتها ومديرية الآثار في المنطقة الشمالية والمديرية العامة للآثار والمتاحف ووزارة الثقافة والقطاعات الشعبية في سبيل المحافظة على مدينة حلب القديمة.

يمكن اجمال الاجراءات التي تمت من أجل صيانة المدينة القديمة في حلب بما يلي:

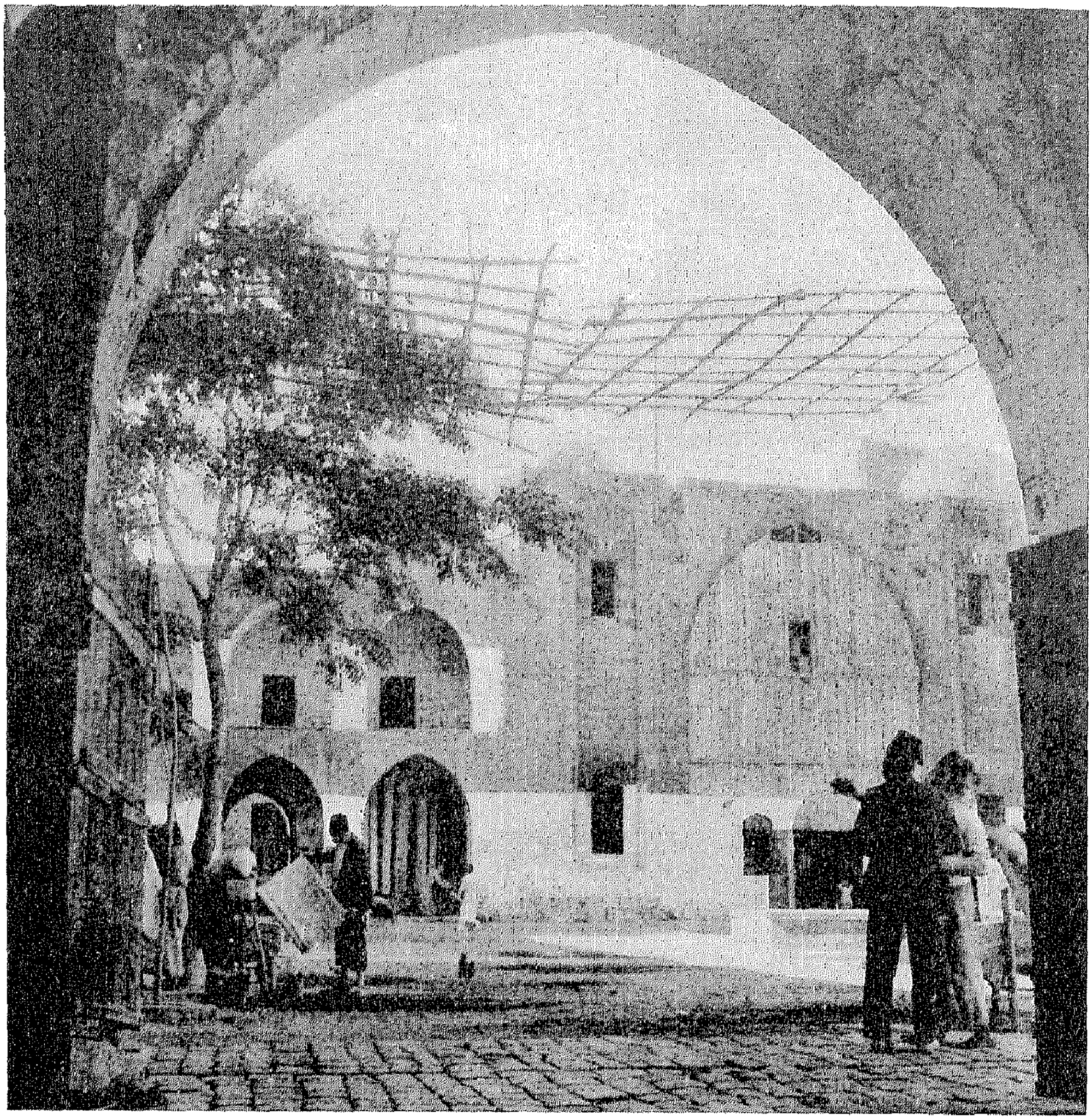
١ ــ التشريعات والاجراءات الادارية:

صدر المرسوم التشريعي رقم ٢٢٢/لسنة ١٩٦٣ المتضمن قانون الآثار وقد تضمن المواد التالية لصيانة المدن والأحياء القديمة في سوريا.

«**مادة ٨** ــ يتعين عند وضع مشروعات تخطيط المدن والقرى أو توسيعها أو تجميلها أو ما شابه ذلك المحافظة على المناطق الأثرية والأبنية التاريخية الموجودة فيها ولا يجوز اقرار هذه المشروعات الّا بعد موافقة السلطات الأثرية عليها، كما لايجوز تعديلها بعد اقرارها الّا بعد موافقة هذه السلطات».

«**مادة ١٠** ــ لا يجوز للبلديات أن تمنح رخص البناء والترميم في الأماكن القريبة من المواقع الأثرية والأبنية التاريخية الّا بعد الحصول على موافقة السلطات الأثرية لتضمن اقامة المباني الحديثة على النسق الذي تراه ملائماً للطابع الأثري».

وبناء عليه صدرت عدة قرارات وزارية تسجل معظم المباني الأثرية في المدينة كما صدر القرار الذي ألمحنا اليه سابقاً لتسجيل المدينة



مدخل خان كورت بيه.

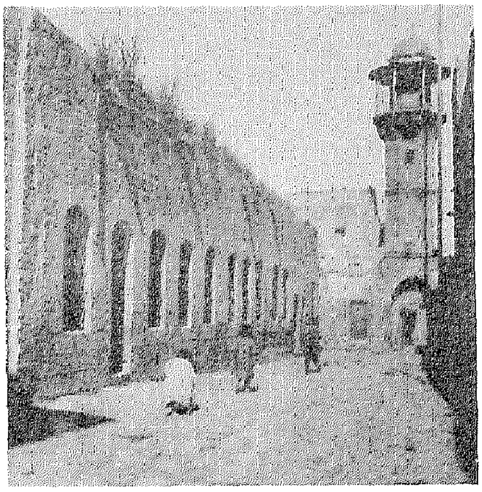
القديمة كمركب عمراني، كما وضع مشروع لنظام ضابطة البناء يحدد طبيعة البناء ومواده وارتفاعه والفتحات السماوية والواجهات فتألفت لجنة باسم لجنة المدينة القديمة للنظر في الرخص التي يقدمها أصحابها من أجل الترميم واعادة بناء الأبنية الآيلة للسقوط وكل مشاكل المدينة بشكل اجمالي.

٢ ــ المراقبة:

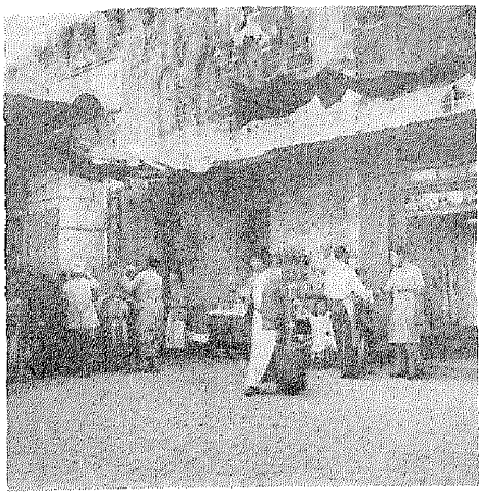
في مديرية الآثار والمتاحف بحلب جهاز لمراقبة المدينة القديمة مؤلف من عدة عناصر يقومون بالتفتيش على المدينة القديمة يسجلون كل مخالفة ويحيلونها على القضاء. في النية احداث دائرة خاصة لمراقبة مدينة حلب القديمة.

٣ ــ الترميمات:

تقوم مديرية الآثار والمتاحف بوضع برامج سنوية للترميم الى جانب الترميمات الطارئة ويشرف على الترميم مجموعة من المهندسين المعماريين، أجريت ترميمات في قلعة حلب المدرسة الظاهرية ــ المدرسة الكاملية ــ جامع الدباغة ــ خانقاه الفرافرة ومدرسة وجامع



شارع داخلي يفضي الى المسجد



لم تزل الدكاكين على حالها في الأحياء القديمة

الفردوس ــ المطبخ العجمي ــ مدرسة اشقباش البيمارستان النوري البيمارستان الأرغوني مشهد الحسين وغيرها.

٤ ــ الاستملاكات:

وضعت المديرية العامة للآثار والمتاحف خطة لاستملاك بعض المباني الهامة التي يخشى عليها من التخريب صيانة لها واعادة استخدامها في وظائف تناسبها أو في وظائفها الأصلية، فقد صدر مرسوم باستملاك بيت (أشقباش) وبيت غزالة والعقارات المحيطة بمدرسة وجامع الفردوس كما أن هناك مشروعاً لاستملاك بعض العقارات المحيطة بباب انطاكية بهدف الكشف عنه.

٥ ــ الدراسات:

كما المحنا سابقاً في هذا البحث فإن دراسة سريعة جرت من أجل دراسة المدينة القديمة وأصدار التشريعات التي تكفل حمايتها، هذه الدراسات كانت عبارة عن زيارات ميدانية ومراجعات سريعة لبعض المصادر عن المباني التاريخية ومدينة حلب القديمة بالاضافة الى المناقشات التي تمت أثناء دراسة المخطط التنظيمي لمدينة حلب القديمة، تجري الآن دراسات من قبل مديرية الآثار والمتاحف بحلب بالتعاون مع الخبير الافرنسي كلود ديفيد دراسة تتسم بالواقعية والمنطق وتتوفر فيها الشروط العلمية الحديثة. ولكن هذه الدراسات تبقى لصالح ذلك الخبير ومع أنه لم يكمل دراسته بعد فاننا نلاحظ أن قضايا كثيرة فاتته وأحسب أن المديرية العامة للآثار والمتاحف قد وضعت خطة لدراسة المدن التاريخية وبدأت بالاعداد لدراسة مدينة دمشق وبعدها ستنتقل الى حلب وغيرها من المدن السورية.

يمكننا بعد هذا العرض لحالة مدينة حلب القديمة بوجه عام والاجراءات التي تمت حتى الآن لصيانتها أن نتصور المقترحات التالية لايجاد الحلول المناسبة لصيانتها.

١ ــ البدء فوراً بوضع مخطط تنظيمي لمدينة حلب يحقق ما يلي:

(أ) المحافظة على التركيب العمراني والمعماري للمدينة القديمة داخل الأسوار والأحياء الأخرى القديمة مثل حي التل وحي الجديدة الخ..

(ب) ربط المدينة القديمة بالحياة المعاصرة لمدينة حلب وذلك بوضع خطة لادخال الكهرباء والمجاري والماء ووسائل العصر الحديث الممكنة دون احداث أي تشويه. وذلك لتشجيع الناس للبقاء فيها حتى لاتصبح مع الزمن مدينة مهجورة.

(ج) التخفيف من ضغط المواصلات بعدم اللجوء الى فتح شوارع جديدة وبالتالي منع دخول السيارات الخاصة والاكتفاء بالسماح لباصات النقل بالدخول فقط.

(د) مراقبة الكثافة السكانية في المدينة القديمة وفق تخطيط قابل للتطبيق مداً وجزراً.

(هـ) المحافظة على أهم الأوابد المعمارية والتخطيط العمراني وترك غير المهم منها

والسماح بهدمه عند الاقتضاء على أن يعاد بناؤه وفق أسلوب خاص يتلاءم مع طراز المدينة القديمة وبارتفاعات يجب ألّا تزيد عن البيئة المحيطة بها.

٢ ــ احداث دائرة خاصة بالمدينة القديمة تتولى مسح المدينة القديمة من الوجهة المعمارية والعمرانية والتاريخية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية وتوثيق تلك المسوح بوضع جداول وجذاذات علمية لها.

٣ ــ وضع سياسة لتشجيع السكان على المحافظة على العناصر المعمارية الفنية وصيانتها كلًا فيما يخصه بأن تشاركهم الدولة في نفقات الترميم أو اعطائهم القروض اللازمة دون فائدة أو بفائدة بسيطة تسدد على عدة سنوات واعفائهم من ربع العقارات.

٤ ــ ضرورة مشاركة الدوائر الأخرى التي لها علاقة بالموضوع في مسؤولية صيانة المدينة القديمة كالبلدية ومديرية الأوقاف ومديرية الأشغال العامة ومديرية الاسكان والمرافق والجامعة.

٥ ــ التوسع في استملاك المباني الأثرية المملوكة الى الأشخاص بدءاً من الأهم الى المهم كما حدث في بيت غزالة وبيت اشقباش.

٦ ــ وضع سياسة ترميم مركزية وتوحيد طرق الترميم وفق أحدث الطرق حتى يكون الترميم منسجماً وحتى لايكون لكل مرمم طريقته الخاصة، كما أنه من الضروري اختيار أنسب الطرق والمواد اللازمة للترميم، ولا بد هنا من تدريب العناصر المشرفة على الترميم وربطهم بمهنتهم.

٧ ــ وضع نظام ضابطة بشكل صارم يكفل المحافظة على المدينة القديمة بالتعاون بين مديرية الآثار وبلدية حلب.

٨ ــ وضع خطة مرحلية لاخفاء التمديدات الكهربائية والهاتفية وتمديدات المياه والتمديدات التي يمكن أن تحدث مستقبلاً في انفاق تحت الأرض لتزول تدريجياً أشرطة الهاتف المبعثرة هنا وهنالك وأعمدة الكهرباء والهاتف الخ..

٩ ــ نشر الوعي الاثاري لدى المواطنين عن طريق المنظمات الشعبية ووسائل الاعلام والمدارس والجامعات.

ان المقترحات المشار اليها أعلاه لايمكن أن تنفذ الّا اذا توفرت القناعة الكافية لدى المسؤولين في البلدية ومديرية الآثار وغيرها من الدوائر ذات العلاقة بأن مدينة حلب القديمة تراث وطني وقومي وانساني يجب المحافظة عليه بكافة الوسائل، اذا ترسخت هذه المفاهيم لدى المسؤولين الذين يتصدون لمعالجة قضايا صيانة التراث فإن الصعب سيكون سهلاً وستصبح هناك سياسة ثابتة للصيانة لاتتبدل مع تبدل مواقع المسؤولية. ■

قُدمت هذه الدراسة إلى المؤتمر التاسع للآثار (صنعاء) الذي جرى بين ١٦ ــ ٢٢ فبراير ــ شباط ١٩٨٠

(أ) المراجع العربية:

(١) كوربول، عبدالحق سليم، ديللون أرماندو.
سوريا: قضايا حفظ المواقع الأثرية والأوابد التاريخية والاستفادة منها. تقرير وضع في اطار لجنة اليونسكو المؤلفة من السادة المذكورة أسماؤهم أعلاه المرسلة إلى سوريا عام ١٩٥٣. ص. ٢ ــ ص٢٣.

(٢) بهنسي، عفيف.
مشكلة المدينة القديمة في البلاد العربية. الحوليات الأثرية السورية عدد ٢٣ ص٩ ــ ص٣٣.

(٣) بهنسي، عفيف
المدينة العربية الاسلامية ونموذجها دمشق القديمة الحوليات الأثرية العربية السورية عدد ٢٦، ج ١+٢ (١٩٧٦) ص ١٠ ــ ص٢٦.

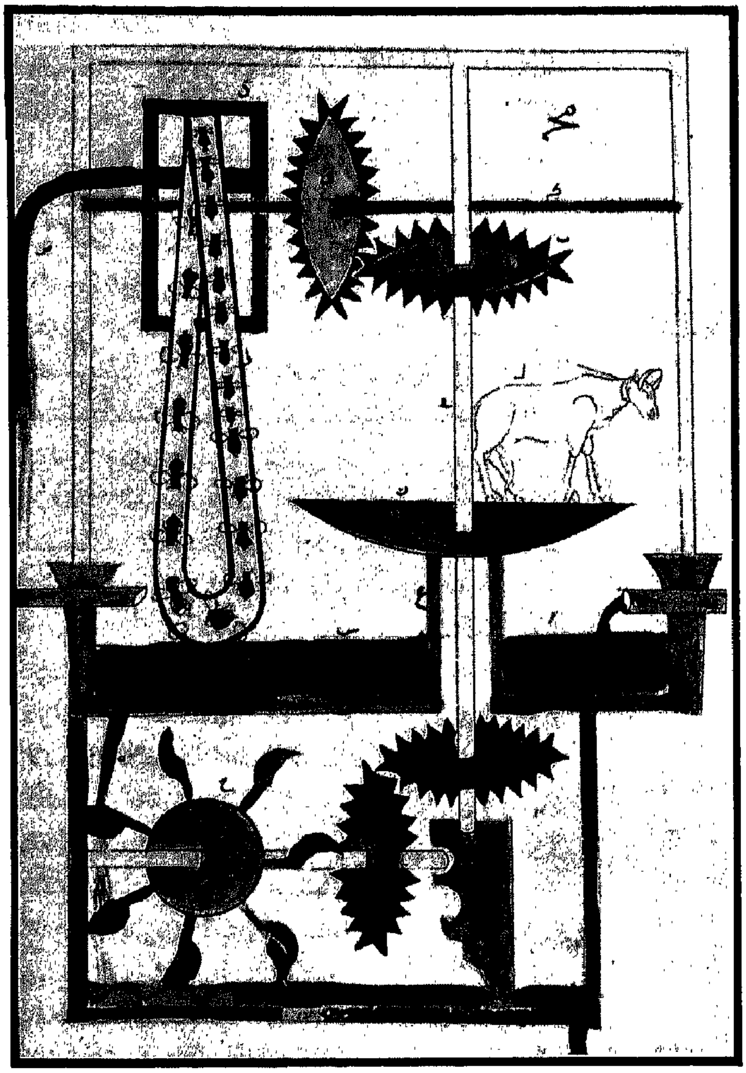
(٤) شعت شوقي
حلب القديمة ومعالمها السياحية مجلة العمران الأعداد ٢٠ ــ ٢٢ وص٤٩ ــ ص٦١.

(٥) شعث، شوقي وحرتباني، محمود:
قلعة حلب دليل مختصر ١٩٧٧.
(٦) روبير، أوزويل:
فن تخطيط المدن، ترجمة بهيج شعبان ومراجعة هنري زغيب منشورات عويدات، بيروت لبنان.
(٧) صواف، صبحي:
دليل الزائر، حلب ١٩٥١.
(٨) ريحاوي، عبدالقادر:
المباني التاريخية حمايتها وطرق صيانتها منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف بالجمهورية العربية السورية دمشق ١٩٧٢. ص٥١ ــ ص٥٤.
(٩) الخطيب، روحي:
تقرير عن أوضاع مدينة القدس العربية تحت الاحتلال الصهيوني.
(١٠) الأحمد، نجيب الأحمد:
تهويد القدس، منظمة التحرير الفلسطينية. دائرة الأعلام والتوجيه القومي.
(١١) قاسمية، خيرية:
قضية القدس، دار القدس، بيروت الطبعة الأول ١٩٧٩ ص٤٧ ــ ص٦٨.
(١٢) ذو الفقار، سعيد:
التقرير النهائي للمؤتمر الثامن للآثار بالبلاد العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم مراكش ١٩٧٧ ص٥١ ــ ص٥٩.

هذا إلى جانب معلومات وصلتني بناء على طلبي من مديرية الآثار بالمملكة العربية السعودية حول مدينة العلا، ومن المديرية العامة للآثار بدمشق حول مدينة دمشق. كذلك وصلني من الجمهورية العربية اليمنية نسخة من تقرير اليونسكو باللغة الانكليزية حول مدينة صنعاء، سأشير إليه في المراجع الأجنبية.

(ب) المراجع الأجنبية:

1. DAVID JEAN«CLAUD, ALEP,
Dégradation et tentative actuelles de readaptation des structures urbaines traditionnelles, BEO t. XXVIII (1975) pp. 19-50.
2. D'OSSAT GULIEMO DE ANGELIS,
Guide to the methodical study of monuments and Causes of thier deterioration, international center for the study of the preservation of cultural property, 1972.
3. SAUVAGET ALEP, 1941 BAH, texte et album.
4. ANDERSON TANFORD,
The Physical city as a socio-cultural resource social space and physical form as reciprocally related systems of conventoin. A paper for the confernce «L» espace social de la ville Arabe Tunis, 10-12 March 1979.
5. ANDARE, R.H.
The Conservation of Urban sites The Conservation of cultural property Museums and Monuments, XI UNESCO pp. 153-169.
6. WELBANK MICHAEL AND FIUEURAS JULIO,
SANA'A report to UNESCO, June 1978 published by Shakland Co & Parthership.
7. COUNCEIL OF EUROPE,
Policy for the preservation and rehabilitation, preservation and rehabilitation of groups and areas of buildings of historical of artistic interest Symposium E 1968.
8. COUNCIL OF EUROPE,
Principles and practice of active preservation, preservation and rehabilitation of groups and area of building of historical or artistic interest, symposium C 1967.
9. COUNCIL OF EUROPE,
The reviving of monument. Preservation and development of groups and areas of buildings of historical or artistic interest, symposium B.
10. The Precedings of the European conservation conference, the managment of the enviroment in tomorrow Europe, 1970.



الفيزياء عند العرب

د. منى سنجقدار شعراني

لقد اشتهر العرب بالأدب والشعر والفلسفة فكثرت الكتب والمجلات التي تغنت بالشعر والشعراء، بالأدب والأدباء، بالفلسفة والفلاسفة حتى باتت الفكرة السائدة وكأن العرب هم هواة شعر يعيشون في الخيال والتأمل ولا يأبهون للعلم والنظريات العلمية. وأخذت اللغة العربية تبرز وكأنها لغة النثر الأدبي والنظم الشعري غير قابلة لشرح نظرية علمية أو تفسير مبدأ من مبادىء الحياة لكشف أسرار الكون. فأسدل بذلك ستار أسود قاتم على ناحية مهمة أخرى في تراثنا العربي الا وهي **التراث العلمي العربي** الذي له الأثر البالغ في الحضارات العلمية للقرون الوسطى وعصر النهضة.

وهكذا بقيت الأمة العربية بعيدة أشد البعد عن تراثها العلمي وفي غفلة منه حتى قيض لها من أرشدها إليه وكشف النقاب عن خفاياه. أما هذا العمل العظيم فهو من انتاج مراكز الأبحاث المختصة بتاريخ العلوم.

ومما لاشك فيه بأن كل دولة متقدمة ومتحضرة تهتم بمثل هذه الأبحاث خصصت مركزاً أو أكثر لمتابعة دراستها في هذا المجال،

■ د. منى سنجقدار شعراني

ليسانس فيزياء من كلية العلوم ـ الجامعة اللبنانية استاذة في كلية التربية. دكتوراه من معهد الدراسات العليا في باريس. أسهمت باصدار كتاب «العلوم الفيزيائية ـ سنة أولى» الصادر عن الجامعة الأميركية ـ إدارة العلوم. اشتركت بعدة دورات تدريبية ومؤتمرات علمية في مختلف أنحاء العالم العربي.

وأعطت أولية العمل في هذه المراكز لعلماء اخصائيين في كل حقل من الحقول مع علماء مستشرقين.

في هذا الجو المفعم بالعلم والعلماء وفي هذه المراكز المنتشرة في جميع أنحاء العالم ظهرت المخطوطات العربية الأصلية والمترجمة، المنقحة والمعربة، وعلى هذا السبيل برز التراث العلمي العربي أو على الأصح قسم منه في خلال تلك المخطوطات العربية العلمية المبعثرة في مكتبات العالم أجمع، فهناك مخطوطات الفاتيكان، وبرلين، وتوب كابي، وحيدر أباد، وباريس...الخ.

أما القسم الآخر فلا يزال مدفوناً بين صفحات المخطوطات الضائعة وفي ثنايا المخطوطات التي لم تحقق ولم تدرس بعد.

ان تلك المخطوطات تنتظر من يخرجها من مكمنها وينفض عنها غبار العصور والدهور بدراستها وتحقيقها. هذا مع العلم بأن مراكز الأبحاث الغربية التي كشفت لنا مزايا تراثنا العلمي واهتمت بنشره وتحقيقه وتيسيره بالفهارس وتعريف أوروبا والعالم به لا تزال تتابع مهمتها في هذا المضمار خدمة للعلم.

ومما لا ريب فيه أن علماء الغرب استناروا بهذا التراث العلمي العربي الذي اكتشفوه واستعانوا به في تحليل نظرياتهم وإبراز اختراعاتهم. لذلك فقد كثرت المراجع الأجنبية التي صنفت العلماء العرب تصنيفاً علمياً بحتاً وأعطت كل عالم حقه في ميدان معين. ولكن جميع هذه الدراسات لم تف بالغرض المطلوب كما أنها لا تخلو من فجوات وأخطاء تسربت من مؤرخ إلى آخر فنسبت بذلك نظريات واختراعات إلى غير أصحابها.

وإلى جانب تلك الدراسات هناك دراسات أخرى تنكر جملة وتفصيلاً حق الأمة العربية في الاكتشافات العلمية، ولكننا لا نرجع ذلك إلى سوء نية بل كله يعود إلى عدم اكتراثنا نحن العرب بهذا التراث وإلى عدم إبرازه إلى حيّز الوجود على أيدي خبراء باللغة العربية الأصلية التي كتبت بها مخطوطاتنا، حيث أنه لكل كلمة معنى ولكل نظرية أبعاد لا يستطيع المستشرق كشفها لأنه لم يتلق اللغة العربية من جذورها ولم يتسنّ له الاختلاط بالشعب العربي ولا معرفة خفايا اللغة العربية خاصة الشعبية منها. وأنه غالباً ما يتخلل المخطوطة كلمات فارسية وكلمات عربية شعبية تعني لكاتبها معنى بعيداً عن المعنى الذي يفهمه المستشرق المتقن للغة الصرف والنحو.

فكم من مخطوطة عربية ترجمت إلى لغة أجنبية فإذا ما قرأتها باللغة المترجمة فهمت المضمون المجمل دون التفصيل فتغيب عنك بذلك زبدة الفكر العربي، لأن المخطوطات العربية العلمية تتضمن بحد ذاتها دقة في النص وصعوبة في التعبير، وحيث أن كل كلمة تفسر ما قبلها وتضيف مفهوماً معيناً أو ترمز إلى نظرية معينة لذلك لم تف ترجمة الجملة بالغرض المطلوب بل يجب ترجمة الكلمة وهذا العمل ليس باليسير أبداً.

رغم كل ذلك فإن الفضل الأكبر في كشف النقاب عن تراثنا العلمي الضخم يعود إلى مراكز الأبحاث الغربية وإلى المستشرقين المهتمين بهذا الميدان. والجدير بالذكر بأنه ظهرت في عصرنا هذا مراكز أبحاث عربية تهتم بنشر تاريخ العلوم عند العرب فلا يسعنا إلا أن ننوه بجهودها المكثفة في سبيل إحياء التراث العلمي العربي.

ان ظهور مثل هذه المراكز في الوطن العربي يبعث الأمل في النفوس ويعطي الثقة والحماس والشجاعة لمتابعة البحث والتنقيب في هذا المجال.

ففي دراسة هذا التراث واحيائه ما يرشدنا إلى حقيقة تاريخية ثابتة وهي أن العرب علماء قبل أن يكونوا شعراء وأدباء، وأن انتاجهم العلمي يفوق كثيراً انتاجهم الأدبي. أما حماسنا لإحياء التراث العلمي العربي والكشف عن ذخائره وخفاياه فلا يقتصر على الاعتزاز به فحسب بل يهدف إلى اعطاء كل ذي حق حقه في سبيل خدمة العلم والبحث عن الحقيقة، لأن هذا التراث لم ينقل مباشرة من أساتذة ومؤرخين معاصرين بل تناقل على مر العصور فضاع منه ما ضاع وبقي ما بقي حتى أن هناك اكتشافات علمية عند العرب بقيت مدفونة واكتشفت من جديد على أيدي علماء غربيين في العصور الحديثة.

هذا وقد أثبتت جميع الأبحاث والدراسات بأن العالم العربي هو موسوعة علمية دخلت كل الميادين. فهو الفيلسوف والفلكي والرياضي، وهو الكيميائي والطبيب والمؤرخ، وهو الجغرافي والحاكم والشاعر وهو أيضاً الموسيقي والفيزيائي والهندسي.

إن كل عالم من علماء العرب لم يقتصر تفكيره على ميدان واحد بل كان يوجه اهتمامه إلى عدة ميادين، ويزرع أفكاره في جميع الحقول. ها هو الكندي الفيلسوف والفيزيائي والموسيقي، الخوارزمي الفلكي والرياضي، ثابت بن قرة مترجم وفلكي ورياضي أيضاً. الرازي صيدلي وكيميائي وفيزيائي، الفارابي الفيلسوف والموسيقي، سنان بن ثابت رياضي، فيزيائي فلكي وطبيب، البيروني الجغرافي والرياضي والفيزيائي...الخ. فإذا ما أردنا عرض جميع أسماء الأعلام العرب مع ذكر مخطوطاتهم ودراساتهم ضاقت بنا صفحات هذه المجلة.

أما مكتباتنا العربية، فإنها تفتقر إلى الدراسات العلمية البحتة وتقتصر مراجعها على تعداد مزايا العرب العلمية وذكر الحقول والميادين العلمية التي عمل بها العلماء العرب دون التعريف بالنظريات العلمية التي أوجدوها أو اقتبسوها وعللوها.

وبعد أن أقّر في المنهج الرسمي في لبنان مادة تعنى بتاريخ العلوم عند العرب ظهرت عدة دراسات في هذا المجال تشرح بوضوح أهمية الفكر العربي وتذكر تأثير العرب في جميع الميادين العلمية على الاختراعات الغربية وتعدد الحقول التي اهتموا بها ومن أي باب دخلوها. ولكن جميع هذه الدراسات تتصف بالجمود وعدم الحيوية وتبقى دراسات ضيقة وتاريخية بحتة وذلك لعدم شرح أو تفسير نظرية علمية معينة أو حتى عرضها بطريقة صحيحة لكي يتسنى للطالب فهم تطور الفكر العربي وأبعاده العلمية. وحيث أن الطالب في عصرنا الحاضر، عصر التكنولوجيا والاختراعات العلمية التي تتطور بسرعة البرق، لم يعد يكترث للتاريخ والخيال بل يهدف إلى ايجاد الحقائق التاريخية وخاصة العلمية منها. فهو مما لا شك فيه يتوق إلى معرفة تطور الفكر العربي والنهضة العلمية التي رافقت هذا التطور ومدى تأثيرها على العالم أجمع ليجد ذاته الضائعة في هذا الخضم الكبير من التقدم التقني وليعترف لنفسه أنه جدير أن يكون مبدعاً ومبتكراً كأسلافه وأجداده.

وفي هذا المجال، رأينا من الواجب علينا إرشاد الطالب العربي إلى كنزه العلمي، وذلك بدراسة بعض المخطوطات العلمية التي توفرت لنا وتحليلها تحليلاً تقنياً لكي يتسنى لنا إظهار النظريات والحقائق العلمية التي كانت نواة لقسم وفير من الاختراعات التي ظهرت في القرون الوسطى وعصر النهضة.

وعلى هذا الأساس نحاول القيام بتحقيق تلك المخطوطات وفقاً للميادين التي تنتمي إليها آملين من كل عربي أن يرشدنا إلى مخطوطات أخرى في حقول متنوعة حيث زرع العلماء العرب أفكارهم وبثوا فيها روحهم العلمية.

أما المخطط الذي سنتبعه في هذا المضمار فهو متابعة تطور كل حقل من الحقول العلمية عند العرب وفقاً للتسلسل التاريخي ضمن حقبة من الزمن تقع ما بين القرن التاسع والخامس عشر ميلادي.

ولسنا نهدف من خلال هذه الدراسات والتحقيقات بأن نظهر العالم العربي كمبدع ومفكر وخلاق أوجد كل شيء من العدم كما تبالغ بعض الدراسات بإعلان أن العرب اكتشفوا كل شيء من الصحراء المقفرة الخالية من الثمار. ان مثل هذه التصريحات مرفوض جملة وتفصيلاً، لأنه ما من وجود لأمة دون الاقتباس عن أمة أخرى، اللهم إلا أن تكون متخلفة في سلم التطور. فالأمة العربية كغيرها من الأمم تلقت الحضارات السابقة ونقلتها باخلاص ثم زادت عليها الكثير من ثمرات عبقرية أفرادها، ولم تكن تلك الأمة مجرّد جسر عبرت فوقه الحضارات القديمة لتصل إلى عصر النهضة العلمية في أوروبا بل كانت بحراً واسعاً تقاذفت أمواجه تلك الحضارات لتصقلها وتضيف إليها زبدة أفكارها وعصارة أذهانها.

والجدير بالذكر أنه ما من أمة تلقت الحضارات السابقة بقلوب مفعمة بالايمان



آلة ميكانيكية للاغتسال

وبالعلم، ونفوس متعطشة لمعرفة أسرار الكون، مثل الأمة العربية. وما من أمة أنفقت في سبيل العلم ما أنفقه العرب في عصورهم الزاهرة.

وليعلم كل منا أن قيمة العلماء السابقين لا تقاس بمدى تأثير نظرياتهم واختراعاتهم على الانتاج الحديث، لأن حضارات عصرنا فاقت كل الحضارات وتخطت كل اكتشاف واختراع حتى بات كل ما سبق وكأنه نقطة في بحر العلوم الحديثة. ولكننا نستطيع تقييم هؤلاء العلماء بما بذلوا من جهود في سبيل البحث عن الحقيقة وما اعترض طريقهم من عقبات للوصول إليها وبمدى اخلاصهم وتفانيهم لخدمة العلم.

خلاصة القول أن الهدف الأساسي الذي نريد تحقيقه من تلك الدراسات هو ايقاظ الانسان العربي من ثباته العميق لكي يتطلع إلى المستقبل من خلال ماضيه المتحضر المنتج ولكي يجعل من هذا التراث العلمي الضخم شعلة يستنير بها في سبيل التقدم والرقي فيحذو حذو أجداده في حب الاستطلاع وكشف أسرار الكون، لأنه رغم كل ما توصل إليه الانتاج العلمي والتقني في عصرنا، هناك ظواهر أخرى كثيرة تنتظر من يكتشف أسرارها.

فلا عيب اذن في متابعة المسيرة ولكن العيب كل العيب هو الوقوف على الاطلال والارتكاز على الأحجار دون الطموح إلى التقدم.

فمن هذا المنطلق نبدأ دراساتنا وعلى هذا الأساس نبني تحقيقاتنا.

في حقل الفيزياء

١ ــ مفهوم الفيزياء

لم يكن مفهوم الفيزياء عند القدماء كمفهومه في عصرنا الحاضر فقد كانت كلمة فيزياء (Physique) ترمز إلى علم الطبيعة أو العلم الطبيعي. كان هذا العلم يهتم بدراسة الظواهر الطبيعية لتفسيرها وتعليلها ووضع قوانينها.

وإلى جانب علم الطبيعة كان هناك علم الحيل (Mécanique) الذي يتعلق بالآلات وكيفية تسييرها. وحيث أن مفهوم الفيزياء اليوم يجمع بين هذين الحقلين لذلك فإننا سنعرض كل حقل منهما من خلال المخطوطات التي حصلنا عليها.

٢ ــ علم الحيل

(أ) علم الحيل عند القدماء (الميكانيكا)

إن كلمة ميكانيكا كلمة قديمة اغريقية الأصل (Mechane) وكانت تعني في عصر الحضارة اليونانية والرومانية القديمة كل الفنون المتعلقة بالمهارة والبراعة والحذق.

أما علم الحيل فإنه علم قديم العهد ظهر مع ظهور الإنسان على الأرض، حيث حاول الاحتيال على الطبيعة للتغلب على الصعوبات التي تعرقل حياته المعيشية. ان الفخاخ التي كان ينصبها الإنسان لصيد الحيوانات هي مثل من تلك الحيل التي استعملها الإنسان للتغلب على الحيوان. وهكذا تطور هذا العلم مع تطور الحضارات. واهتم العلماء بدراسة الأدوات البسيطة والتوسع في وجوه استعمالها وتطورها، فأوجدوا بذلك السطح المائل الذي يعد من أهم الوسائل التي تساعد على رفع الأجسام الثقيلة.

إن الأهرام وأكبرها هرم خوفو (يرجع تاريخه إلى ٤٥٠٠ سنة تقريباً) هو دليل واضح على استعمال السطوح المائلة لهذا البناء الضخم.

فبذلك نستطيع أن نرجع علم الحيل إلى الحضارة المصرية القديمة. وإذا ألقينا نظرة عامة على حضارة ما بين النهرين اتضح لنا أنه كان لديها بعض المبادىء العامة في علم الميكانيك.

أما المبادىء النظرية الأساسية في هذا المضمار فكانت من انتاج اليونان. لقد اهتم هذا الشعب الموهوب بهذا العلم وطوره رغم سيطرة الأفكار الأفلاطونية التي كان شعارها الترفع عن المستوى العملي التطبيقي لأنه يهتم بالمادة وأغراض الحياة العملية. ويجوز أن يكون أفلاطون قد سخط على أوديكسوس وأرخيتاس لأنهما قاما بتجارب في علم الميكانيك.

إن أول من اهتم بالحيل الميكانيكية هو أرخيتاس الصقلي الذي أثار غضب أفلاطون ويقال بأنه اخترع لعبة تطير، وهي حمامة من خشب، ولكنها لم تستأنف الطيران بعد أن حطت على الأرض.

أما كتسبيوس (Ctésibius) فله اختراعات عديدة في هذا المضمار فهو مخترع آلة موسيقية والتي تطورت فيما بعد إلى الأرغن المائي. كما اخترع ساعة مائية ومضخة مائية.

وهناك أيضاً معاصر لكتسبيوس فيلون البيزنطي (Philon de Byzance) الذي ترك لنا ارثاً ثميناً في الحيل في كتابه الشهير (Les Pneumatiques de Philon) الذي ترجم إلى عدة لغات والجدير بالذكر أن استخدام الميكانيكا في هذا العصر كان مقصوراً على الأغراض العسكرية أو منحصراً في ألعاب التسلية واللهو وأعمال الخفة. ولم يفكر القدماء قط في أن يتعدوا ذلك إلى ميدان الصناعة.

ومن أعلام الميكانيكا اليونان أيضاً عالم نشأ في الاسكندرية اسمه هيرون (Héron) لقد وجد قسم كبير من مؤلفاته باللغة العربية. واهتم هذا العالم كثيراً بالمسارح المتحركة وصنع أيضاً مضخة رافعة وارغناً مائياً وآلة بخارية وغير ذلك من أدوات التسلية.

(ب) علم الحيل عند العرب

لقد برع العرب في هذا العلم وطوروه وتركوا لنا ارثاً ثميناً ضخماً في هذا الميدان.

وقد بدأت دراسة العرب لهذا العلم، ــ كشأنهم دائماً ــ بالترجمة والنقل فترجموا كتب اليونان في الميكانيك وعكفوا على دراستها ووقفوا على محتوياتها وأدخلوا عليها اختراعات جديدة.

كان لهذا العلم عند العرب أبعاد كثيرة فكانوا يهدفون في تطويره إلى البحث عن جر الأثقال وتسيير الأجسام والآلات بالقوة اليسيرة، فكان لهم في هذا المجال بحوث نفيسة في الروافع وآلات الرفع وكلها مبنية على قواعد ميكانيكية. كما كانوا يهدفون إلى صناعة الآلات النافعة والمسلية في آن واحد. لذلك فقد انتشرت عند العرب صناعة الدمى والتماثيل المتحركة والأواني العجيبة. ومن أهم العلماء الذين برعوا في هذا المضمار هو بديع الزمان أبو العز الرزاز الجزري وقد ترك لنا كتاباً أسماه «الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل» زوده بعدد كبير من الرسوم والايضاحات المبيّنة لتركيب الدمى والآلات وأشكالها وطبيعة هياكلها. ولنا عودة مفصلة لهذا الكتاب. كذلك فقد وضع أبو عامر أحمد الأندلسي كتاباً باسم (الباهر في عجائب الحيل) يصف فيه أنواعاً من الدمى التي تتحرك بما يشبه أعمال الحواة، والتي كانت تصنع من الشمع وغيره من الخامات.

ومن أشهر الذين كتبوا في ذلك هم أبناء موسى بن شاكر وان مخطوطتهم (كتاب الحيل) لهي خير دليل. وقد قيل بأن أحمد من بينهم كان أعجوبة زمانه في علم الحيل. فقد كان صاحب مخيلة مبدعة خلاقة.

وحيث أن بني موسى الذين عاشوا في أواخر التاسع ميلادي هم أول من طور هذا العلم لذلك فإننا نبدأ بدراسة مخطوطتهم (كتاب الحيل).

التعريف بالمخطوط

لقد وجد الباحثون ثلاث نسخ لمخطوط (كتاب الحيل) لبني موسى:

الأولى في الفاتيكان تحت رقم ٣١٧.

الثانية في توب كابي تحمل الرقم ٣٤٧٤.

والثالثة في برلين وغوطه حيث وجد قسم في برلين تحت رقم ٥٥٦٢ وآخر في غوطة تحت رقم ١٣٤٩.

وقد اطلع على تلك المخطوطات علماء غربيون فدرسوها وحللوها، أما الدراسة الوافية لتلك المخطوطة فقد كانت أخيراً للمؤرخ الانكليزي دونالد هيل (Donald Hill) والذي ظهر كتابه تحت عنوان (The Book of ingenious devices (kitab al-Hiyal) by the Banu Musa bin Shakir) وقد اعتمد في دراسته هذه على المخطوطات الثلاث. ان هذه المخطوطة تعتبر من أهم مخطوطات أبناء موسى بن شاكر لأنها تعبر بوضوح عن مدى استيعاب هؤلاء الاخوة للنظريات العلمية ومدى المهارة في تطبيقها وفقاً لأغراضهم وأهوائهم.

هذا وقد استطعنا الحصول على مخطوطة الفاتيكان. انها تحتوي على ١٧٨ صفحة كتبت بلغة عربية صحيحة تتخللها بعض العبارات أو الكلمات الفارسية الأصل كما هو معروف عن مخطوطات بني موسى، أما أسلوب النص فهو مميز عند هؤلاء الاخوة حيث تتردد عبارات طالما وجدت في مخطوطاتهم كعبارة (نريد أن نبين) وأخرى (وذلك ما أردنا أن نبين). لقد عرض أبناء موسى بن شاكر في تلك المخطوطة وصفاً كاملاً ومتكاملاً لحوالي مئة تركيب ميكانيكي مع صور تتبع الوصف بعضها واضح جلي والبعض الآخر غامض لا يفهم منه شيء. أما صعوبة فهم المخطوط فإنها تكمن في الجمل المتلاصقة وعدم وجود نقاط الأبجدية في مراكزها. ولكن أسلوب بني موسى المتبع بالوصف سهل لنا مهمة فهم المخطوطة بكاملها. إذ أنهم كانوا يعتمدون في جميع تلك التركيبات على مبدأ موحد في الوصف لذلك فإن العبارة تتكرر عدة مرات في وصف آلات مختلفة فيسهل فهمها.

أما هذه المخطوطة فإنها تضم وصفاً لأباريق تفرغ من ذاتها كميات من الشراب، تعقب كل كمية منها فترة استراحة محددة، وآلات تمتلئ بالسوائل وتفرغها تلقائياً، وقناديل ترتفع فيها الفتائل تلقائياً ويصب فيها الزيت دائماً. وهناك وصف لأجران تشرب منها الحيوانات. وآلات مصوتة تنطلق منها أصوات معينة كلما ارتفع مستوى الماء إلى حد معين. وغيرها من الآلات العجيبة التي لا تخطر ببال، لقّبها المؤرخون العرب لقباً واحداً هو: «الآلات الروحية».

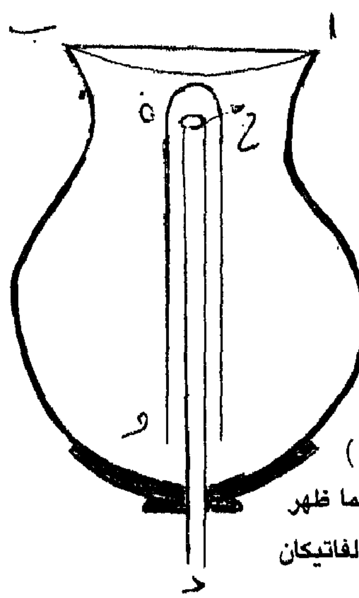
وحيث أنه يتعذر علينا دراسة جميع تلك التركيبات الميكانيكية فإننا قد عمدنا إلى اختيار بعض النماذج التي تفسر بوضوح عمق تفكير هؤلاء الاخوة.

النموذج الأول

يستهل بنو موسى مخطوطتهم بوصف المضخة المائية التي دعيت عند العرب باسم كأس العدل. والجدير بالذكر أن عدداً كبيراً من تركيباتهم لا يخلو من وجود كأس عدل فيه.

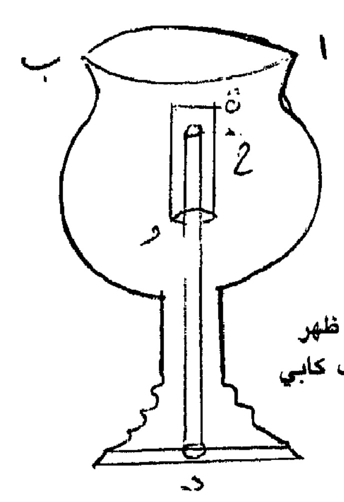
لقد وصف بنو موسى كأس العدل وكيفية عمله كما يلي:

نريد أن نبين كيف نعمل كأساً يصب فيه مقدار من الشراب أو الماء فإذا زيد عليه بقدر مثقال من الشراب أو الماء خرج كل شيء فيه.



الشكل رقم (١)
كأس العدل كما ظهر في مخطوطة الفاتيكان

مثال ذلك كأس(آب) ونعمل فيه أنبوب (دح) وطرفه الذي عليه (د) ملصق بأسفل الكأس والطرف الآخر الذي عليه (ح) يكون في أعلى الكأس ونعمل أنبوباً آخر عليه (ةو) ويكون خلافاً لأنبوب (حد) ويكون طرف (ة) مسدوداً وطرف (و) مفتوحاً قريباً من أسفل الكأس فقد يبين مما وصفنا أنه إذا صب الشراب في كأس (آب) لا يزال يرتفع فيه ولا ينصّب منه شيء حتى يبلغ إلى علامة (ح) التي هي في طرف أنبوب (دح) فإذا زيد عليه من الرطوبات بقدر

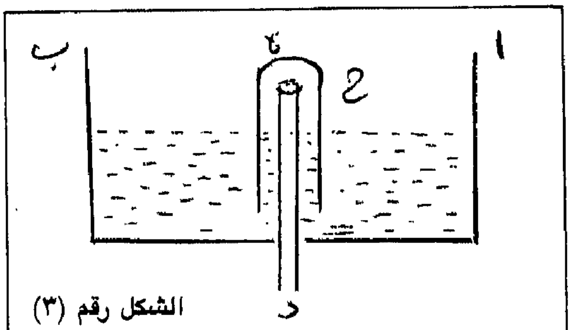


الشكل رقم (٢)
كاس العدل كما ظهر في مخطوطة توب كابي

مثقال يسيل الشراب من أنبوب (حد) وخلف بعضه بعضاً حتى يتفرغ كل شيء من الكأس لأن طرف أنبوب (حد) الذي عند (د) أسفل من طرف أنبوب (ة) الذي عليه (و) ولأن المـواد السائلة طبعها أن تنحدر فلذلك نبين أنه إذا صب في كأس (آب) المقدار الذي هو إلى نقطة (ح) ثم يزاد منه مثقال فإنه يصب كل شيء فيه إلى خارج من أنبوب (آد) وذلك مـا أردنا أن نبين.(راجع الشكل رقم ١ و٢

التفسير العلمي للنموذج الأول

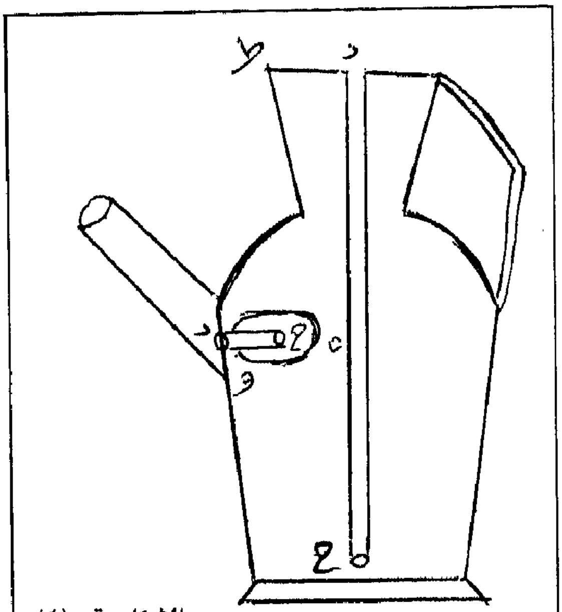
عندما نصب الماء (آب) يرتفع الماء داخـل الوعاء الصغير المقلوب (هو) ويبقى سطح الماء مستوياً وعلى نفس الارتفاع في الوعاءين طالما أن هذا المستوى لا يعلو طرف (ح) من أنبوب (دح) وذلك يتبع نظام الأوعية المتصلة. أما بالنسبة للهواء المحجوز داخل وعاء (و) فإنه ينحصر في أعلى الوعاء فيزيد بذلك ضغط الهواء في الداخل. وعندما يعلو مستوى الماء فوق طرف (ح) يكون



الشكل رقم (٣)

طرف (د) المفتوح معرضاً للضغط الجوي فقط فتنسـاب أول نقـطة مـاء من هـذا الطرف وبانسيابها يصبح الضغط داخل وعاء (هو) أخف قليلا من الضغط الجوي. وبفعل هذا الضغط تنزل كمية الماء الموجودة في وعاء (آب) لتدخل في وعاء (هو) وتخرج من أنبوب (حد).

وحيث أن بني موسى لم يتعرضوا لأي تفسير علمي نستنتـج من ذلك بأنهم اعتمـدوا عـلى التجربة معتمدين بذلك على المعلومات النظرية التي اقتبسوها عن اليونان.



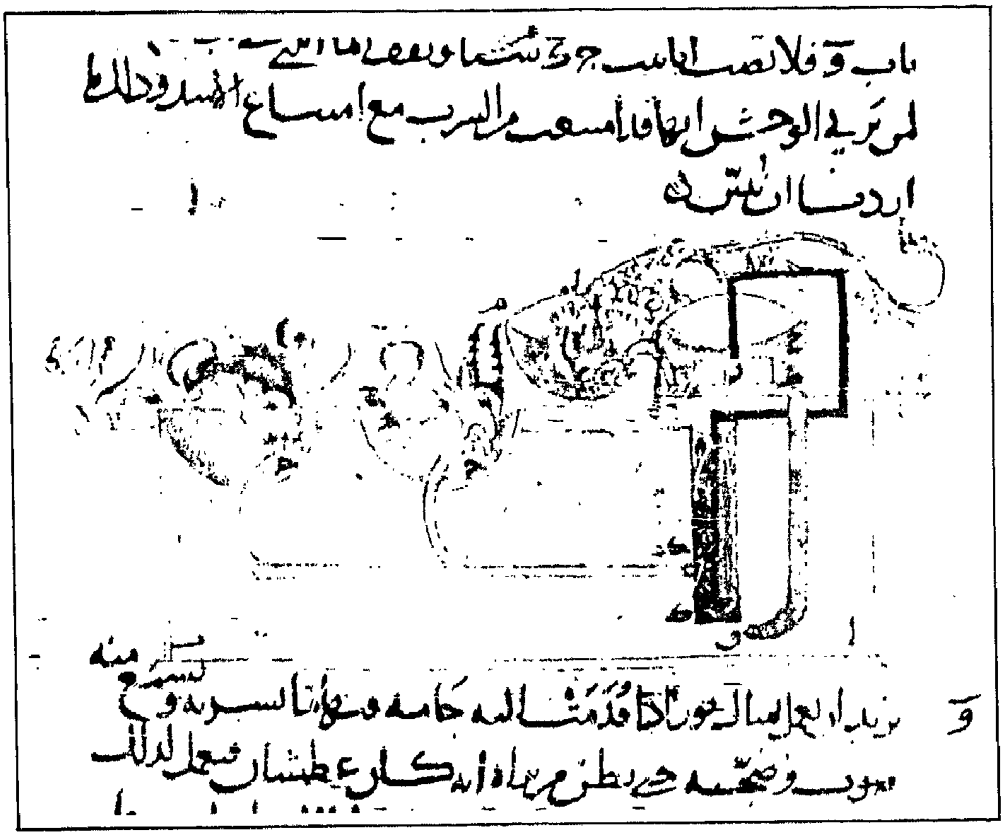
الشكل رقم (٤)

النموذج الثاني

نريد أن نبين كيف نعمل ابريقاً إذا مـلىء لا يمكن أن يتوضأ به أكثر من واحد. ويصف بنو موسى الابريق المبينً بالشكل (٤).

مثـال ذلك ابريق (آب) ويلصق عـلى رأسـه صفيحة (طد) ونثقب في وسطها ثقب (د) ونعلق بهـذا الثقب وفي داخل الأبـريق أنبوب (ةد) ينتهي في أسفل الابريق. ثم نعمل داخل الابريق كـأس العدل كمـا وصف في النمـوذج الأول. ويكون على الأنبوب الذي في الداخل (حد) وعلى الخـارج (ةو) ونلصق طرف (د) من أنبـوب (حد) على المثقب الذي يخرج منه الماء فيتبين مما وصفنا أنه إذا صب الماء في ابريق(آب) ومن ثقب (د) يجري في أنبوب (د) إلى داخل الابريق ويخرج الهواء من أنبوب (حد) فإذا بلغ الماء

الشكل رقم (٥)



إلى أنبوب (ح د) وغطى طرفه الذي عليه (ح) فعند ذلك يمنع ابريق (آ ب) أن يقبل شيئاً من الماء فإذا توضأ من الابريق صب أنبوباً (ح د ه و) الماء كما فعلا في الكأس فإذا ما رده المتوضيء يفرغ ما في أنبوب (ه و) من الماء فإذا أراد أن يتوضأ آخر وقلب الابريق ليصب منه كالعادة فإنه لاينصب منه شيء لأن الماء الذي فيه لا يبلغ طرف أنبوب (ح د) الذي عليه وذلك ما أردنا أن نبين.

وهكذا يحتال بنو موسى في وضع كأس العدل في جرار ويصفون عدة نماذج منها:

النموذج الخامس في المخطوطة

أما في النموذج الخامس فينتقل بنو موسى إلى حيلة أخرى أكثر تعقيداً من الأباريق فنستمع إليهم:

نريد أن نعمل تماثيل من الوحش يصب لها الماء في جامات فلا تشرب منه ومعها تمثال أسد فإذا صب للأسد الماء في الجامة تشرب ويشرب الوحش كلها من الماء الذي في جاماتها حتى انقطع شرب الأسد لا تشرب الوحش فإذا شرب الأسد ثانية شرب الوحش معه وهكذا لا يزال مثال ذلك: (راجع الشكل رقم ٥)

فنعمل لذلك قاعدة شبيهة بالصندوق عليها (آ ب) ويركب عليها جامات عليها رسوم (ج) ويجعل حروف الجامات ملصقة بسطح قاعدة (آ ب) ونعمل أنبوب (د ه) ويكون غلظه قدر اصبع ونلصق طرفه الذي عليه (ه) بسطح قاعدة (آ ب) ونعمل على طرف (د) باب مطحون عليه (و) شبيه بالذي عملنا قبل هذا عليه (و) ويكون انفتاحه إلى فوق ويخرج من طبقه عمود ينفذ سطح قاعدة (ب) ويلصق بدبة (ذ) ودبة (ذ) في حوض صغير عليه (ح ط) ويكون أسفل الحوض مع سطح قاعدة (آ ب) ملصق به ويثقب في أسفل الحوض ثقب ضيق عليه (ط) يصب إلى قاعدة (آ ب) وليكن إذا صب الماء في حوض (ح ط) يفيض من حرف (ح) إلى قاعدة (آ ب) ونعمل أنبوب (ي ك) يكون طرفه الذي عليه (ك) في ثقب في أسفل حوض (ح ط) وطرف (ي) ملصق في فم الأسد وليكن حوض (ح ط) مستوياً في جوف الأسد كما يكون مستوراً لا يرى وخرج من أنبوب (د ه) من موضع (س) أنابيب عليها

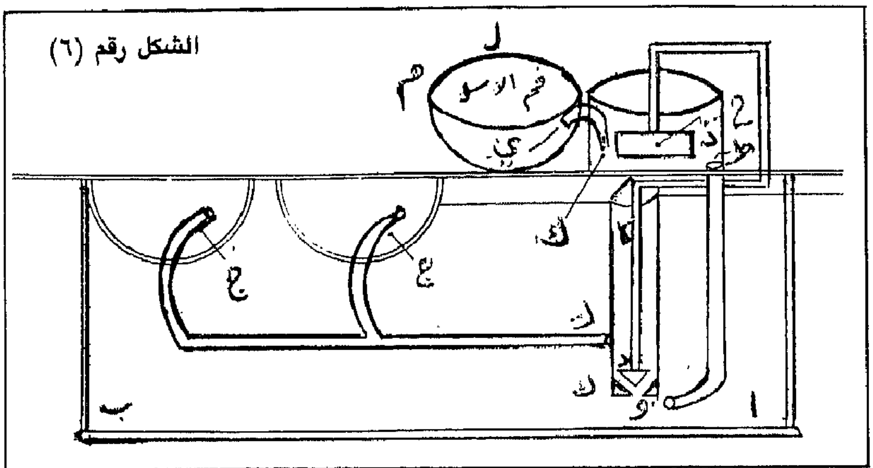
(سَحَ) تنفذ في داخل الوحش ويجعل أطرافها التي عليها رسوم (حَ) مع أسفل جامات (حَ) ملصقة في أفواه الوحش. فقد يبين مما وصفنا أن الماء إذا صب للوحش في جاماتها وملئت لا تشرب الماء لأن الباب المطحون الذي عليه (وَ) مطبق ولا سبيل للماء أن يخرج إلى قاعدة (آبَ) فعند ذلك يخيل لمن يرى الوحش أنها امتنعت من الشرب فإذا صب للأسد ماء في جام (دَم) حتى يعلو أنبوب (ىَكَ) المنعطف الذي في حلق الأسد ويصبه إلى حوض (حَطَ) ويخيل لمن يرى الأسد أنه شرب وبنزول الماء إلى حوض (حَطَ) يرفع دبة (ذَ) ويفتح طبق الباب الذي عليه (وَ) ويصب أنابيب (حَسَ) في قاعدة (آبَ) ويخيل لمن يرى الوحش أنها قد شربت مع شرب الأسد فإذا انقطع شرب الأسد يفرغ حوض (حَطَ) من ثقب (طَ) وبنزول دبة (نَ) ينطبق باب (وَ) فلا تصب أنابيب (حَسَ) ويقف الماء الذي في الجامات فيخيل لمن يرى الوحش أنهما قد امتنعت عن الشرب مع امتناع الأسد.

وذلك ما أردنا أن نبين.

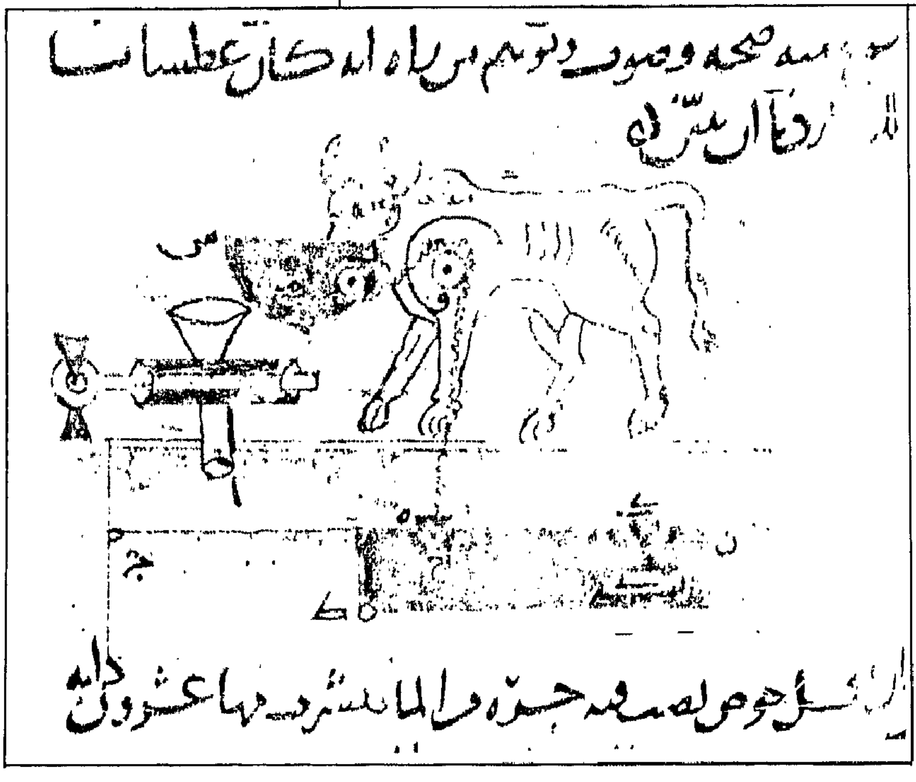
التحليل العلمي للنموذج الخامس

حيث أن الشكل الوارد في المخطوط غير واضح تماماً لذلك عمدنا إلى بلورته في الشكل التالي: (الشكل رقم ٦)

يتضح مما تقدم أنه عندما نصب الماء في وعاءين (جَ وَخَ) يتجمع الماء في هذين الوعاءين وليس له مخرج لأن الفتحة (ذَ) مغلقة، أما إذا صب الماء في وعاء الأسد فإنه ينساب إلى الوعاء (حَ) الآخر الذي في بطنه لأنه يتصل به بأنبوب



الشكل رقم (٦)



الشكل رقم (٧)

مفتوح الطرفين وحيث أن الوعاء (ح) يحتوي على دبة أي (عوامة) فهذه تعلو مع كمية الماء وبارتفاعها تفتح البـاب (و) فعند ذلك يفـرغ الوعاء (ج) وكذلك (خ). أما الوعاء (ح) فإنه يفـرغ من الأنبـوب المخصص له والمتصـل بالصندوق.

في هذه الحيلة يعتمد بنو موسى على احدى قوانين (الهيدروستاتيك). الذي يفسر قوة ضغط الماء المتجهة من أسفـل إلى أعلى. ومن هنـا نستنتج بأن بني موسى يعتمدون في حيلهم على المبادىء العلمية الصحيحة وأن انتاجهم ليس وليد الصدفة أو التجربة فقط بـل مبني على أسس علمية متينة.

النموذج السادس

في هذا النموذج يتعدى بنو مـوسى حركـة السـوائل إلى حـركة الهـواء فيصدر عن ذلك أصواتاً. أما ما قاله بنو موسى في هذا المجال فهو التالي: (الشكل رقم ٧)

نريد أن نعمل تمثال ثور إذا قدمت إليـه إجانة فيها ماء شربه وسمع له صوت وضجة حتى يظن من يراه أنه كان عطشاناً. فنعمل لذلك قـاعدة شبيهـة بالصـنـدوق محكمة كمـا لا يـدخلها الهـواء. عليهـا (ءبحد) ونقـطع ارتفاعها نصفـين بسطح (حب) ويخـرج من سطح (حب) أنبوب (هح) يصب في حوض في قاعدة (حب) عليها (دط) وليكن في أسفله ثقب صغير عند نقطة (ط) ونعمل في حوص (دط) دبة عليها (ى) ويخـرج منها عمـود يلتصق بطبق باب مطحون ينفتح إلى فوق عليـه (ك) ونلصقه على سطح (حب) ونلصق أيضاً على طرف (ه) من أنبوب (هح) في سطح (حب) باباً ينفتح أيضاً إلى فوق عليه (ه) ويخرج من طبقة سلسلة تمر في يد الثور القائم على قاعدة (آد) ويجري على بكرة في جوفه عليها (ق) ويمد أيضاً السلسلة إلى بكرة أخرى ليجري عليها في داخل خطم الثور عليها (د) ونعلق السلسلة بدبة في خطم الثور عليها (م) ويصب الماء في قـاعدة (آب) الأعلى في بتيون محكم عليه(آ) ويعلق حتى لا يدخل منه الهواء إلى قاعدة (آب) ولا يخرج، فقد يبين ممـا وصفنا أنـه إذا قدمت أجـانة (ن س) وهي مملوءة مـاء إلى الثـور ليشـرب ونغمس خطمه فيها حتى يغيب شداقه في الماء ترتفع دبة (م) وجذبت السلسلة التي على بكرتي (لو) وينفتح طبق (ه) ويسيل الماء إلى القاعدة (حب) في حوض (دط) وترتفع دبة (ى) وينفتح أيضاً باب (ك) حتى ينزل الماء بقوة وكثرة من قاعدة (آب) إلى قاعدة (حد) ويخرج الهواء من ثقب (ح) ومن أجل أن قاعدة (آب) إذا نزل منها الماء احتاج إلى شيء يخلفه فيها إلا خطر أن ينحدر الماء الذي في الأجانة (ن س) ويجري في داخل الثور وينزل في يده إلى قاعدة (آب) وينبغي أن نعمل في هذا المجرى الذي في داخل الثور شبه الدرج ليكون الماء إذا جرى عليها يتعثر بها ويسمع منه ضجة وصوت ويوهم من يراه أنه كان عطشاناً وذلك ما أردنا أن نبين.

تحليل النموذج السادس

حيث أن الوصف معقد نسبياً نشرح فيما يلي كيف يشرب الثور وكيف نسمع له صوتاً وضجة.

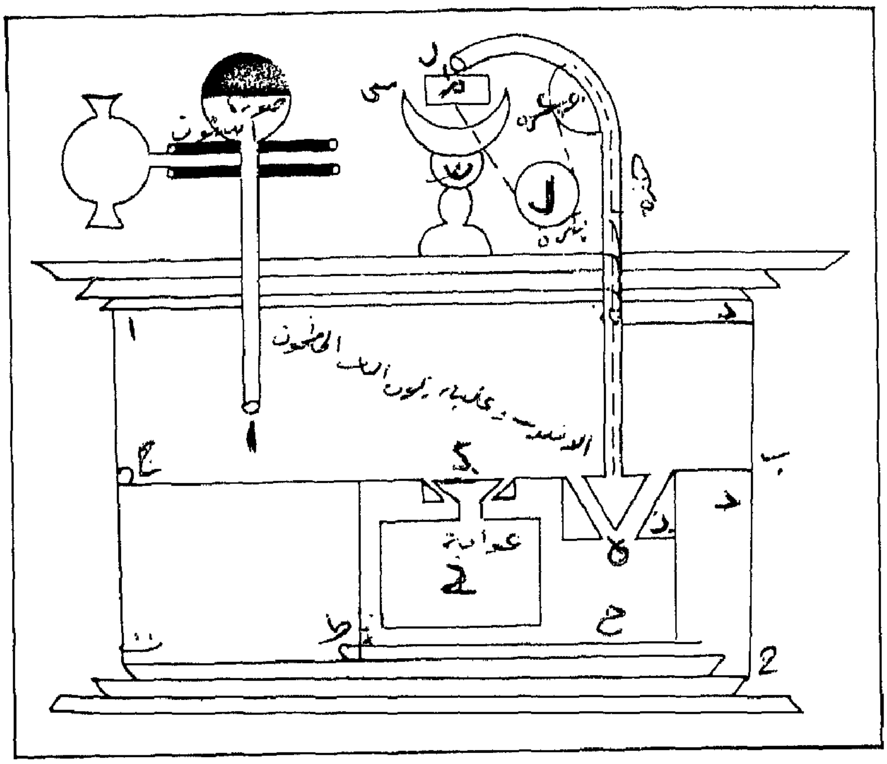
أن القـاعدة التي يـرتكز عليهـا الثور هي محكمة الاغلاق وقد قسمت حسب ارتفاعها إلى قسمين متساويين فأصبح لدينا القسم الأسفل (ت ح ت ج) والقسم الأعلى (آد ب ج).

لقـد ركز في سـطح القسم الأعـلى بيتـون (حنفية) لتفريـغ الماء إلى داخـل هذا القسم. ويجب أن تكون تلك الحنفية محكمة الاغلاق كي لا يتسرب منها الهواء.

أما القسم الأسفل فقد ركز في داخله وعلق بسـطح (ب ج) حوض (د ط) وهـذا الحـوض يحوي دبة أي (عوامة) أو (فواشة) تنتهي إلى طبق (ب ج) بباب مطحون (Soupape)ينفتح إلى أعلى عندما تعلو الدبة حسب ضغط الماء.

ومن جهة أخرى ثبت في طبق (ب ج) أيضاً وداخـل الحوض (د ط) أنبـوب طويل يختـرق القسم الأعـلى (آد) لينتهي إلى داخـل جسم الثور. أنظر الشكل رقم (٨) وهنا لم يفسر بنو موسى مجرى الماء إلى داخله ولكن من المفروض أن يكون هذا الأنبوب ينتهي إلى خطم الثور. ويوجد داخل هذا الأنبوب سلسلة يثبت طرفها الأسفل في طبق الباب المطحون (Soupape)

الشكل رقم ٨



المعلق في سطح حوض (دَ طَ). وتكون هذه السلسلة مشدودة ببكرتين ويكون الطرف متصل بدبة (مَ).

كيف تعمل هذه الحيلة

عندما نصب الماء إلى القسم الأعلى من الصندوق وذلك من بيثون (آ) فإن الماء يتجمع في هذا القسم وليس له مخرج. ولكن عندما نقدم إلى الثور وعاء (نَ سَ) فيه ماء ونغمس خطم الثور به ترتفع الدبة المثبتة في خطمه فتجري بذلك السلسلة على البكرتين وتفتح طبق الباب المطحون (هَ) فينحدر حينئذ الماء من القسم الأعلى للصندوق إلى حوض (دَ طَ) وحيث أن هذا الحوض يحتوي على دبة فإن الماء يرفع الدبة فتفتح الباب المطحون الثاني بهذا تقوى قوة اندفاع الماء إلى حوض (دَ طَ) وحيث أن هذا الحوض ينتهي في أسفله في ثقب (طَ) فإن الماء يجري بقوة إلى القسم الأسفل من القاعدة الأساسية.

أما هذا القسم الذي كان ممتلئاً هواء قبل وجود الماء وحيث أن الماء يطرد الهواء الذي في داخله فإن الهواء يخرج بقوة من الثقب (جَ) في أعلى القسم فيسمع بذلك صوت.

وأما الضجة فإنها تأتي من الماء الذي ينحدر داخل الأنبوب حيث يتعثر بالسلسلة الموجودة داخله وذلك عندما نغمس خطم الثور في الماء يطرد الهواء ليحل الماء مكانه فتسمع بذلك ضجة أيضاً.

يتضح مما تقدم بأن هؤلاء الاخوة كان لهم عمق في التفكير ودراية كافية في المعلومات وفن تقني يفوق كل خيال، وأن حيلهم هذه ان مادلت على شيء فإنها تدل على مدى ارتفاع مستوى ثقافتهم العلمية حتى أنهم أصبحوا يحتالون على العلم وفقاً لرغباتهم فأصبح العلم ليناً في عقولهم يصحبهم في جميع مجالاتهم الحياتية. وأن حيلهم هذه تنم عن ذكاء وقاد وخبرة عميقة في القوانين العلمية.

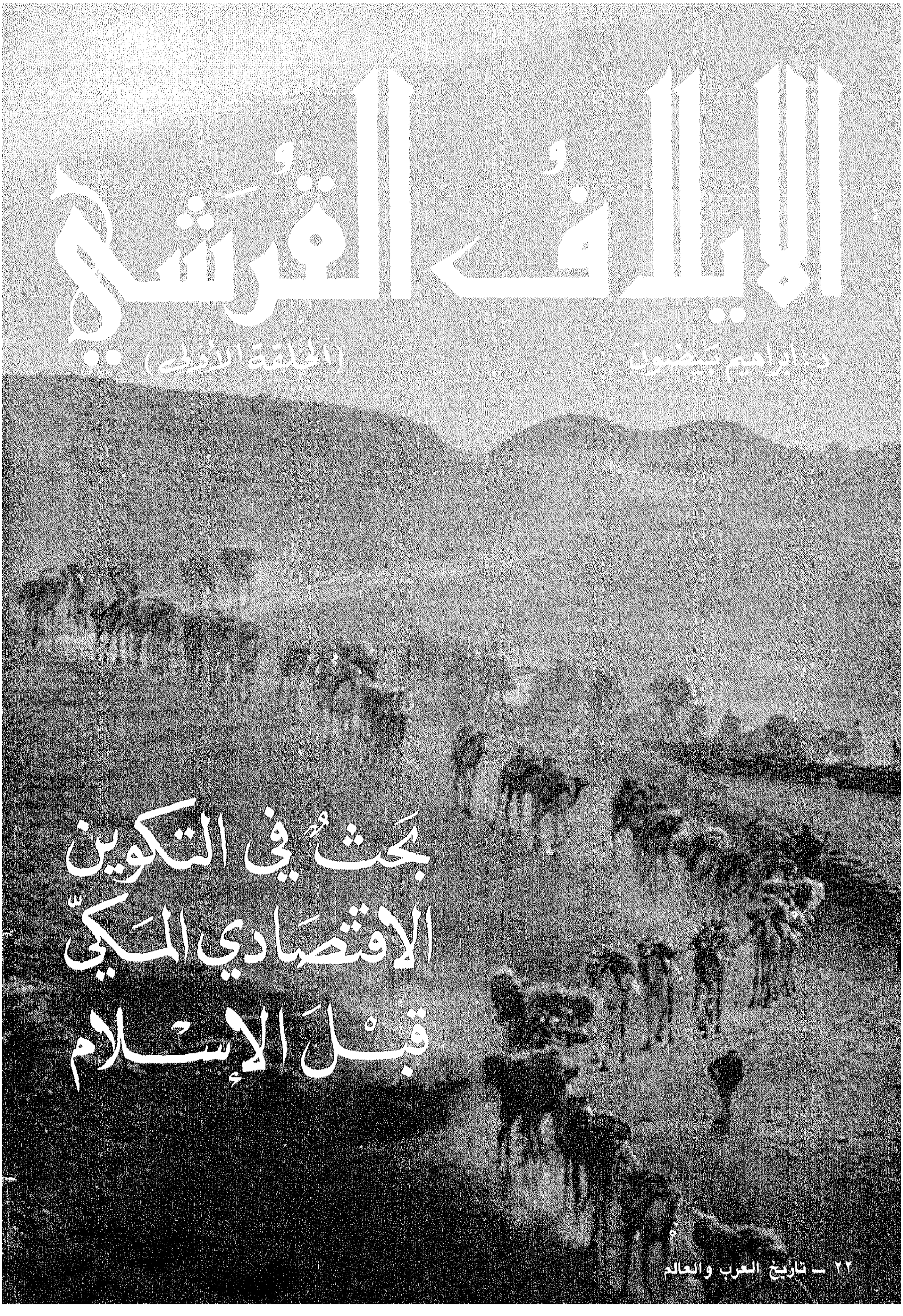
هذا واننا نكتفي بهذا القدر من النماذج علنا نستطيع في دراسات مقبلة من عرض نماذج أخرى. ■

الإيلافُ القُرَشيّ

د. ابراهيم بيضون

(الحلقة الأولى)

بحثٌ في التكوين الاقتصادي المكّي قبلَ الإسلام



كان الانتاج الاقتصادي رهين البيئة الحجازية بكل تفاصيلها، حيث عاش السكان الأوائل، مفروضا عليهم تكيف غير محدود مع الجفاف ونمط خاص من الحياة الاجتماعية. فهنا يتداخل التحضرّ مع البداوة وتتشابك المصالح عند نهاية خطّ موحد، ليؤلفا معا ظاهرة حضارية متميزة. ولذلك فانه من العسير جداً تتبع هذه الحقبة المتقدمة من تاريخ الحجاز غير الاسلامي، بمعزل عن حركة التجارة العالمية، المتزامنة مع نهوضه، تلك التي عرفت بتجارة الشرق ومواصلاتها بطريق الهند(١)، الذي طالما توجهت اليه انظار الدول الكبرى المتعاقبة في التاريخ، وطمحت الى ادخاله في دائرة نفوذها السياسي والاقتصادي.

واذا اردنا ملاحقة منابع السلع الرائجة التي تحكّمت بالسياسية الاقتصادية العالمية انذاك ـ تحكم سلع أخرى في عصور أخرى، تحظى بالأهمية «الاستراتيجية» نفسها ـ سنجد عدة مصادر ذات طابع شبه تخصصي، كالحرير في الصين والتوابل في الهند، حيث كان التجار الشرقيون يستوردون هاتين السلعتين. فضلا عن خشب الصندل (الصين ايضا) من سوقها الرئيسي في سيلان (سرنديب)(٢). اما المادة الاخرى المهمة، فهي البخور التي كان مصدرها حضرموت في جنوب شرقي شبه الجزيرة العربية، عبر «ساحل البخور» المحاذي لها. ولقد حملت هذه البضائع منذ العصر الروماني، ثلاثة معابر متفاوتة الأهمية: الاول، كان يمثّل الطريق الاحتياطي للرومان ثم البيزنطيين، في الوقت الذي تضطرب فيه العلاقة مع العدو التقليدي (الفرس)، الذي يسيطر على معظم امتداده ويتحكّم بمساره، حيث ينتشر في الشمال عبر اسيا الوسطى الى بحر الخزر فالبحر الاسود على تخوم امبراطورية الرومان. ولكن هذا الطريق كان على جانب كبير من التعقيد والخطورة، ومن ثم كان غير اقتصادي بالنسبة للتجار الذين لجأوا عند استخدامه الى رفع الاسعار، تغطية «للتكاليف المرتفعة، على نحو ما يحدث عادة ابان فترات الاضطراب السياسي والعسكري التي تهدد الطريق التقليدي للتجارة»(٣).

والطريق الثاني امتد الى الجنوب منه، عبر بلاد الصغد حتى اسيا الصغرى أو الخليج الفارسي، حيث كان اقدم الطرق وأكثرها سهولة واجتذابا للتجار. ولكنه غالبا ما تأثر بظروف الصراع التقليدي بين الدولتين الفارسية والرومانية ثم البيزنطية، خاصة وان الجزء الرئيسي منه يمر في الاراضي الخاضعة للدولة الأولى(٤).

أما الثالث، فكان بحريا يعود الى ايام البطالمة، الذين اهتموا بالتجارة الشرقية وعملوا على استغلال الموقع الجغرافي لدولتهم بين البحرين الأبيض والاحمر(٥)، لتكون مصر المركز الرئيسي للتبادل التجاري في المنطقة، وهو يمتد من سيلان عبر المحيط الهندي الى السواحل الغربية للبحر الاحمر. ولقد ظلّ هذا الطريق ابان العصور المتوالية متصلا بالتجارة المصرية، خاصة في عصر النفوذ الروماني، حيث كان وسيلة الاتصال الأكثر أهمية بين الشرق والغرب، وذلك حتى بدايات القرن السادس الميلادي(٦).

على أنه تجدر الاشارة الى ان المواصلات البحرية، لم تكن الوسيلة المفضلة لدى التجار في ذلك الوقت(٧)، اذ اعاقها من عوامل الطبيعة السلبية والتطور التقني المحدود، ما جعل المواصلات البرية تمتلك زمام التفوق، لسهولة اجتيازها وسلامة محطاتها خلافا للاولى. ويمكن القول ان الطابع العام للتجارة كان بريا في الغالب، حيث التاجر يجذبه الربح الوفير، انّى كان مصدره ويتوسل الامان لامواله، كقاعدة تاريخية لا تخضع للتغيير.

وكانت اهمية البحر الاحمر في الحقيقة، مرتبطة بالقوى المسيطرة على مصر، بدءا بالبطالمة الذين طمحوا الى اتخاذه منطقة نفوذ خاصة بهم. ولقد اسهم هؤلاء في تنشيط حركة

■ د. ابراهيم بيضون
استاذ التاريخ الاسلامي في الجامعة اللبنانية ـ استاذ مشرف في قسم الدراسات العليا في الجامعة اليسوعية ـ استاذ التاريخ الأندلسي في الجامعة العربية وعضو الهيئة الادارة في المجلس الثقافي للبنان الجنوبي.

الملاحة فيه، بواسطة ملّاحين وتجار من اليونان، كان لهم قصب السبق في هذا المضمار. وثمة نصّ قديم[٨] يعود الى النصف الاول من القرن الثالث ق.م، وذلك في معرض الاشارة الى دور العرب الجنوبيين في تجارة البحر الاحمر، التي كانت على ما يبدو مزدهرة حينذاك وفي منجى من غزوات القراصنة المنتشرين على سواحله الشرقية بصورة خاصة، وهي خالية في الغالب من المرافىء الآمنة. على أن الدور البارز الذي شغله هذا البحر في التجارة العالمية، انما يعود الى أيام الرومان، حيث مثّل حلقة اساسية في المواصلات بين الشرق والغرب[٩]. ويبدو أن هؤلاء الذين شكلوا القوة الامبراطورية الاعظم في ذلك الحين، تطلعوا بدورهم الى السيطرة على المنطقة الجنوبية من شبه الجزيرة والوصول منها الى سواحل الخليج والمحيط الهندي، بحيث تصبح شرايين التجارة الشرقية في قبضتهم، بما يرافق ذلك من تهديد واضح للنفوذ التقليدي الذي كان يمارسه الفرس في هذه المنطقة. ولقد تبلور هذا الاتجاه خاصة، بعد سيطرة الرومان على دولة الانباط، وانشاء الطريق الذي يصل ميناء أيلة بدمشق عبر البتراء وبصرى في الشام[١٠].

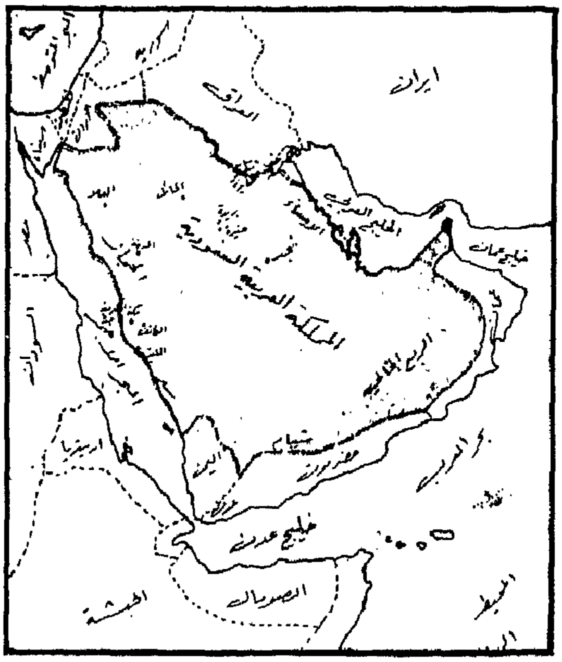
ولكن مياه البحر الاحمر، لم تكن بكاملها صالحة للملاحة، أو على الاقل مشجعة للتجار على ارتيادها بصورة دائمة حتى في زمن التفوق الروماني، وذلك بسبب مجموعة من المعوقات، لم يكن من السهولة تذليلها أو الحدّ من اخطارها الكبيرة. ويبدو ان ثمة منطقتين في هذا البحر كانتا على تفاوت واضح، من حيث الاهمية الملاحية. فالشمالية منهما، كانت خالية أو تكاد من السفن، لا سيما الكبيرة الحجم، التي تتعرض لتهديد المناخ الصحراوي الجاف وراء الساحل، الأمر الذي حال دون قيام مراكز استقرار على امتداده في الجانب الشرقي، فضلا عن تهديد الشعاب المرجانية المتكاثرة فيها، على نحو كان يفرض مهارة ملاحية فائقة، لم تتوفر في ذلك الحين. وكان من الطبيعي ان تؤدي هذه الظروف الى عرقلة التجارة وتعثر مسار السفن في هذا الجزء من البحر الاحمر، بحيث وضعها ذلك أمام خطر ثالث هو القرصنة، كمورد رئيسي لقبائل البدو التي كانت تعتبرها «امتدادا لغاراتها في الصحراء» كما يقول جورج حوراني[١١]. أما الجنوبية منها، فكانت اكثر ملاءمة للملاحة، انطلاقا من الشروط المناخية والجغرافية المختلفة عنها في الشمال، الامر الذي اتاح للسفن موانيء ترفأ اليها وتتزود منها بما تحتاج اليه أو تتبادل فيها السلع، خاصة عدن التي وصفها (اليعقوبي) بانها «ساحل صنعاء وبها مرفأ مراكب الصين»[١٢]. ولعل ذلك كان وراء تفوق العرب الجنوبيين في التجارة البحرية، بالمقارنة مع الشماليين، الاكثر توجها نحو الشام التي اصبحت من اهم الاسواق في شرقي البحر المتوسط التابعة للنفوذ البيزنطي. ولقد جاء ذلك على حساب مصر وتجارة البحر الاحمر المرتبطة بها، حيث بلغت ذروة رواجها في العصر الروماني[١٣]. وكان لسقوط روما واضمحلال الامبراطورية في الغرب، في الوقت الذي احتفظ فيه البيزنطيون بالسيادة على الساحل الافريقي بما فيه مصر، تأثير كبير على تطور حركة التجارة في ذلك الحين، دون ان ننسى دور الاحباش في هذه المتغيرات، والصراع على النفوذ الذي اخذ يميل نحو مصلحتهم في المنطقة الجنوبية.

ولعل ركود التجارة في البحر الاحمر تأثر بهذه المعطيات وتزامن خاصة مع قيام دولة البيزنطيين على تخوم الشام، فضلا عن اضطراب الاوضاع السياسية في القسم الغربي من البحر المتوسط. ولان الملاحة كانت غير آمنة، لا سيما في منطقة لم يعد من الممكن تجنبها كما في الماضي، فقد اصبحت التجارة منذ القرن الخامس الميلادي مرتبطة بالمنطقة الشامية، حيث تسير قوافلها بمحاذاة الساحل الشرقي للبحر الاحمر. على ان القسم الجنوبي منه قد استثني من الركود التام وبقي للملاحة فيه بعض نشاطها الاعتيادي، سواء من جانب الاحباش ام اليمنيين، الا ان ذلك الدور كان مجرد رادف للتجارة الشرقية التي اصبحت برية الملامح منذ ذلك الحين.

وما لبثت حركة التجارة ان شهدت تحولا في مواصلاتها، يتلاءم مع تطور خارطة العالم السياسية، خاصة بعد انتقال امبراطورية

الرومان الى المشرق، تحت اسم الدولة البيزنطية، وذلك في النصف الاول من القرن الرابع الميلادي. وكان من نتائج هذا التحول، تركيز محاور المواصلات التجارية آنذاك حول خطين رئيسيين: الاول، طريق الفرات، حيث كانت السفن تفرغ احمالها عند رأس الخليج قبل ان تنقل برّا الى العراق والشام فضلا عن مصر، أو تتوغل في النهر نحو الغرب، مسهمة في انتعاش الجزر القريبة من الساحل الشامي(١٤)، وفي قيام دولة الحيرة (حوالي منتصف القرن الثاني الميلادي) عند نقطة انعطاف واضحة لدجلة والفرات، حيث انتقل الثقل السياسي والاقتصادي لامبراطورية الفرس، تبعا لضرورة التطور التاريخي «حسب تعبير (كريستنسن)(١٥). وكانت ثمة علاقة بين ازدهار هذا الطريق وبعض المدن الشهيرة، التي نشأت في بدايات عهودها كمحطات تزود القوافل بالماء والمؤن، كالحيرة (العراق) والبتراء وتدمر (الشام)(١٦). ولقد ظل هذا الطريق يمثل ابرز معابر التجارة الشرقية حتى القرن السادس الميلادي، عندما تحوّل الى منطقة عسكرية قلقة، في اعقاب انفجار الصراع بين الدولتين الساسانية والبيزنطية، بحيث كانت الاخيرة من اشدّ المتضرّرين من ركود الحركة التجارية عبر هذا الطريق، الامر الذي يعني افتقاد الحرير من القسطنطينية، وهي السلعة الاكثر رواجا في اسواقها. ولذلك كان البحث عن طريق آخر، يعوض التجارة البيزنطية خسارتها، من اهم شواغل الامبراطور البيزنطي (جستنيان)، الذي كان في الوقت نفسه شديد الحاجة الى عائداتها، الموظفة حينذاك في تدعيم سياسته الاوروبية التوسعية. ولقد دفعه ذلك الى التوجه نحو الحبشة، لإقامة نفوذ مشترك تحت رعايته في «منطقة البحار العربية»(١٧)، التي لفتت الانظار مرة اخرى، كونها البديل المناسب والوحيد لمرور التجارة البيزنطية، بعيداً عن الهيمنة المباشرة للفرس.

أما الخطّ الثاني، فهو الطريق الجنوبي الذي أخذ في التألق على حساب تراجع الاول، واصبح الشريان الحيوي للتجارة الشرقية في ذلك الوقت، ولكن دون ان يقضي تماما على اهمية



المعبر الآخر، الذي كان يستعيد دوره بصورة متذبذبة تبعا للوضع السياسي للعام، الذي كان يميل غالبا الى الاضطراب. ولقد رضخ الفرس الساسانيون لهذا التحول، خاصة وان الخليج الذي كان تحت نفوذهم، لم يفقد محوريته التجارية، وظل متصلا بأسواق الشام، ولكن عبر منافذ لا تخضع مباشرة لهم، بينما ظلت مصر مرتبطة بتجارة البحر الاحمر(١٨).

وكان هذا الطريق يشهد نموا مضطردا، تحت تأثير المعطيات السياسية والجغرافية المستجدة، وذلك مع ازدياد اهمية التجارة وارتباطها عضويا بالمصالح الحيوية حينذاك لكل من الفرس والبيزنطيين، فضلا عن الاحباش. واذا كانت امبراطورية الرومان في زمن وثنيتها، قد شعرت بالحاجة لوضع قبضتها على أحد المفاصل الاساسية لهذا الطريق، وذلك عبر المحاولة الفاشلة التي نفّذها حاكم مصر الروماني (اليوس غايوس — Aelius Gallus)، معتمدا على حلفاء أو ادلاّء من المنطقة، فان وريثتها الدولة البيزنطية لم تتردد في القيام بمحاولة اكثر ذكاء واطول نفسا، وذلك تحت ستار التبشير ومحاولات الاحتواء، تلك السياسية التي تبلورت فيما بعد، في علاقات هذه الدولة مع القبائل العربية المتاخمة لها.

بيد ان فكرة التغلغل عبر التبشير الديني، رغم اهميتها كطريقة فذّة من طرق توظيف العقائد في خدمة الاهداف السياسية، فان مسألة التنصير في اليمن، ينبغي التعاطي معها بشيء من الحذر، حيث ان مراكز النصرنة في جنوبي شبه الجزيرة ليست بالضرورة من نتاج التدخل الخارجي[١٩]. ولا يستبعد في هذا السبيل، ان يكون لتجار الحيرة النساطرة، تأثيرهم المتفوق على المبشّرين الاحباش (اليعاقبة)، خاصة وان نجران، مركز النصرنة في اليمن، كانت تمثل آنذاك حلقة بالغة الاهمية[٢٠] في شبكة المواصلات البرية، لا سيما الخط المفضي إلى العراق[٢١].

ولقد بلغ هذا التدخل ذروته في حملة الحبشة، التي انتهت الى السيطرة على اليمن (٥٢٥ م). ولكن هذه المحاولة رغم النجاح العسكري الذي حققته، في القضاء على حكم الملك اليمني المتهود (ذي نؤاس)[٢٢]، فقد اخفقت في ترسيخ اقدام التحالف البيزنطي ــ الحبشي في جنوبي شبه الجزيرة ووجدت صعوبة في منافسة النفوذ الفارسي القوي، الامر الذي قد يفسر استئناف عمليات الاحباش العسكرية نحو الشمال (الحجاز)، بغية الاتصال بحلفائهم البيزنطيين في الشام[٢٣]، وذلك بعد تعثّر مهمتهم في الجنوب.

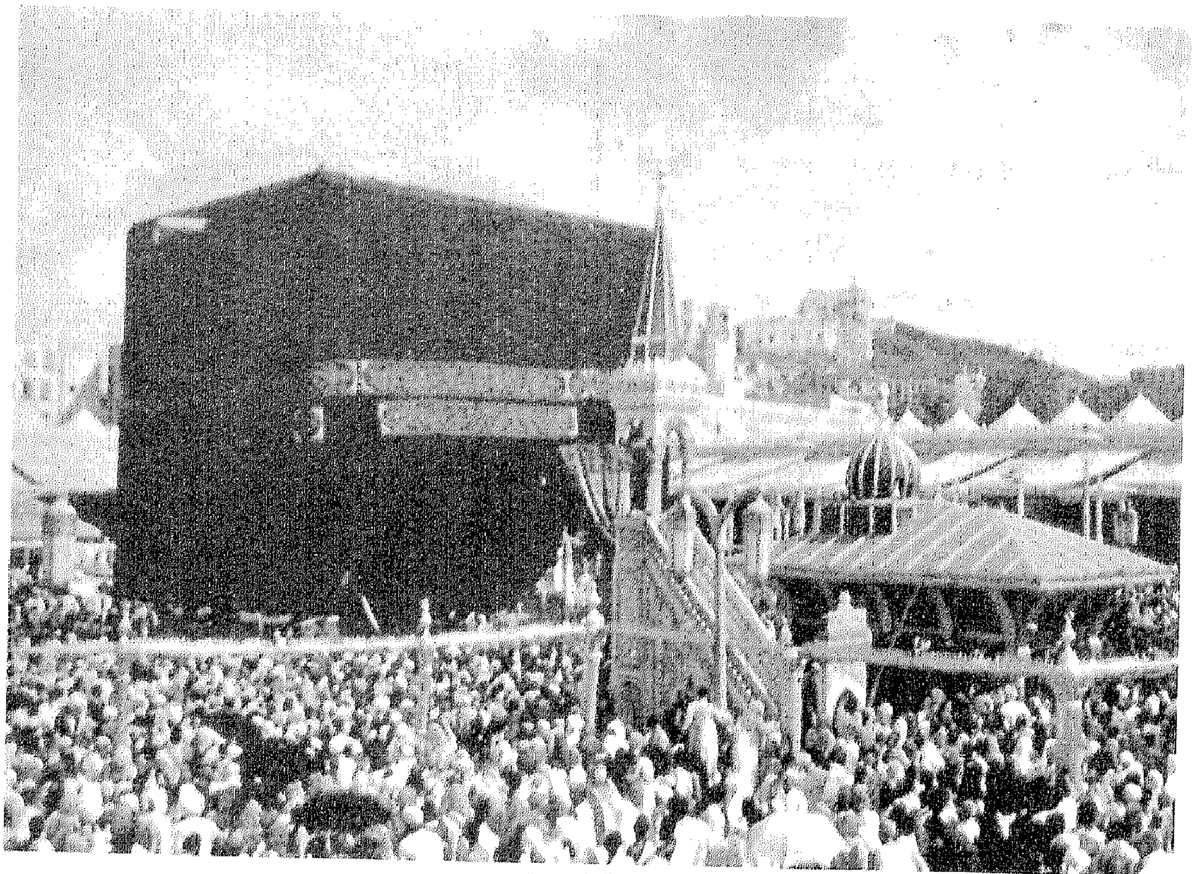
وكان الفرس من جانبهم، يتوخون الوصول الى هذه المنطقة، لتعويض ضرائب المرور المرتفعة[٢٤]، التي افتقدوها مع تحول طريق التجارة. ولأن امبراطورية الفرس كانت مطلة على شبه الجزيرة، وتقع على تخومها الشرقية، فقد تجاوزت محاولتي الرومان والبيزنطيين الى عملية أكثر احتواء، أدّت الى السيطرة المباشرة على اليمن بعد اسهام كبير في اخراج الاحباش منها.

كان هدف الفرس من هذا الموقف، هو استعادة المبادرة في تجارة الشرق، عبر التحكم مرة أخرى في زمام مواصلاتها والسيطرة على محطاتها الحيوية، حيث الخليج، وهو مصب السلع الشرقية الأكثر أهمية، كان لا يزال يقع في دائرة النفوذ الساساني. ولكن هذه الخطة لم تحقق سوى اليسير من النجاح، حيث اخفق هؤلاء، فيما ذهبوا اليه، واقتصر الأمر على اقامة نفوذ مباشر على طرق شبه الجزيرة الجنوبية الشرقية، دون تغيير جذري في موازين حركة التجارة، بينما ظلت السيطرة للبيزنطيين على طرق الشمال[٢٥] بما فيها اسواق الشام ومصر.

ومن المثير في تحول شبكة المواصلات التجارية من العراق الى شبه الجزيرة، ان البحر الاحمر كممر مائي، لم يعوض فراغ الفرات الذي افتقد اهميته منذ القرن السادس. فقد حالت القرصنة والعوائق الطبيعية المختلفة، دون القيام بدوره، كشريان حيوي في التجارة العالمية. على ان دور البحر الاحمر لم يكن هامشيا أو معزولا، بقدر ما كان مكملا للطريق البرّي الذي يسير بمحاذاته. ومن ناحية اخرى كان السبيل الوحيد للاتصال بالدول الواقعة على الساحل الغربي منه ومدّها بالمنتجات الشرقية منذ ايام البطالمة. ولهذا كانت التجارة فيه حبشية أو مصرية في الغالب، وكذلك السفن التي حملت في معظمها التبعية للاولى[٢٦]، خلافا لتجارة الساحل الشرقي البرّية الملامح، دون ورود ما يشير الى سفن لها تجول في هذا البحر، حيث كانت تستخدم على الارجح السفن التي مرّ ذكرها، والتي كانت تتردد على موانىء هذا الساحل، كالجار والشعيبة[٢٧]، فضلا عن الموانىء العديدة التي اعتادت التردد عليها في الجنوب.

وهكذا جاء نمو الطريق البري في شبه الجزيرة على حساب البحر الاحمر الذي اقتصر على تجارتي الحبشة ومصر، ولكن دون أن يكون احدهما بديلا للآخر، وان كان الاول يستفيد حكما من جمود الثاني ويعوض توقفه عند الضرورة. وكان من البديهي ان يرافق انتعاش هذا الطريق، ظهور محطات متفاوتة الاهمية، تبعا لما تؤمنه من خدمات للقوافل، في منطقة يغلب عليها الطابع الصحراوي الجاف، حيث كان الماء في هذه الحال يحدد مسار الطريق بين محطة وأخرى.

وكان لإحدى هذه المحطات قصب السبق في تبوّؤ الدور التجاري الاول، مستفيدة من المتغيرات المهمة، التي وضعتها في وسط حركة



مكة المكرمة

التجارة العالمية. واذا ما أضفنا اليها المعطيات الذاتية التي اسهمت في تطور هذه المحطة الجديدة (مكة)، كحلقة كبرى في المواصلات بين الهند وافريقيا والبحر المتوسط[٢٨] واخرى اقل اهمية في التجارة الداخلية، لأدركنا اهمية هذا الدور البارز الذي كان مقدّرا لها ان تشغله في ذلك الوقت.

وقد نتساءل عن الأسباب التي كانت وراء بروز مدينة وضعتها الطبيعة في أرض جرداء خالية من الزرع والانهار[٢٩] أو خالية «من الماء والانيس» كما قال الازرقي[٣٠]؟ كيف تتحول بقعة كهذه في ظل بيئتها الصحراوية[٣١] الى محطة تجارية كبرى، وتكون دون غيرها في الحجاز أو شبه الجزيرة، الاكثر افادة من التحول الذي طرأ على اتجاه المواصلات البعيدة المدى كما سبقت الاشارة؟ لماذا لم تكن يثرب مثلا، وهي ارض يتوفر فيها الماء والنبات[٣٢]؟ أو الطائف التي تقع على مسيرة يوم من مكة وتتفرد بمناخها وارتفاعها، اللذين جعلا منها واحة هذا الاقليم الخصبة[٣٣]؟.

والجواب على هذه الاسئلة له علاقة بعدة اعتبارات كانت قد اسهمت معا في سطوع مكة وتفوقها الحجازي. فالتجارة البرّية المرتبطة عضويا بشبكة من الطرق وفي مقدمتها طريق اليمن ــ الشام، هيأت لها بدون شك الظروف الموضوعية في هذا السبيل. وكان لقربها من اليمن، محور التجارة القديم تأثير كبير في اكتساب ذلك الدور الوسطي، المؤهلة له جغرافيا دون يثرب التي نأت الى الشمال الشرقي باتجاه نجد[٣٤]، ودون الطائف التي حالت طبيعتها الجبلية دون احتلال الموقع المتوسط المثالي الذي تمتعت به مكة. وهو ما وصفه لامنس، بانه على «مفترق طرق العطور والتوابل والقوافل التجارية بين الخليج وفارس والحبشة وبابل واليمن وسورية»[٣٥]. ولقد أسهم هذا الموقع بدون شك في التكوين الاقتصادي لهذه المدينة، على نحو جعل التجارة خيارها الوحيدة في المجابهة مع الطبيعة القاسية.

ومن الواضح أن مكة لم تأخذ دورها فجأة في حركة التجارة العالمية الذي اشتهرت به في

أواخر القرن السادس، وانما كان ذلك موصولا بجهود حثيثة على مدى اكثر من قرنين من الزمن. وهي فترة تكاد تكون شبه مجهولة لدى المؤرخين، الذين اقتصرت معلوماتهم على الروايات الاخبارية، المهتمة بتكوينها التاريخي المتزامن مع قدوم ابراهيم وبناء الكعبة، الاثر الديني الذي استمدت منه المدينة قداستها وموقعها المميّز بين قبائل وحواضر الحجاز، فضلا عن تكوينها السكاني والصراع على النفوذ فيها، بدءا بالعمالقة الى جرهم حتى خزاعة وقريش(٣٦). ولا ريب ان تاريخ هذه الحقبة المكيّة يكتنفه الغموض وتغلب عليه الاساطير(٣٧)، مما يجعل اية محاولة موضوعية لدراستها، امرا في غاية الصعوبة والتعقيد. واذا كان تسويغ هذا الغموض، بان الجزء الشمالي من شبه الجزيرة لم يأخذ نصيبه من الاهتمام، في الوقت الذي تمّ فيه اكتشاف جانب غير يسير من تاريخ الجزء الجنوبي، رغم التفاوت الزمني بين الاثنين، الذي يفترض ان يكون لمصلحة الاول، فمن الجائز ان مكة لم تصل الى مرحلة من النضج في تكوينها السكاني والاقتصادي، الا منذ القرن الخامس الميلادي، اي في اعقاب تدهور النفوذ الحميري في الجنوب. وهذا مايفسر انكفاء الاخبار المكيّة على الهامش من تاريخ اليمن، المركز الحضاري الاول في شبه الجزيرة بما فيها الحجاز. ولعل اقدم مايرد في هذا السبيل، ماروي عن زيارة «تبع الحميري»، احد ملوك اليمن الى مكة، الذي حجّ الى «البيت» وطاف حول الكعبة، وكان اول من حمل اليها «الكسوة» استنادا الى الرواية الاخبارية(٣٨).

واذا كانت الشخصية التاريخية لمكة ملتصقة بالكعبة، التي تطورت الى حلقة مركزية لعبادات العرب قبل الاسلام، فثمة صورة اخرى لا تنفصل عن هذه المدينة، وهي صورة التاجر المتفوق الذي سخّر كافة الامكانات والمرافق، بما فيها الكعبة، في سبيل مصالحه الاقتصادية. فقد اندرجت هذه المدينة من تجمع صغير في بقعة مجدبة، الى اشهر مراكز الاستقطاب لقبائل البدو، قبل ان تطل على تجارة الشرق وتصبح الوسيط المحوري فيها. ولا مندوحة من الاعتراف بان وجود الماء في مكة على ضحالته في ذلك الوقت، كان جزءا هاما من عملية التطور تلك، التي انتهت معها الى محطة كبرى، لتبدو وكأنها «الواحة» الجديدة التي تدخّل الانسان في صنعها الى جانب الطبيعة. ولم يكن «زمزم» اول آبار مكة(٣٩) ومصدر الماء الوحيد فيها، ولكنه انفرد بشهرته الخاصة، كونه بئر بني هاشم، اسرة النبي وزعماء مكة في العصر التجاري الاول، ومن ثم انعكاس ذلك على اهميته التاريخية قبل الاسلام وبعده. وقد يبدو هذا البئر في المصادر التقليدية وكأنه عصب الحياة في المدينة، رغم المبالغة الواضحة في هذا التصور، المتناقض مع حجمها السكاني، سواء كان على صعيد المقيمين من قريش و«الجاليات» التجارية ام الوافدين اليها في المواسم ومع القوافل. ومن هنا كان توفير الماء مرتبطا بنمو المدينة واشتداد الضغط البشري عليها. ولم يكن مايحول دون اتخاذ البطون القرشية على اختلافها، آبارا خاصة بها(٤٠)، كضرورة تحتّمها الحاجة الملحة، كما النزعة الاستقلالية، في مجتمع يغلب عليه النظام القبلي. وما يقال عن مجاجة في مياه هذه الآبار، لا سيما «زمزم» ومدى صلاحيتها للشرب، فلا يحتاج ذلك الى نقاش في «بلد قحط» على حدّ تعبير (المقدسي)(٤١). فالمسألة كانت كمية اكثر منها نوعية، تفرضها قبل كل شيء الحاجة الماسة الى الماء في بيئة صحراوية الملامح. وهذا ماجعل «السقاية» في مكة، تأخذ دورها البارز في الصراع على النفوذ السياسي، قبل نحو قرن من ظهور الاسلام(٤٢).

ولقد شهدت التجارة المكيّة تطورا غير عادي، وذلك عبر انطلاقتها الكبرى، من النطاق المحلي، الى ماوراء حدود شبه الجزيرة العربية. ولعل بواكير هذه الصلة مع الخارج، تعود الى ايام الانباط الذين سيرث عنهم المكيون، الكثير من الملامح المشتركة بين الطرفين، وفي طليعتها الطريقة التي مارس بها كلاهما التجارة. وقد وصل الدكتور جواد علي في اعتقاده الى ان «الانباط هم اقرب الى قريش والى القبائل الحجازية»(٤٣) من القبائل العربية الاخرى في الجنوب. ولا يستبعد في هذه الحالة ان يكون نفوذ هؤلاء، الذين اعتمدوا اساسا على ضرائب

المرور[٤٤]، قد امتد جنوبا الى الحجاز، حيث تحكموا لفترة ما بهذا الجزء الحيوي من طريق القوافل.

وقد يعزز هذا الاتجاه، احتكار البطالمة لتجارة البحر الاحمر في ذلك الوقت وتصدّى الانباط بشتى الوسائل له، بما في ذلك التحالف ضدهم مع السلوقيين، فضلا عن تسهيل مهمة الرومان فيما بعد، في حملتهم على شبه الجزيرة التي نزلت في الميناء النبطي الشهير (لوكي كومي ـــ Leuce Kome)[٤٥]، قبل متابعة سيرها نحو مأرب، مدعمة بألف من جنودهم[٤٦]. كما يعزز ذلك تنشيط الطريق البري وتزويده بمحطات كبيرة، ظلت لحين عصب التجارة البرية في المنطقة، خاصة بعد التوسع شمالا على حساب السلوقيين. وكان دور الانباط يزداد اهمية مع اشتداد القرصنة في البحر الاحمر وتوقف التجارة المصرية، التي لجأت حينذاك الى اعتماد الطريق الخاضع لنفوذهم الى غزّة.

ويبدو ان الانباط كانوا يمدون السوق المكية بالمواد الغذائية من الشام لا سيما القمح، الذي كان من منتجات هذا الاقليم البارزة[٤٧]. ولكن تاريخ العلاقات التجارية بين الطرفين غير واضح تماما، حيث يعتقد ان التجار الانباط مارسوا نشاطهم حتى بعد سقوط دولتهم على يد الرومان (١٠٦ م) وانتقال مركزهم من (البتراء) الى (بصرى)[٤٨]، التي اصبحت فيما بعد نهاية خطّ القوافل المكية في الشام. وثمة ما يشير الى قدم هذه العلاقة، لا سيما في الجانب المتعلق بالعقيدة الدينية المشتركة والمتشابهة في بعض رموزها وحتى اصنامها[٤٩]. وقيل ان عمرو بن لحيّ الخزاعي (مؤسس الوثنية في مكة)، قد تأثر بعبادة الانباط، عندما قصد البلقاء بسبب مرض ألمّ به، «فوجد اهلها يعبدون الاصنام»، بها يستسقون المطر ويستنصرون على العدو. فحمل عند عودته اصناما الى مكة، التي درجت على العبادة الوثنية منذ ذلك الوقت حسب رواية ابي المنذر الكلبي[٥٠].

وكان انشغال الانباط بالصراع على الشام الى جانب الاطراف الاخرى من السلوقيين والبطالمة الى الرومان، قد اتاح لمكة ظروفا



البتراء

مؤاتية للتحرك بشيء من الحرّية، والخروج من دائرة النفوذ التجاري النبطي، المنتشر حتى تخوم الحجاز.

بيد ان سقوط البتراء، المحطة الرئيسية بين اليمن والشام، رافقه ظهور محطة كبرى جديدة (تدمر) على تخوم العراق، مرتبطة بخط المواصلات الفراتية، الذي كان لفترة ما عصب التجارة الشرقية وحلقة الاتصال بين الخليج والبحر المتوسط. ولكن هذا الطريق كان خاضعا لتقلبات الوضع السياسي المضطرب، الذي غالبا ما ادّى الى جمود الحركة فيه وهجرة القوافل نحو طريق آخر آمن كما سبقت الاشارة.

ولقد رافق انهيار المحاولة الاستقلالية في تدمر وتقلّص دورها التجاري، تعديل بارز في السياسة الاقتصادية لكل من الدولتين البيزنطية والساسانية، حيث ورثت الاولى النفوذ الروماني في الشرق. فظهر آنذاك ما عرف بالدول «الحاجزة»، كنتيجة للموجة القبلية المهاجرة من الجنوب الى الشمال، استقر على اثرها الغساسنة الازديون على تخوم الدولة البيزنطية

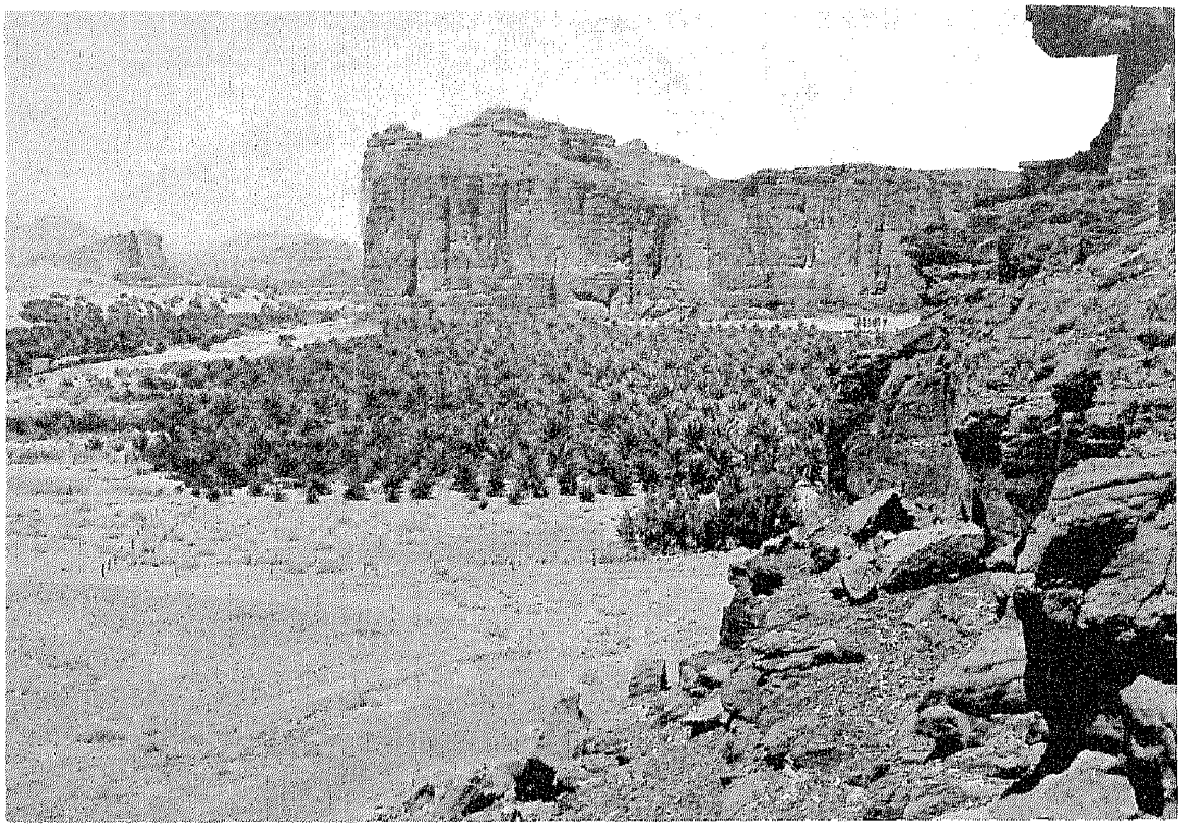
والمناذرة اللخميون على تخوم الدولة الساسانية. ولا يخفى ماكان لوجودهما، الذي شجعته الدولتان الكبيرتان، من تأثير على اقتسام مناطق النفوذ بين كل منها، وما ترتب على ذلك من حماية المصالح التجارية المتشابكة بعضها مع الآخر. وعلى الرغم من اختلال هذه المعادلة احيانا تحت ضغط المتغيرات الاقتصادية في الغالب، فان الاطار العام لهذه السياسة ظلّ قائما نحو قرنين من الزمن، الى ان طرأ تعديل آخر، ادّى الى انتقال محور التجاذب والصراع من العراق والشام الى شبه الجزيرة العربية نفسها.

وفي تلك الاثناء كان «الحاجز»، الذي اقامه الساسانيون والبيزنطيون في وجه «الزحف» القبلي، قد زال أو كاد، ولم يعد هنالك ما يحول دون الاتصال مباشرة، عبر قبيلة او اكثر، بمراكز التجارة ومحطاتها الجديدة. ولم يكن مصادفة تحجيم دولتي الغساسنة والمناذرة، في الوقت نفسه الذي سطعت فيه مكة وتطورت الى محطة كبيرة. فقد كان لموقعها الجغرافي في قلب الحجاز[٥١]، تأثيره على انتزاع دور الوسيط المثالي، وذلك عبر دوائر متفاوتة الاتساع والاهمية، سواء بين قبائل نجد وتهامة او بين الشام واليمن والعراق.

وعلى الرغم من صعوبة تتبع شبكة المواصلات التي ربطت مكة بالمحطات والاسواق في المراكز التي مرّ ذكرها، حيث زال بعضها واندثرت معالمه[٥٢]، فان مصادر التاريخ حفظت لنا القليل من التفاصيل المتعلقة بخطوط القوافل ومحطاتها المختلفة. وقد يحدث ان تتجاذب الطريق بضع محطات، فيمرّ في احداها دون الاخرى، في ضوء ما تقدمه من خدمات اكثر اهمية للقافلة، لا سيما الماء الذي يأتي في مقدمة امتيازات المحطة التجارية.

واذا اردنا تحديد الاتجاه العام للخطوط التجارية المتشعبة من مكة، سنجد ان طريق اليمن ــ الشام، هو الشريان الرئيسي فيها، كونه يصل بين السوقين الاكثر استهلاكا في المنطقة. وبفضل هذا الطريق اكتسبت مكة شهرتها التاريخية، حيث وقعت في نقطة متوسطة منه وأمكنها بالتالي استثماره على نطاق واسع والقبض من خلاله على زمام المواصلات التي تمرّ فيه. فالجزء الجنوبي منه المفضي الى اليمن، يكاد يمثّل امتدادا شبه طبيعي للمدينة على نحو يجعله شديد التداخل مع ما يسميه الجغرافيون العرب، حينا «تهامة الحجاز»[٥٣] وحينا آخر «تهامة اليمن»[٥٤]. وكانت الآبار وعيون الماء تفرض اتجاه هذا الطريق، فتجعله مستقيما او ملتويا بين المحطة والثانية. وقد اورد الجغرافيون تفصيلا باسماء هذه المحطات وكمية الماء ونوعيتها المتوفرة فيها، فضلا عن اشجار النخيل والكروم وبعض النباتات الاخرى[٥٥]. وفي (صورة الارض) لابن حوقل يرد فرعان لهذا الطريق، احدهما يمرّ عبر تهامة والثاني عبر ابوادي، قبل ان يلتقيا في مكة[٥٦]. ولكن الطريق الاول كان الممر التقليدي للقوافل، الا في حالات الاضطراب السياسي التي كانت تتعرض لها المنطقة المحاذية للبحر الاحمر. وكان هذا الطريق مزودا بكل ما يؤمن حماية القوافل وخدماتها، عبر اكثر من عشرين محطة، من ابرزها: تبالة وبيشة وجرش وصعدة (مدينة الجلود) واخيرا صنعاء[٥٧].

اما الجزء الشمالي الذي يمتد من مكة الى الشام، فيجتاز مرحلتين اساسيتين: الاولى، حجازية[٥٨] تنتهي عند يثرب، وهي تأتي بعد مكة من حيث الاهمية الاقتصادية. وكان موقعها على تخوم نجد من جهة وعلى خط الشام الرئيسي من جهة ثانية، قد وضعها في مركز المنافسة التقليدية لمكة. ولكنها افتقدت مركزية هذه الاخيرة وتوسطها، فضلا عن العوامل الذاتية الاخرى التي اسهمت في تراجعها الى الوراء، منطوية على مشكلاتها الخاصة، طوال ما يستحق ان نسميه عن جدارة بـ«العصر المكي». اما المحطات البارزة للقوافل بين المدينتين (مكة والمدينة)، فهي استنادا الى لوائح الجغرافيين (اليعقوبي، ابن رسته، ابن حوقل، المقدسي، ابن خرداذبة): ذو الحليفة (على اربعة اميال من يثرب)[٥٩]، الشجيرة (٦ اميال عن سابقتها)[٦٠]، السيالة (٣١ ميلا)[٦١]، الرويثة (٣٤ ميلا)[٦٢]، السقيا (٣٦ ميلا)[٦٣]، الابواء (١٩ ميلا)[٦٤]، الجحفة (٢٧ ميلا)[٦٥]، قديد (٢٩ ميلا)[٦٦]، عسفان (٢٤ ميلا)[٦٧]، واخيرا

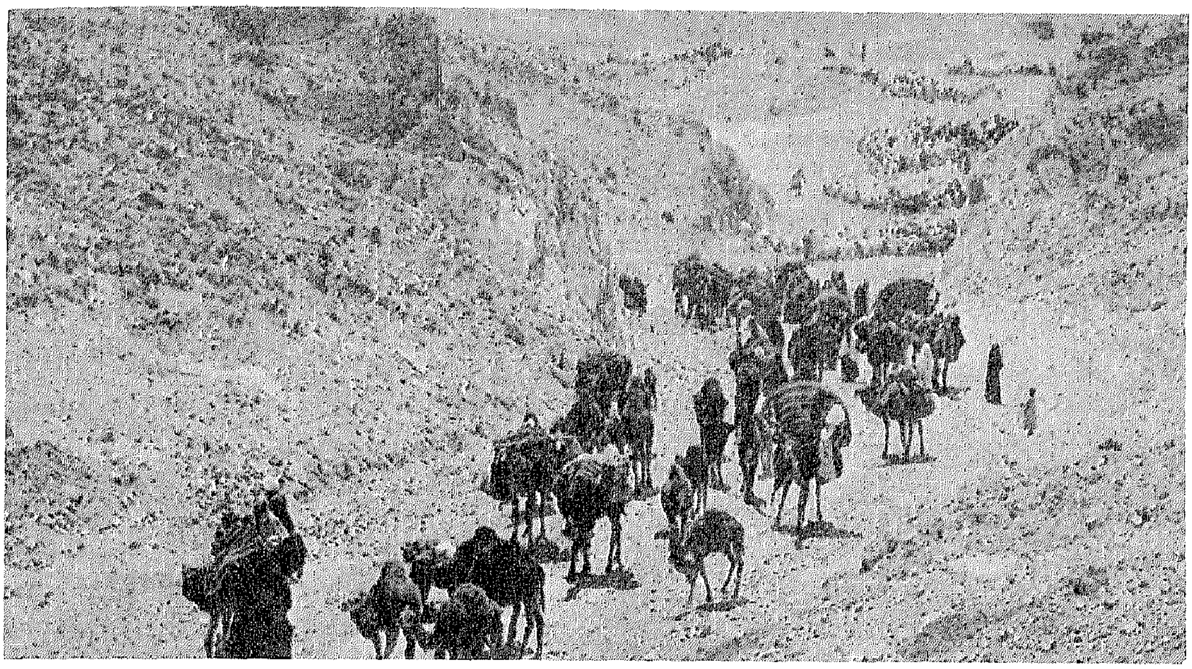


النخيل في الحجاز

بطن مرّ (١٦ ميلا عن مكة)[٦٨]. وكما يلاحظ فان المسافة بين هذه المحطات غير متوازنة، حيث تتحكم بها العوامل الجغرافية وكميات الماء المتوفرة فيها. ويسميها الجغرافيون العرب بـ«المرحلة» التي تزيد احداها او تنقص بضعة اميال عن الاخرى.

اما المرحلة التالية من الطريق (يثرب ــ بصرى)، فثمة اختلاف في تحديد المحطات الرئيسية التي عبرتها القوافل في ذلك الوقت، حيث تفاوتت بين وقت وآخر. فبينما يذكر (المقدسي) انطلاق هذه الطريق من السقيا[٦٩] ــ بما لذلك من دلالة على ابتعاد يثرب عن خط القوافل المتصل بالشام ــ يغفل (ابن رسته) من لائحته هذه المحطة، بحيث يبدأ عنده من ذي خشب ثم السويداء[٧٠] ــ المرّ ــ ذي المروة ــ الرحبة ــ وادي القرى ــ الحجر ــ الجنينة ــ الاقرع ــ المحدثة ــ تبوك ــ سرغ[٧١]. ثم تنعطف الطريق لدى المقدسي بعد السقيا نحو الساحل الى العيص والسويدية وبطن نخل، ومنها الى ذي المروة ثم الرحيبة ووادي القرى والحجر وتيماء وتبوك، وصولا الى دومة الجندل وبصرى[٧٢].

واذا كان خط التجارة الرئيسي الذي توسطته مكة بين اليمن والشام، حيث اقدم محاور التجارة واكثرها شهرة في العالم القديم، فثمة محور ثالث لا يقل اهمية الى الشرق، كانت هذه المدينة على اتصال مباشر به، وهو خليج فارس الذي لم يعدم حركة نشطة في بعض الاحيان حيث كان لا يزال جزء من تجارة الحرير يسلك طريقه التقليدية القديمة، دون تأثر كبير بالتعديل الذي طرأ على خطوط المواصلات التجارية، او بارتفاع تكاليف هذه السلعة نتيجة ازدياد ضرائب المرور، خاصة وان المتعاملين بها كانوا من الفئات العليا في المجتمع البيزنطي[٧٣]. ولقد أدى اقفال طريق الفرات نتيجة هذه الظروف، الى ازدهار مكة، التي اضافت الى دورها المركزي في حركة التجارة، نقطة ايجابية اخرى، وذلك عبر توسطها المحاور الثلاثة الكبرى، ما بين موانىء الخليج والبحر المتوسط والمحيط الهندي[٧٤].



اما الطريق الشرقي بين مكة والخليج، فكانت حجر (اليمامة) تمثّل حلقته المهمة التي تفرعت منها شبكات اخرى ثانوية. وقد وصفها (ابن حوقل) بانها «اكثر نخيلا وثمرا من سائر الحجاز والثالثة بعد مكة ويثرب»(٧٥). وهو كما نرى، يعتبر اليمامة جزءا من الحجاز، خلافا لمعظم الجغرافيين العرب، الذين تمثّل عندهم اقليما له ملامحه الخاصة بين اقاليم شبه الجزيرة(٧٦). وكانت (القريتين) اول محطة بعد مكة، حيث تقع الى الشمال الشرقي، وتتفرع منها طريق الى البصرة او الكوفة في العراق. ثم تنحرف شرقا الى (شريقة) و(صداة) و(السدّ) و(سقيراء) و(الثنية) و(السيح) و(الحديقة) واخيرا (العرض)(٧٧). وتأتي اهمية اليمامة في اتصالها بموانىء البحرين وتجارة الهند، لا سيما (جرها)، التي كان يعاد تصدير البضائع منها عبر الحجاز او العراق الى البحر المتوسط(٧٨). ومنذ القرن السادس الميلادي، كانت مكة همزة الوصل بين (جرها) وبين (دومة الجندل)، احد اهم الاسواق الشامية في ذلك الوقت. على ان هذا الميناء الذي كان من انشط مراكز التجارة البريّة والبحرية في منطقة الخليج، لم يبق من آثاره شيء الى اليوم، ولم يتفق الباحثون وعلماء الآثار على تحديد ثابت لموقعه الجغرافي، سوى ماذكره الكتّاب الاغريق، بانه يقع على الساحل الغربي من الخليج مقابل جزيرة (تيلوس) (Tylos) التي اشتهرت باللؤلؤ(٧٩).

ثمة خطوط رئيسية ثلاثة اذن، تشعبت من مكة نحو مصادر التجارة واسواقها في الخليج واليمن والشام. هذا بالاضافة الى تشعّبات اخرى اقل اهمية تفرعت منها الى نجران في الجنوب الشرقي، التي وصفت بأنها «من المواقع الحساسة في شبكة المواصلات قبل الاسلام»(٨٠)، او الى العراق في الشمال الشرقي، حيث كانت للتجار المكيين علاقات وثيقة مع الحيرة عاصمة المناذرة(٨١). ولقد ظل الخليج المحور الدائم في حركة التجارة العالمية في ذلك الوقت، وكانت السفن ترفأ الى سواحله الغربية ببضائعها الرائجة من اقصى الشرق، لتصب في «قنوات» داخلية تحملها الى مكة، او الى الحيرة اذا كانت طريق الفرات سالكة، أو يتابع بعضها طريقه البحري الى عدن عبر ساحل البخور، مضيفة الى احمالها منتجات هذه المنطقة لا سيما حضر موت(٨٢). وكان الوصل بين هذين المحورين عبر هذه التفرعات البرية، قد شكل مفتاح السيطرة على تجارة الشرق، وهو الدور الذي تنبّه له المكيون واحسنوا استثماره، بعد ان وجدوا لديهم الكفاءة لإتقانه،

انطلاقا من المعطيات الجغرافية والسياسية والاقتصادية. ففي الجنوب، انهارت الدولة الحميرية وتحوّل اليمن الى منطقة ساخنة يتجاذبها الفرس والبيزنطيون والاحباش. كذلك شهدت مواصلات الفرات في وقت سابق ظروفا غير مشجعة لاستمرار حركة التجارة بصورة طبيعية، بدءا بالحرب الساسانية ـ البيزنطية وانتهاء بسقوط الاسرة اللخمية في الحيرة، بعد سلسلة من الازمات التي ادت الى انهيار التحالف التقليدي مع الفرس. وهكذا ينتقل محور التجارة الى الحجاز بعد تدهور المحاور الكبرى في اليمن والعراق، وبعد احباط المحاولات الاقليمية المتصدّية لمكة، التي حسمت زعامتها الحجازية دون منافسة جدّية تذكر.

وبقي ان نتعرف على انواع السلع التي تاجر بها المكيون واهميتها الاقتصادية في ذلك العصر. واذا كان من غير اليسير القيام بعمل احصائي دقيق في هذا المجال، فان الاخبار تركت لنا الكثير من اسماء هذه المواد الرائجة ومصادر انتاجها. ويبدو ان الحرير كان اقل السلع شأنا في تجارة مكة، حيث اقتصر سوقه على القسطنطينية، التي استوردته لمصلحة «الارستقراطية» البيزنطية.

على ان بضائع الصين الاخرى التي ضربت بتجارتها الامثال، كما وصفها (المقدسي)[٨٣]، كان لها شان غير قليل في التجارة المكيّة، لا سيما خشب الصندل، بينما كانت التوابل اهم السلع المستوردة من الهند والمتصدرة لتجارة البحر المتوسط، حيث كانت تكاليفها الباهظة، من نقل ومرور، تؤدي الى ارتفاع اسعارها بصورة دائمة، ولكن دون ان يفقد ذلك اهمية هذه السلعة الاستهلاكية، الاكثر رواجا حتى أوائل القرن السابع الميلادي. وكانت الى جانب الافاوية على اختلافها[٨٤] والذهب والاحجار الكريمة والعاج وغيرها، من السلع الرئيسية التي تفد على موانىء اليمن، قبل ان تحملها القوافل الى مكة، حيث يستوعب سوقها القليل منها، بينما الغالبية تأخذ طريقها الى الشام[٨٥]. اما السلع المحلية، المنتجة في شبه الجزيرة، فتأتي في طليعتها الجلود المذهبة (الأدم)، التي كانت تصنّع في الطائف واليمن[٨٦]، وبعدها العطور التي اشتهرت بها الاخيرة، وكانت تباع لكبار الاغنياء في مكة، ومن ثم تحملها القوافل الى الشام مع السلع المحلية الاخرى كالزبيب (الطائف) والمعادن (الحجاز) واللبان والمرّ واللادن والعقيق (اليمن)[٨٧]. ولا ننسى البضائع المستوردة من افريقية الشرقية، عبر موانىء الحجاز، كالعطور والذهب والعاج وخشب الابنوس والرقيق، فضلا عن القمح (مصر) في بعض الاحيان[٨٨].

وكانت هذه السلع تفد على مكة، سواء من مصادرها المباشرة او عبر موانىء الخليج واليمن والحجاز. اما الطريقة المستخدمة في النقل، فلا ندري اذا كانت قد اقتصرت على التجار المكيين وحدهم، واذا ماكان هؤلاء يملكون جهازا كافيا لتأمين هذه الكميات الضخمة وتخزينها، قبل اعادة تصديرها، او ان قوافل اخرى كانت تسهم في عملية النقل الى جانب القوافل المكية. ومن المرجّح ان مكة التي بدأت محطة للمرور على تقاطع طرق رئيسية، قد تنبهت الى أهمية امتلاك «اسطول برّي» يؤمن هذه الخدمات التجارية الكبيرة، بحيث لم يكد ينتهي القرن السادس، الا وهي تمسك بزمام شركة التجارة، نقلا وتسويقا، الى حد جعلها تأخذ طابع «المؤسسة» الاقتصادية على نحو لم تعرفه المجتمعات الشرقية من قبل.

اما السلع التي كانت تعود بها القوافل المكية من الشام، فكان ابرزها زيت الزيتون (ساحل فلسطين)[٨٩] والقمح (حوران والبلقاء)، فضلا عن الخمر والجواري والمواد المصنّعة في هذه المنطقة كالاسلحة والمنسوجات[٩٠]. وكانت في الشام عدة اسواق او مراكز تبادلية تستقطب تجارة مكة ومصر والحيرة. على ان الاولى كانت القاسم المشترك لهذه الاسواق وصلة الوصل بينها... فكانت (بصرى) مركز التبادل مع الحيرة و(غزة) مع مصر، فضلا عن دومة الجندل «سوق القبائل الكبير»[٩١]. وهناك من ينسب الى الحيرة علاقات تجارية تتعدى اسواق الشام الى مكة نفسها، التي تردد عليها الحيريون او اسهموا بدور الشريك في «المؤسسة» المكية، التي ربما كان لها فروع خارج الحجاز في ذلك الحين[٩٢]. **يتبع**

هـوامش

(١) LAMMENS, La Mécque à la Wille de L'he'gire, p. 103

(٢) نورمان بينز، الامبراطورية البيزنطية ص ٢٧٥ ــ ٢٧٦. الطبعة الثانية. القاهرة ١٩٥٧.

(٣) المكان نفسه.

(٤) نورمان بينز ص ٢٧٦. ارشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ص ١٨ ترجمة احمد محمد عيسى. مكتبة النهضة العربية القاهرة ١٩٦٠.

(٥) أ. لويس ص ١٦.

(٦) ارنولدت ويلسون، الخليج العربي ص ٨٤. ترجمة ــ عبد القادر اليوسف مكتبة الآمال ــ الكويت.

(٧) LAMMENS, La Mécque, p. 109.

(٨) ثمة حادثة عن تاجر يمني (زيد ايل بن زيد) كان قد التحق بخدمة المعابد المصرية... فيستورد المر والقليمة لهذه المعابد لقاء سلع من الاقمشة المصرية الفاخرة المصنوعة من الكتان، ويقوم بهذا النشاط في سفينته الخاصة. راجع هذا النص المفصل للدكتور جواد علي ج ٢ ص ٣٥ ــ ٣٧ والعرب في العصور القديمة للدكتور لطفي عبد الوهاب ص ٢٩٩.

(٩) أ. ويلسون، الخليج العربي ص ٨٤.

(١٠) جورج فضلو الحوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي ص ٨٦ رينية ديسو، العرب في سوريا قبل الاسلام، ص ٩٠٨. ترجمة عبد الحميد الدواخلي. لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٥٩.

(١١) العرب والملاحة في المحيط الهندي ص ٢٥.

(١٢) كتاب البلدان ص ٣٠٩ طبعة ليدن ١٨٩١.

(١٣) ادرك الامبراطور اغسطس بعد استيلائه على مصر اهمية البحر الاحمر في تجارة الرومان الشرقية. فعمد الى تنشيط حركة الملاحة فيه ومن ثم تطلع الى السيطرة على اليمن، للوصول الى «منابع» البخور في حضر موت. نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب ص ٢٠١ ــ ٢٠٣ الاهلية للنشر والتوزيع. بيروت ١٩٨٠.

(١٤) LAMMENS, La Mécque, p. 110.
جواد علي، المفصّل ج ١، ص ١٥٧.

(١٥) ارثر كريستنسن، ايران في عهد الساسانيين ص ٨٢. ترجمة يحي الخشاب القاهرة ١٩٥٧.

(١٦) نفس المصدر.

(١٧) صالح العلي، محاضرات في تاريخ العرب ص ٣٨. بغداد ١٩٦٠.
LAMMENS, La Mécque, p. 110.

(١٨) أ. لويس، القوى البحرية والتجارية ص ١٧.

(١٩) اليعقوبي، تاريخ ج ١، ص ١٩٩. أ. لويس، القوى البحرية ص ١٩.

(٢٠) المغربي، كتاب الجغرافيا ص ١١٧. تحقيق اسماعيل العربي. بيروت ١٩٧٠.

(٢١) كان هذا الخط يمتد عبر الدواسر واليمامة الى ساحل الخليج ومنه الى العراق. جواد علي، المفصّل ج ١، ص ٢٢٠.

(٢٢) اليعقوبي، تاريخ ج ١، ص ١٩٩.

(٢٣) جواد علي، المفصل ج ٧، ص ٢٨٢.

(٢٤) Ch, DIEHL, Byzance, Grandeur et décadence, p 95. Paris 1914
وات، محمد في مكة ص ٣٤.

(٢٥) العلي، محاضرات في تاريخ العرب ص ٩٥ ــ ٩٦. المرجع نفسه.

(٢٦) صالح العلي، محاضرات في تاريخ العرب ص ٩٨.

(٢٧) اليعقوبي، تاريخ ج ٢، ص ١٥٤. الهمذاني، الصفة ص ١٤٧. الاصفهاني، بلاد العرب ص ١٨٤، ٢٠١، ٢٠٩. تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي دار اليمامة ــ الرياض.

(٢٨) F. M. DONNER, Mecca's Food Supplies and Muhammad's Boycott, in Journal of the Economi and Social History of the Orient, vo. XX, part III, p. 251.

(٢٩) الازرقي، اخبار مكة ج ١، ص ٥٤. تحقيق رشدي ملحس، دار الاندلس، بيروت. الكتاني، التراتيب الادارية ج ٢، ص ٤٤، معجم البلدان ج ٥، ص ١٨٨.

(٣٠) الازرقي، اخبار مكة ج ١، ص ٥٧.

(٣١) وات، محمد في مكة ص ١٨.

(٣٢) معجم البلدان ج ٥، ص ٨٣.

(٣٣) المصدر نفسه ج ٤، ص ٩٨.

(٣٤) ابن خرداذبة، المسالك والممالك ص ١٢٨.

(٣٥) LAMMENS, La république Marchande de la Mécque p. 51.

(٣٦) الازرقي، اخبار مكة ج ١، ص ٥٨ ــ ٦٠، ٨٠، ١٠٣. الفاسي، العقد الثمين في تاريخ البلد الامين ج ١، ص ٤٧. مطبعة السنة المحمدية ــ القاهرة.

(٣٧) الازرقي، اخبار مكة، ج ١، ص ٣٢ وما بعدها. جواد علي، المفصل ج ٤، ص ١٦، ١٨.

(٣٨) رواية يونس بن بكير عن ابن اسحاق، كتاب السير والمغازي ص ٥٢ ــ ٥٣. تحقيق سهيل زكار. دار الفكر ١٩٧٨. الازرقي، اخبار مكة ج ١، ص ١٢٢ ــ ١٣٣. السهيلي الروض الانف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ج ١، ص ٤٠ تقديم طه عبد الرؤوف سعد. مكتبة الكليات الازهرية. القاهرة..

(٣٩) السهيلي، الروض الانف ج ١، ص ١٧٢.
(٤٠) المصدر نفسه ج ١، ص ١٧٢ ــ ١٧٤.
(٤١) احسن التقاسيم ص ١٠٣.
(٤٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد ج ٣، ص ٢٣٥. تحقيق محمد سعيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى. ابن ظهيرة القرشي المخزومي، الجامع اللطيف في فضل مكة واهلها وبناء البيت الشريف ص ١١٦، القاهرة ١٩٢١.
(٤٣) جواد علي، المفصل ج ٣، ص ١٤.
(٤٤) المرجع نفسه ج ٣، ص ٢٠.
(٤٥) على مقربة من ينبع. نقولا زيادة. الجغرافية والرحلات ص ٢٠٣ ــ ٢٠٤.
(٤٦) جواد علي، المفصل ج ٢، ص ٢٧، ٣٤، ٤٥، ٤٩. سعد زغلول، تاريخ العرب ص ١٤٣ ــ ١٤٥. نقلا عن سترابون الذي قيل انه شارك في هذه الحملة.
(٤٧) لامنس، النصارى في مكة قبيل الهجرة مجلة المشرق. المجلد ٣٥ ص ٩٢ (١٩٣٧).
(٤٨) جواد علي، المفصل ج ٣، ص ٤٩.
(٤٩) اليعقوبي، تاريخ ج ١، ص ٢٥٤، ٢٥٥.
(٥٠) الكلبي، كتاب الاصنام ص ٨. تحقيق احمد زكي. الدار القومية ــ القاهرة ١٩٦٥.
(٥١) جبرائيل جبور، مواسم الحجاز، مجلة المشرق، المجلد ٣٣، ص ٥٦ (١٩٣٥).
(٥٢) جواد علي، المفصل ج ٧، ص ٣٣١.
(٥٣) ابن حوقل، كتاب صورة الارض ص ٤٣.
(٥٤) ابن المجاور، تاريخ المستبصر ص ٤٠.
(٥٥) ابن خرداذبة، المسالك ص ١٣٤ ــ ١٣٦.
(٥٦) ابن حوقل، صورة الارض ٤٦ ــ ٤٧.
(٥٧) اليعقوبي، بلدان ص ٣١٧. ابن خرداذبة، المسالك ١٣٤ ــ ١٣٦.
(٥٨) تمتد على عشر مراحل «كلها عامرة آهلة». اليعقوبي، بلدان ص ٣١٣.
(٥٩) المكان نفسه.
(٦٠) وردت قبلها الحفيرة، مركز بني فهر من قريش الظواهر. المكان نفسه.
(٦١) المكان نفسه. ابن رسته، الاعلاق النفيسة ص ١٧٨. مطبعة بريل ليدن ١٨٩١.
(٦٢) وردت قبلها (الروحاء) في البلدان التي وصفت بانها من املاك مزينة (ص ٣١٤). الاعلاق النفيسة ص ١٧٨. احسن التقاسيم ص ١٠٦. جواد علي، المفصل ج ٧، ص ٣٥٠ ــ ٣٥١.
(٦٣) وردت قبلها العرج. البلدان ص ٣١٤، وهي مركز كنانة.
(٦٤) وصفت بأنها قرية عظيمة قريبة من البحر وكانت مركز اسلم. البلدان ص ٣١٤، الاعلاق ص ١٧٨.
(٦٥) كانت مركز سليم، وكان بها سوق وماؤها من الابار. البلدان ص ٣١٤. الاعلاق ص ١٧٨.
(٦٦) مركز خزاعة، ووقد وصفت بأنها «كثيرة الاهل خصبة». الاعلاق ص ١٧٨.
(٦٧) البلدان ص ٣١٤. الاعلاق ص ١٧٨.
(٦٨) وردت في البلدان «مرّ الظهران» ص ٣١٤. وهي محطة كثيرة النخل وفيها بركة تنحدر اليها الماء من جبل مجاور. الاعلاق ص ١٧٨. ابن خرداذبة، المسالك ص ١٣٨.
(٦٩) كانت مركز غفار وهي تقع بين يثرب ووادي الصفراء، وقيل ان نهرا جاريا كان يمر فيها. احسن التقاسيم ص ١٠٧. جواد علي، المفصل ج ٧، ص ٣٥٠٧
(٧٠) السويدية في احسن التقاسيم ص ١٠٧.
(٧١) الاعلاق ص ١٨٣.
(٧٢) احسن التقاسيم ص ١٠٧. ابن خرداذبة، المسالك ص ١٣٨.
V. VAGLIERI, Dûmat AL-Djandal, EncyClopédie de L'Islam, tome II, p. 640.
(٧٣) نورمان بينز، الامبراطورية البيزنطية ص ٢٧٧.
(٧٤) LAMMENS, L'Arabie Occidentale p. 1928.
(٧٥) ابن حوقل، صورة الارض ص ٣٨.
(٧٦) الهمداني، صفة جزيرة العرب ص ١٥٣.
(٧٧) ابن خرداذبة، المسالك ص ١٤٧. جواد علي، المفصّل ج ٧، ص ٣٤٤. راجع خارطة «الجزيرة العربية» للادريسي. سعد زغلول تاريخ العرب قبل الاسلام ص ٦٧.
(٧٨) العلي، محاضرات ص ٣٦.
(٧٩) جواد علي، المفصل ج ٢، ص ١٧ ــ ١٨.
(٨٠) جواد علي، المفصل ج ١، ص ٢٢٠.
(٨١) العلي، محاضرات ص ٩٦ ــ ٩٧.
(٨٢) وصفت (ظفار) بانها المكان الذي كانت تتجمع فيه محاصيل البخور وتنقل عبر وادي حضرموت الى اليمن قبل تسويقه. زيادة، الجغرافية والرحلات ص ٢٠١.
(٨٣) احسن التقاسيم ص ٩٧.
(٨٤) المكان نفسه.
(٨٥) المكان نفسه. جواد علي، المفصل ج ٧، ص ٢٩٠. DIEHL, Byzance, p. 89 احسن التقاسيم.
(٨٦) المكان نفسه.
(٨٧) المكان نفسه. جواد علي، المفصل ج ٧، ص ٢٩٢. الشريف. مكة والمدينة ص ٢٠٦.
(٨٨) الشريف، مكة والمدينة ص ٢٠٦.
(٨٩) المقدسي، احسن التقاسيم ص ١٨١. جواد علي، المفصل ج ٧، ص ٢٩٤.
(٩٠) اليعقوبي، تاريخ ج ١، ص ٢٧٠

LAMMENS, la république marchande p. 47.

(٩١) جواد علي، المفصل ج ٧، ص ٢٩٣، ٣٠٨.
(٩٢) المرجع نفسه ج ٧، ص ٢٩٧.

تاريخ زرع الأعضاء في الإنسان

د. إبراهيم فريد الدُّر



لا يولد الانسان وينتهي كفقاعة الهواء، بل يذوي تدرجاً، فلا يتمتع بشيخوخة جميلة. وما بين امراض واحداث يفقد الشاب عضوا لابد من تبديله انقاذا لحياته. وسعيد من يجتاز هذه الاشواك سليما. تركيب الاعضاء حلم داعب مخيلة الانسان من فجر التاريخ. تروي الاساطير اليونانية قصة ديداليوس وابنه ايكاروس اللذين صنعا اجنحة ليطيرا فرارا من سجن. فذاب شمع النحل المستعمل للصق الاجنحة... لكن اليوم تقدمت التقنية، وما زال الطرف المصنوع افضل من المزروع، لضعف تكوين الاعصاب في رجل مزروعة مثلاً.

ثم حلم الانسان بزرع الاعضاء فنجد الاساطير تنتج حيوانا ينفث النار لهبا من جسم ماعزة تحصنت بالاسد رأسا، وبالثعبان ذنبا. الخُمَيرْ خرافة، لكن الانسان انتصر، فزرع اول كلية ناجحة خلال منتصف القرن العشرين.

هذه قصة صراع الانسان مع جسمه الرافض للتبديل قديما والقابل به جديدا، فمن وجهٍ يُحَسَّن ومن عضو يُبدَّل... اما الشباب فغير مسترجع!

علم الأقدمين

لا تدل المخطوطات الهيروغليفية على قيام علماء الفراعنة بزرع الجلد أو الأعضاء؛ وما تزال هذه الأمور مدار بحث وجدل بين الخبراء. يبدو أن الهنود اهتموا بزراعة الجلد أو نقل قطع منه من مكان إلى آخر في الجسم نفسه، نتيجة عاداتهم القاضية بتشويه وجه السارق والزاني والمغضوب عليهم من أهل الرياسة والسياسة، فكان الجاني يسعى بعدئذ إلى التخلص من الوصمة بعمليات من التجميل الجراحي.

■ د. ابراهيم فريد الدر: ولد في فلسطين ودرس في الجامعة الاميركية في بيروت. حاز على شهادة الدكتوراه بالكيمياء الحياتية والعضوية من W.R.V. ـ أوهايو ـ الولايات المتحدة الاميركية. حالياً أستاذ في كلية الطب ـ الجامعة الاميركية في بيروت.

سوشّروتا سامهيتا مخطوطة طبية هندية ــ سنسكريتية ترجع إلى عصور ما قبل الميلاد، لكن أقدم نسخة مؤرخة تحمل تاريخ القرن الخامس للميلاد. المرجح أن جراحاً قديراً اسمه سوشروتا قام بعمليات التجميل في القرن الثاني أو الثالث قبل الميلاد، ولقد أسهب في مصنفاته في وصف عمليات لنقل قطع الجلد من الجبين والرقبة والوجنات، لتصليح الأنف والأذن والشفة. يقول سوشروتا (... على المرء أن يكون خبيرا في تقنية الجراحة...). من الطريف أن أكثر الذين مارسوا هذه الجراحة كانوا من صناع البلاط والفخار المنتمين إلى طبقة كوماس.

لم يكن لأطباء اليونان شأن يذكر في هذا الحقل، أما جراحو مدرسة الاسكندرية (القرن الثالث قبل الميلاد) فقد صححوا نقصاً أو تلفاً في الأنف والأذن والشفة، واستعملوا شرحات معزولة من الجلد. نستدل على هذه المآثر من مصنفات المؤرخ الموسوعي (سلْسُس) الذي عاش خلال القرن الأول للميلاد، وجمع تقنيات مدرسة الاسكندرية. بالرغم من قلة إلمامه بالشؤون الطبية، الا انه ذكر عمليات التجميل لإزالة الندب المشوهة للجلد، واصلاح اعضاء كالقضيب وغيره. ولقد أحيا جراحو القسطنطينية عمليات التجميل حتى للجفون كما تدل على ذلك موسوعة اوريباسيوس (القرن الثالث للميلاد) الطبيب الذي كان مشهودا له بصحة السند وثقة التأريخ.

اما جالن (القرن الثاني للميلاد) المشهور فقد ازدرى هذه العمليات، مما اعاق تقدم الجراحة لما كان له من مكانة رفيعة آنذاك. ثم جاء الجراح المشهور بولس الايجي في القرن السابع للميلاد، فقام بعمليات تزيل التشوه من أجساد منكل بها، وكانت اقامته في جزيرة ايجينا اليونانية. ولقد ترجم له حنين بن اسحق (المتوفى ٨٧٧م).

الجراح أبو القاسم:

سجل الرازي (المتوفى ٩٢٤م) في كتابه الحاوي تفاصيل عمليات التجميل ذكراً للهندي سوشروتا. لكن الغرب لم يستغل هذه المعلومات، إما لأنه فاته الاطلاع على أجزاء مفقودة من كتاب الحاوي، وإمّا لجهل غمر اوروبا طويلاً. أما في الأندلس فقد قام اعظم جراح عربي، أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي (٩٣٦ــ١٠١٣) بمآثر كثيرة في جراحات دقيقة منعا للتشويه، وكان أول من استعمل ربط الشرايين الدقيقة، ثم أسهب في شرح هذه الأمور في موسوعته (التصريف لمن عجز عن التأليف). ترجمت الموسوعة الى اللاتيينية لكن اوروبا تجنبتها في عصور تحريم التشريح فقطع على الجراحة تقدمها، فلم تبعث الجراحة العامة إلا في القرن الرابع عشر في مدينتي سالرنو وبولونيا في ايطاليا، ثم لحقت بالجراحة العامة عمليات التجميل في عصر النهضة (القرن ١٥ و١٦).

مدرسة سالرنو:

تألقت مدرسة سالرنو في القرنين الحادي والثالث عشر، وبقيت ذات شأن حتى ١٨١٢ فانتهت بحروب نابليون. لم تكن المدرسة ركنا للخلق، بقدر ما كانت مركزا لاحياء التراث وتوزيع الآراء بين الجراحين. وإليها يدين أكثر الجراحين، آنذاك، بما مهدت له من جو ملائم مشجع لممارسة التشريح والجراحة. وكانت سالرنو ممرا مزدهرا بالقادمين من الحجاج والتجار.

من سالرنو الى مدينة بوبونيا (ايطاليا) اشتد الاقبال على جراحات التجميل، فقام جراحون من بولونيا بمرافقة الحملات الصليبية، وأجروا عمليات كثيرة على الجنود. وفي بولونيا المدينة كانت اول عملية لاعادة أنف انفصم من محله. من هاتين المدينتين انتقلت الجراحة جنوبا الى صقلية في بلدة كاتانيا مقابل كالابريا عند مضيق مسينا. هنا اشتهر جراح القرن الخامس عشر برانكا الذي تفنن في تجميل الوجوه المشوهة، واقتفى أثره ابنه انطونيو. ولقد اعتنق الجراحون تقنيات الوالد وابنه، فانتشرت، ونستدل من الوثائق ان الحماس كان عظيما بقدر ما كان الجدل ساخنا حول جراحات نقل الجلد وزرعه، وتصحيح الآذان والأنوف وإعادتها الى مكانها.

الجراح تاجلياكوزي:

لا ندري مدى نجاح الجراحات المذكورة في عصور خلت من المفاهيم العلمية ومبادىء التعقيم والعلوم الأساسية. لا ريب في أن أكثرها انتهى إلى الفشل. ولربما كان انتشار العمليات مقدمة لاندثارها، بما جلبت الشهرة من شهود الفضائح!

حاول جراح عظيم في مدينة بولونيا، جاسبارو تاجلياكوزي (١٥٤٧ ـ ١٥٩٩) ان يعالج امور الزرع بطرق عقلانية، فقدم وسائل جديدة وحسّن النهج والأدوات الجراحية، وشرح بدقة تفاصيل العملية منعا للبس، وأرفق الشروح برسوم، وهو الذي قابل بين عملية زرع الأعضاء في الانسان وزرع نبات على نبات (التطعيم) وهو الذي لخص المصادر القديمة، ونادى بأن لا نجاح لزرع جلد منقول من حيوان الى آخر مختلفين نوعا. ثم شدد على وجوب الالتزام بعوامل كثيرة لنجاح الزرع، أهمها أن يكفل الجراح دورية دموية غزيرة في مكان الزرع لتتغذى النسج الملصقة بعضها ببعض. وهكذا جاء كتابه (المعالجة بالزرع في جراحة المشوهين) علما من اعلام التاريخ الطبي. بالرغم من جهد جاسبارو صارت الجراحة الى النسيان، ودخلت سباتا دام قرنين.

اندثار ثان للجراحة:

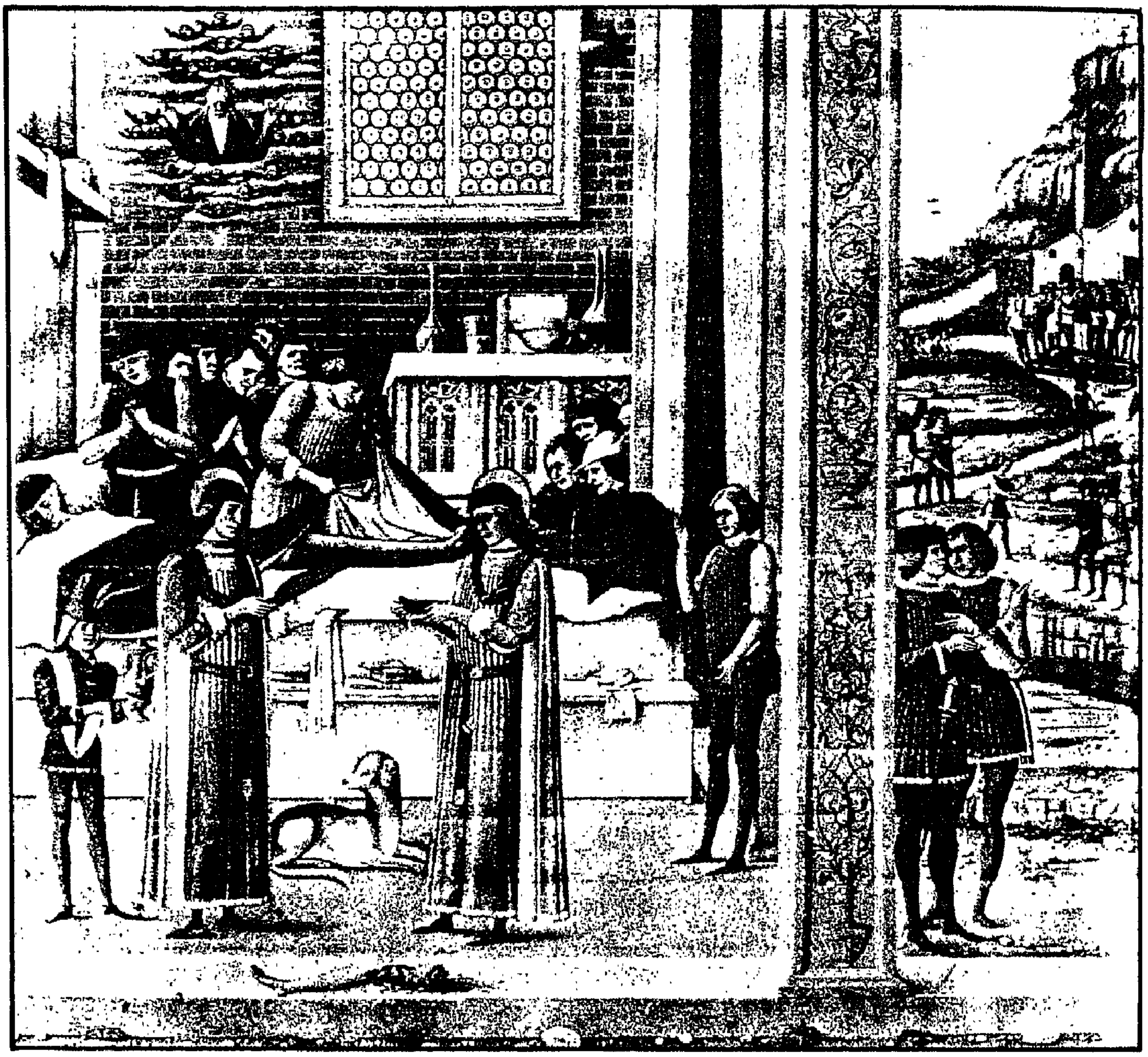
من الأسباب التي قادت الى انتكاس عمليات الزرع كثرة الأخطاء ونقص في الكتب الموثوق بها، فكان مصنف جلياكوزي نادرا جدا. خاف الناس هذه العمليات وخيبت امالهم فابتعدوا عنها. مما زاد في النفور ازدياد السخرية والساخرين امثال موليير (١٦٢٢ ـ ١٦٧٣) الذي صب سخريته اللاذعة على الأطباء، وأمسى الجراح مدار الهزل والاثارة في عالم الكتابة والمسارح.. ثم جاءت حروب القرن السابع عشر بأسلحة جديدة وفتاكة غيرت نوع الاصابات، وأمسى الجراح يواجه اطرافا مقطعة، بدلا من أجزاء مشوهة، مما فرض عليه تبديل تقنياته وأساليبه. بعد ذلك لحق الناس بعلاجات جديدة اقنعهم بها دجالون، لجأوا الى خرافات المغنطيس والأرواح، كوسائل لاستعادة الأطراف وتصحيح الأخطاء. أما الضربة القاضية فجاءت من منافسة الأطباء للجراحين. كان الجراح هو الطبيب والخبير، ولم يكن لما يسمى اليوم (الطب الداخلي) شأن يذكر، حتى جاء عمالقة أطباء فلاسفة مثل جون لوك (١٦٢٤ ـ ١٦٨٩) الذي هاجم التشريح بشدة، ودعمه في الهجوم عميد كلية الطب في باريس الذي اتهم الجراحين بأنهم (... جنس الشر والحمق والغرور، يطلقون شواربهم ويشهرون الموسى). إلى كل هؤلاء انضمت جماعة ثارت على الجراحين الذين يتدخلون في اعمال الخالق الباري.

الجراحة تبعث:

في تشرين الأول ١٧٩٤ نشرت (مجلة الجنتلمن) البريطانية رسالة بلا توقيع، تذكر ان جراحة تجميل الأنف ما زالت شائعة في الهند، نتيجة التقاليد الاجتماعية.. اثارت هذه الرسالة اهتمام الخبراء والناس، وكان كل شيء عن الهند يثير اهتمام الانجليز الذي استعمروا الهند آنذاك، فسيطرت شؤون الهند السياسية والاجتاعية على تفكير المستعمر. ومما زاد من اهتمام الناس بالهند حادثة ما يسمى (حجر كلكتا الأسود). ففي حزيران ١٧٥٦ هجم نائب البنغال سراج الدولة على كلكتا، عاصمة الهند آنذاك، فهرب الانجليز تاركين الجالية الاجنبية وراءهم، فأسر سراج الدولة ١٤٦ من افرادها، وحشروا ليلة العشرين من حزيران في غرفة صغيرة فاختنقوا جميعا الا ٢٣ نفرا، انقذوا بعد ليلة واحدة من السجن. ولقد كتب واحد منهم أحداث تلك الليلة المرعبة في قصة (الحجر الأسود).

جون هنتر:

سميت عملية نقل الجلد من الجبين الى المكان المشوه (النهج الهندي). ثم رافق الحماس الشعبي لعمليات التجميل، تجارب مخبرية قام بها لأول مرة الجراح العالم جون هنتر (١٧٢٨ ـ ١٧٩٣). اتبع هذا العالم النهج التجريبي العلمي في جراحة الحيوانات، ومراقبة احوال الحيوان بعد العملية، وتحسين الزرع



كوزماس ودامیان (القرن الثالث للميلاد) ينقلان ساقاً من رجل ميت إلى آخر فقد رجله، ولقد أعدمهما الفرس حين غزوا سوريا. لاحظ الساق المطروحة أرضاً

حتى أتقن أحكامه، ثم طبق ما تعلمه على البشر. بذلك رفع هنتر الجراحة الى مقام العلم، كما ارتقى الجراح ثانية في سلم المجتمع. ثم جاء جراح في الجيش البريطاني، جوزيف كاريبيو (١٧٦٤ ــ ١٨٤٦)، اكتسب صداقة الملك جورج الرابع، وأجرى عمليات على ضباط الجيش، وأظهر أهمية العمليات بما فيها المسماة بالنهج الهندي، وصنف كتابا (١٨١٦) سماه (قصة عمليتين ناجحتين لاعادة انف مفقود!)، لاقى الكتاب رواجاً ساعد في الاقبال على هذه العمليات ثانية.

حين أرسى هنتر أركان النهج التجريبي شاعت تقنيته وظهرت اطروحات جامعية مثل (الزرع التجريبي وتوالد النسج)، ثم كثرت في القرن ١٩ محاولات استعمال قطع من الجلد المعزول بدلا من لصق عضو بعضو لينمو الجلد بينهما، ثم يقطع بعد اكتمال الزرع، لكن نسبة النجاح كانت ضئيلة. وفي اواخر القرن التاسع عشر حاول الفرنسيون تجارب في زرع العظم!

جون ولف:

تم النصر النهائي على يد جون ولف (١٨٢٤ ــ ١٩٠٤) حين زرع قطعة معزولة من الجلد ونجح، ذلك أنه أزال من الجلد كل النسج

اللاصقة به من دونه، ولقد أصاب حين نادى ان هـذه النسـج تسبب رفض الجسم للجلد المزروع. بعد هذا الانتصار كتب ولف (... نحن الآن أحرار في انتقاء قطعة جلدية من أي مكان في الجسم نجده ملائما للعملية...).

نقل الجلد من مكان لزرعه في مكان آخر مهد لدراسات اساسية بيولوجية، ولا سيما بعد ان ثبت فشل نقل النسج بين مخلوقات تختلف نوعا، وما ادعاه بعض العلمـاء من نجاح في تبديـل جلد الانسـان بجلد من القط والكلب والحردون. بديهي أن يبحث الخبير في اسباب الاختلاف بين جلد مأخوذ من ابن النوع الواحد وجلد مـأخوذ من غـريب. وفي اوائـل القـرن العشرين هيمن علماء مثل اوليير وثيرش اللذين أرسيا المبدأ القائل (...الفروق بين شخص آخر، أو نوع وآخر تفسر رفض جسم الموهوب لزريعة منقولة من واهب غير قريب...).

القرن العشرين:

شهد مطلع القرن العشرين فتوحات كثيرة افادت العلوم كلها. في ١٩٠٠ اكتشف العلماء قوانين مندل في الوراثة التي كان قد نبه اليها هـذا الراهب من عـام ١٨٦٥ لكن احـدا لم يفهمها. اعادة الاكتشاف لقوانين الوراثة جاءت سندا قويا لنظرية داروين الذي اثـاره العالم حوله. المهم أن هذه الفتوحات قدمت تفسيرا معقولا للفروق والشبه إما بين انواع الكائنات، وإمـا بين افـراد النوع الواحـد. وفي ١٩٠٠ اكتشف النمساوي لاندستاينر فئات الدم المعروفة اليوم بين البشر، ونال جائزة نوبـل (١٩٣٠)! هذه التطورات افادت تقنيات نقل الدم وغرس الجلد والأعضاء أو زرعها، لا بل ان معالجة الانســان للدم رافقت معـالجتـه لزرع الجلد والأعضاء، فلا عجب اذا تم اقترانهما خـلال العصور الطويلة.

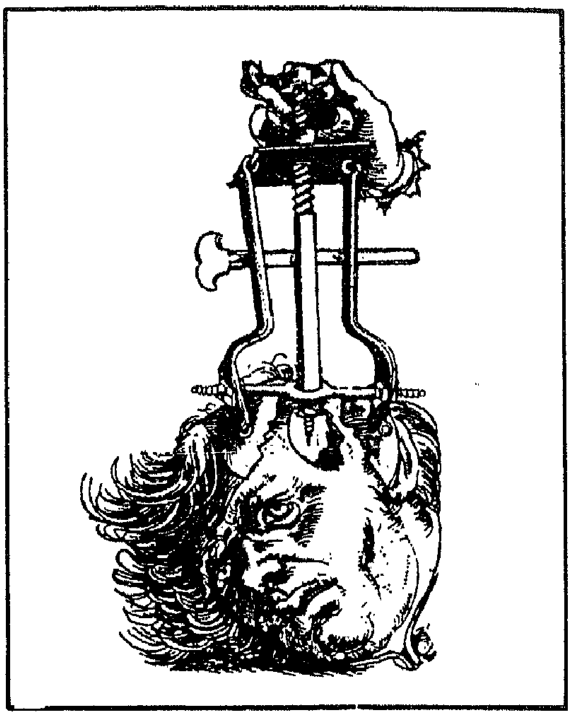
نقل الدم (الاصفاق):

اكتسب الدم من بـين كل أجـزاء الجسم صفات غامضة وسحرية من فجر التاريخ. حين ظن الانسان ان قلبه مقر الوعي والعاطفة، عزا الى الدم نقل الصفات العقلية والبدنية المعروفة في أجناس البشر وقبائلهم وعائلاتهم. من أجل ذلك اكتسب الدم حرمة هابها العلماء الأقدمون، وكان الاعدام نصيب من حاول البحث في هذا السائل المقدس.

لا توجد أدلة على محاولة الانســان القديم نقل الدم بين المخلوقات، وإن كثرت الظنـون. المخطوطة الهيروغليفية الطبية المعروفة بـاسـم (بـردي سميث) تذكـر انحـلال الدم وتخثـره كأسباب وراء علل كثيرة منها الخرف. وزعمت المخطوطة ان تبديل الدم يبعث الشباب، ولقد خلد الكاتب اوفيد هذا الزعم في قصته المشهورة (التحول) عن الشيخ الذي استعاد شبابه بعد تبديل دمه الضعيف بسائل سحري جديد.

ليس من الغـريب اذن ان لا نجـد ذكـرا لمعالجة الدم خلال العصور، ولا نسمع الا زعما اخـر حول اعـطاء البـابـا اينـوسنت الثـامن (١٤٩٢) دما من ثلاثة شبان، لكن سعيه وراء الشباب قد أخفق! استمرت حرمة الدم حتى القرن السادس أو السـابع عشر حـين نادى بعض الخبراء بتبديل دم المجرمين بدم صالح علهم يهتدون! ويقال ان اول محاولة لنقل الدم لأسباب صحية جرت في جامعة بادوا الجليلة. هذا الخوف من الدم يفسر جـزئياً انصـراف الغرب عن دراسات العرب حول هذا السائل وما قدموه من فتوحات في تحديد دورانه. لكن بعـد أبحاث هـارفي تجرأ طبيب من فلورنس، فرنسيسكو فولي، فنشر كتابا (١٦٨٠) قال فيه (... أنا اول من ابتدع فكرة نقل الدم بعد ان تذكرت توءمين متصلين، كان احدهما قادرا على الأكل، اما الثاني فكان يصله الغذاء من دم شقه(*)) ثم وصف هذا الطبيب الجهـاز الذي اخترعه لنقل الدم، لكنه لم ينفذ فكرته! لا ندري صحة اقوال هذا الطبيب، لكن من الثابت أن مراكز كثيرة حاولت نقل الدم خفية بين مخلوق وآخر، ونعرف أن كلية جريشام البريطانية قامت بهذه العمليات في اواسط القرن السابع عشر. وفي (١٦٦٦) حاولت الجمعية الملكية البريطانية

(*) توءمان شقان، أي كلاهما من بيضة واحدة



تمثال خشبي في القرن السادس عشر للميلاد يبين عملية قدح الجمجمة لتفلت منها الأرواح الشريرة

نقل دم بين كلب وانسان. بالرغم من العقوبات الصارمة التي كان يفرضها القانون البريطاني على من يحاول العبث بالدم!

الدم يفقد حرمته:

في ١٥ حزيران ١٦٦٧ قام أستاذ الفلسفة في جامعة مونبيلييه، الدكتور جين دنيس، طبيب لويس الرابع عشر، بأول تجربة رسمية لنقل الدم الى انسان. سنحت له الفرصة ذلك النهار حين جاءه شاب ابن ١٥ سنة يشكو من حرارة عنيدة وقوية ولم يسعفه الفصد من قبل. عندئذ سحب دنيس من الشاب نصف كوب من الدم المفصود من الأكحل (عرق كبير في الذراع)، وأعطاه كوبا من دم نقي مسحوب من شريان في عنق الحمل (الوريد أو الودج). لا ريب في أن المريض لم يوافقه دم الحمل بحجة تذمر الشاب (... اشعر بحرارة عظيمة تسري في ذراعي..). لكن مصادر العصر تزعم أن الشاب تحسن وأن الطبيب ابتهج (ولا ندري ما حل بالشاب بعد ذلك!). ثم أعاد الطبيب التجربة على رجل ابن ٤٥ سنة فأعطاه بنجاح نصف لتر من دم الحمل! استعمل الطبيب رجلا سليما ليدل على سلامة العملية!

اما عملية دنيس الثالثة فكانت لشفاء رجل من جنونه، فغير دمه، لكن المجنون بقي على جنونه بعد نجاته بأعجوبة من أعراض التنافر بين دمه ودم الحمل، اذ أصيب بغثيان، وتخثر الدم، وسرعة النبض للقلب وأوجاع شديدة!

وفي ٢٣ ت٢ ١٦٦٧ قام أحد رواد نقل الدم وهو الدكتور ريشترد لوار بنقل مباشر للدم من عنق الحمل الى ذراع شاب عمره ٣٢ سنة. يبدو أن الشاب كان مختل العقل، ولما سئل (لماذا اعطيت دم حمل..) أجاب (... الحمل رمز التضحية) وفي جوابه بيان للصبغة الدينية حول موضوع الدم.

ثم عاد دنيس الى محاولة رابعة على ابن وزير الدولة السويدي، البارون بوند، فمات. لكن ثبت ان وفاته كانت من التهاب (غنغرينة) في امعائه، الا ان ردة الفعل العنيفة مع وجود معارضة خلقية ودينية لهذه العمليات جعلت رجال القانون في العالم كله يتفقون على معاقبة من يقوم بهذه العمليات.

نقل الدم ممنوع:

يبدو أن الدكتور دنيس شاء امتحان القانون فنقل دم عجل الى مريض بحضور ممثل لحاكم كندا الذي اهتم بالعملية. لكن المريض مات، فسيق الطبيب الى المحكمة، وبرىء بعد جهد. لكن هذا الحدث قاد الى منع قاطع جازم لكل هذه العمليات، ولم يعرف العلم محاولة لمدة مئة وخمسين سنة.

لا بد من تنبيه القارىء إلى ان ما قيل عن نجاح الخلط بين دم انسان وحيوان في العمليات المذكورة هو زعم ثابت بطلانه. أوهام الابتهاج وقلة متابعة ما حدث للمريض بعد العملية يقللان من صحة التأريخ. ثم ان تجلط الدم معروف، لا يقبل الجدل، ولا سيما بين افراد من البشر فكيف بالحيوان. استعمل القدماء قصبة جوفاء لنقل الدم بين المريض والحيوان. القصبة وحدها تفسر نجاة بعض المرضى، ذلك لن الدم تخثر داخلها، فمنعت الجلطة انتقال مزيد من الدم، بينما ظن الطبيب ان الدم يسيل



نقل الدم من عنق الحمل إلى ذراع المريض الأيسر بينما يقوم جرّاح آخر بفصد المريض من ذراعه الأيمن

بلا انقطاع. ولربما ما شعر به المريض من ضيق هو نتيجة دخول كمية قليلة، ثم نجا بعد انسداد القصبة! منع الدم من التلجط هو اكبر معضلة واجهت علماء العصور الحديثة، لذلك انصرف العلماء الى معالجة هذه المشكلة اولاً.

لم تظهر كتابات ولا اختبارات حول الدم حتى مطلع القرن التاسع عشر حين نشر بول شيل (١٧٣٣ ـ ١٨١١) اول مراجعة جديدة عام ١٨٠٢ حث فيها العلماء على فتح موضوع الدم!

انقاذ الحوامل بنقل الدم:

استجاب للنداء الطبيب النسائي جيمس بلندل (١٧٩٠ ـ ١٨٧٧) بعد ان ازعجته كثرة الوفيات الناشئة من نزف الولادة. يبدو انه كان حريصاً ودقيقاً، فأجرى التجارب على الحيوان، وأثبت مبدأ (عدم التوافق بين دماء أنواع مختلفة من الكائنات) بعد ان شاهد كلاباً تموت اذا اعطيت دم خروف.

ثم قام بلندل بفتح مذهل حين اعطى مريضا متعبا دم انسان عام ١٨١٨، وكان الطبيب حريصا اكثر مما تستدعي ظروف العملية من حرص. كرر عملياته الناجحة ست مرات على اشخاص مشرفين على الهلاك فأنقذهم. كتابه في (علم التوليد) حدث تاريخي عظيم. هو الذي شدد على اهمية استعمال الابرة (او الحقنة)، وأهمية اعطاء الدم تدرجا وبكميات قليلة. هيمنت اساليبه ومعداته خمسين سنة وأكثر. لكن المعضلة الأساسية، تخثر الدم، بقيت عقدة اعيا على لخبراء حلها.

اقترح الخبراء ازالة المواد المسببة لتخثر الدم، وظن الخبير سكوارد ان غاز ثاني اوكسيد الكربون هو السبب، ونادى (١٨٥٧) بازالة اكثره من الدم، وادعى ألّا خوف من خلط دم حيوان وانسان بعد ازالة الغاز من دم الحيوان. صدقه طبيب اميركي فأعطى دم حمل الى مريض بالسل فقضى عليه، وقضي على محاولة نقل الدم ثانية، الا بين النساء في حال الولادة!

فتح جليل:

عقبة التجلط التي دوخت العلماء زادت من احباطهم حين هبت رياح الحرب العالمية الأولى، واشتد الطلب على الدم! بعد محاولات يائسة

جـرب العلماء كل الأمـلاح، فـأفلح العـالم الارجنتيني، لويـزون، حـين اثبت في تشـرين الثاني ١٩١٤ ان اضافة ملح حامض الليمون يمنع تخثر الدم، وتم نقل دم مزود بهذا الملح عام ١٩١٥، وانتشر الخبر كالنار في الهشيم. بعد الانتهاء من معضلة التخثر جرب العلماء خلط الدم بين افراد من البشر او بـين انواع من الكائنات، فثبت أن هناك معضلة مختلفة، وهي (التوافق او عدمه) بين أنواع من الدم، وكان لا بد من مواجهة هذ الأمر.

ولادة علم الحصانة:

بعد ان اكتشف لاندستاينر (١٩٠٠) فئات الدم اخـذ العلماء يبحثـون في الأسباب التي تجعـل دم شخص يـرسب اذا خلط مـع دم شخص اخـر، ولماذا لا يـرسب اذا خلط مـع شخص ثالث. ادرك العلماء عندئذ وجود مواد بروتينية في الدم والخلايا تسبب التـوافق او عـدمه بـين فئات الدم والنسـج. لكن توسـع مبادىء علم الحصانة لم تشجع العلمـاء على الاكثار من عمليات نقل الدم فبقيت محصورة في حالات طارئة حتى ١٩٣٠. بعد ذلك نشأت بنوك الدم التي أخذت تصنّف الدماء وتبوبها بحسب توافقها حتي أصبحت اليوم جزءاً حيـوياً من المراكز الطبية المدنية والعسكرية.

اما التطور الثـاني فكان ظن العلمـاء ان التوافق في الدم بين شخصين يعني التوافق في النسيج، لكن قلة من العلماء (١٩٢٤) حاربت هذه الفكرة قائلة أن توافق النسج هو غير توافق الدم، وإن كان لا بد من دم متـوافق لنجاح عمليات الزرع. فكرة الأقلية لم تهيمن مما يفسر فشـل عمليـات الزرع حتى منتصف القـرن العشرين.

في النصف الثاني من هذا القرن ثبت ان للنسج بروتينات لاصقة بسطح خلاياها، وهي التي تميز الأفراد والأنواع من بعضها بعضاً. ثم ثبت ان هذه البروتينـات موروثـة. يرجـع الفضل الى بيتر جورر الذي اكتشف (١٩٣٠) اول (بروتين التوافق) واثباته انه موروث، وبهذا تعززت مبادىء الحصانة بما لها من شأن في زرع الأعضاء وغيره من امور.

ثم جاء بيتر مدور اللبناني الأصل (مولود ١٩١٥) فاكتشف التفاعل الأساسي المسؤول عن الرفض والقبول للنسج المزروعة، ولفت الأنظار إلى قدرة جهاز الحصانة على التمييز بين ما هو منـه (الذات) ومـا هـو ليس منـه (الدخيـل، الغريب)، والجسم يقبل ويرفض بحسب التوافق بين نسج ذاته ونسج الشخص الذي ستنقل منه الأعضاء... اعترف العالم بفضل الدكتور مدور فنال هذا الانسان جائزة نوبل وغيرها من جوائز التقدير.

ولادة الهرمون:

لا ريب في ان هنتر المذكور سابقا هو والد الجراحة التجـريبية بمـا أرساه من مبـادىء استنتجها من دراسته على الحيوان، وله مآثر جليلة كزرع الأسنان وغيرها. وهو اول من نجح في زراعـة الناب البشـري على عـرف الديك. فتوحات هنتر قادت ايضا الى علم جديد نعرفه اليوم بالهرمونات. بينما نجح هنتر في زرع عرف ديك على ديك آخر، فشل في زرع العرف على دجاجة، فأثار هنتر فكرة وجود فروق كيماوية بـين الذكور والانـاث تفسر نجاحـه وفشله في العملية المذكورة. السعي وراء هذه المواد قاد الى اكتشاف الهرمونات، فصدقت كلمات هنتر (... الغدد تصنع من السوائل ما سيكون له شأن عظيم قريباً...).

زرع خصية:

خلف هنتر الطبيب شارلز سكوارد الفرنسي (١٨١٧ ــ ١٨٩٤) الذي نال أرفع الجوائز من الأكاديمية الفرنسية لأعماله في الجهاز العصبي ولنجاحه في إحياء النسج بعد تزويدها بشبكات دموية غزيرة. ثم قام بتجربة طريفة حين أخذ رأس شخص من عـلى المقصلة، ورواه بالدم واستطاع ان يثبت بأن عضلات الـرأس بقيت ١٣ ساعة بعد الاعدام قادرة على الاستجابة من تقلص وارتخاء.. وحين نجح سكوارد في زرع خصية، ولو مؤقتا، اشتعلت الدنيـا وأضاءت بحلم الشباب المستعاد! لا يخفى على القارىء مـا جلبته هـذه التجربـة من امـال مُحطّمةً شعوذات سيطرت على الناس جميعـا. وبقي

سكوارد حتى اخر ايامه يحقن نفسه بخلاصة الخصية، ويقيس قوة نبضه ليقرر مدى نجاح الحقنة! مات سعيا وراء شباب ما زال (اكسيره) يدغدغ الانسان!

أهمية الشبكة الدموية:

في اواسط القرن التاسع عشر ظهر جراح عظيم، بول بيروت (١٨٣٠ـ١٨٨٦) نجح في زرع ذيل لفأر من آخر. لكن من اهم اكتشافاته اثباته ان نجاح الزرع بين أفراد النوع الواحد من المخلوقات يتطلب اولا نمو شبكة شعرية دموية تكفل الغذاء للقطعة المزروعة، وأثبت عيانا نمو هذه الشبكة في منطقة الزرع. وهو ايضا الذي ادخل عملية الوصل بين اثنين بواسطة الوصل بين جلديهما او عضلتيهما. لكن هذه الفتوحات السابقة لعصره اهملت، ولا سيما حين اشتد النزاع بين مؤيدي داروين ومعارضيه، فتلهى العملاقان سيكوارد المؤيد وبيرت المعارض بجدل عقيم دام طويلا.. من امور الجدل أثير ما اذا كانت صفات الانسان مكتسبة ام وراثية، وعما اذا كان الزرع وسيلة الى تغيير صفات في الانسان!

جراحة الأوعية الدموية:

ذكرنا سابقا ان عام ١٩١٥ شهد اكتشاف املاح الليمون لمنع تخثر الدم، تلاه بعد ذلك اكتشاف الهيبارين (١٩١٦) لمنع الجلطة. ومن قبل كان الجراح ليستر قد أدرك اهمية ابحاث باستير في الجراثيم وأمراضها، فقدم محلوله المطهر والمعقم للجروح. هذه الأمور مهدت لأبحاث في تطوير وصل الأوعية الدموية بين العضو المزروع والجسم لتقوم شبكة غزيرة من الغذاء، كما أثبت بيرت من قبل. اذن خلق الشبكة الدموية ارتبط بعملية الزرع.

إلى الجراح الفرنسي الِكْسس كاريل (١٨٧٣ـ١٩٤٤) وشارلز جوثري (١٨٨٠ـ١٩٦٣) في شيكاغو يعود الفضل في تطوير تقنية الشبكة الدموية، اذ اخترعا الإبر الدقيقة والخيوط الملائمة وما تتطلبه عمليات دقيقة تكفل الوصل بين الأوردة والشرايين لتتم الدورة الدموية بلا انقطاع. بعد ذلك قاما معا ومنفصلين بعمليات زرع مذهلة، فنقلا القلب، والكلية، والغدة النخامية، والمبيض من حيوان الى آخر. ثم زرع جوثري رأس كلب كامل على عنق كلب آخر فأنتج نوعا من الخمير الذي تحدثت عن الأساطير، وارتفعت هذه التقنية الى قمتها بمآثر الجراح الروسي دوميكوف (١٩٥٤).

أتقن الجراحون عملية انشاء الشبكة الدموية في الأطراف المصابة مماجعلهم ينقذون المصابين من تقطيع اوصالهم. وتدل احصائيات حرب كوريا (١٩٥٧) ان بتر الأطراف هبط من ٦٢٪ الى ٧٪ من الضحايا. ولا يخفى على القارىء ما يقوم بها الأطباء من الاف العمليات التي لا تنجح الا بعد تصليح ممرات الدورة الدموية.

زرع اول كلية:

في منتصف القرن العشرين استطاع الدكتور جوزيف موري في بوسطن ان يزرع بنجاح ولأول مرة كلية بشرية، لتوأم يشرف على الموت، لعطب في كليتيه أخذها من شقه. بما ان الفردين متطابقين كان النجاح مضمونا، على الأقل لأجل معلوم! لكن حتى ١٩٦٥ بقيت نسبة النجاح في زرع الكلى ضئيلة جداً وان كانت (أعلى بكثير مما كان يحلم به العلماء) كما قال الدكتور مدور، الذي أضاف (سيحتل علم الحصانة المكانة الأولى بين العلوم..) وصدقت نبوءته اليوم، وبعد ان شاهد العالم عمليات زرع القلب.

زرع القلب:

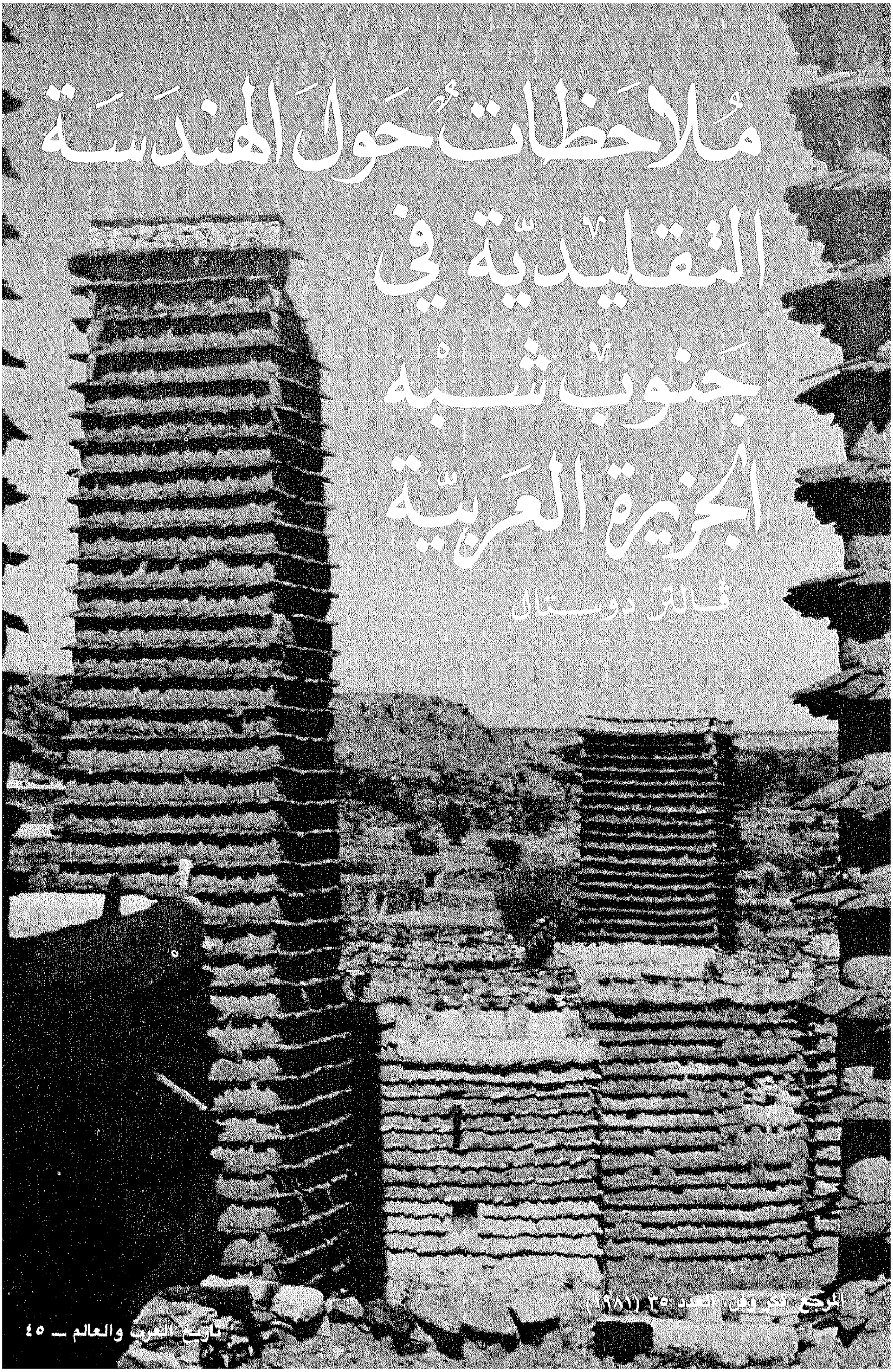
في ٣ كانون الأول ١٩٦٧ قاد الدكتور كريستيان برنارد (مولود ١٩٢٢) فريقا من ٣٠ طبيبا، فنقل قلب فتاة (دنيز دارفال، عمرها ٢٥ سنة) الى لويس واشكانسكي (عمره ٥٥ سنة)، بعد عملية دامت خمس ساعات. عاش المريض ١٨ يوما! وفي ١٩٧٢ جرت عملية ابقت المريض حيا خمس سنوات.

بعد نجاح هذه العمليات اهتز العالم الذي ما زال مغروما بالقلب، فأصبح موضوع زرع الأعضاء مدار الحديث في الشوارع والصالونات..! ومن الطريف أن أول قلب مزروع كان في «رأس الرجاء الصالح»!

■

مُلاحَظات حَولَ الهندَسَة التّقليديّة في جَنوبْ شِبْه الجزيرة العَربيّة

ڤالتر دوستال



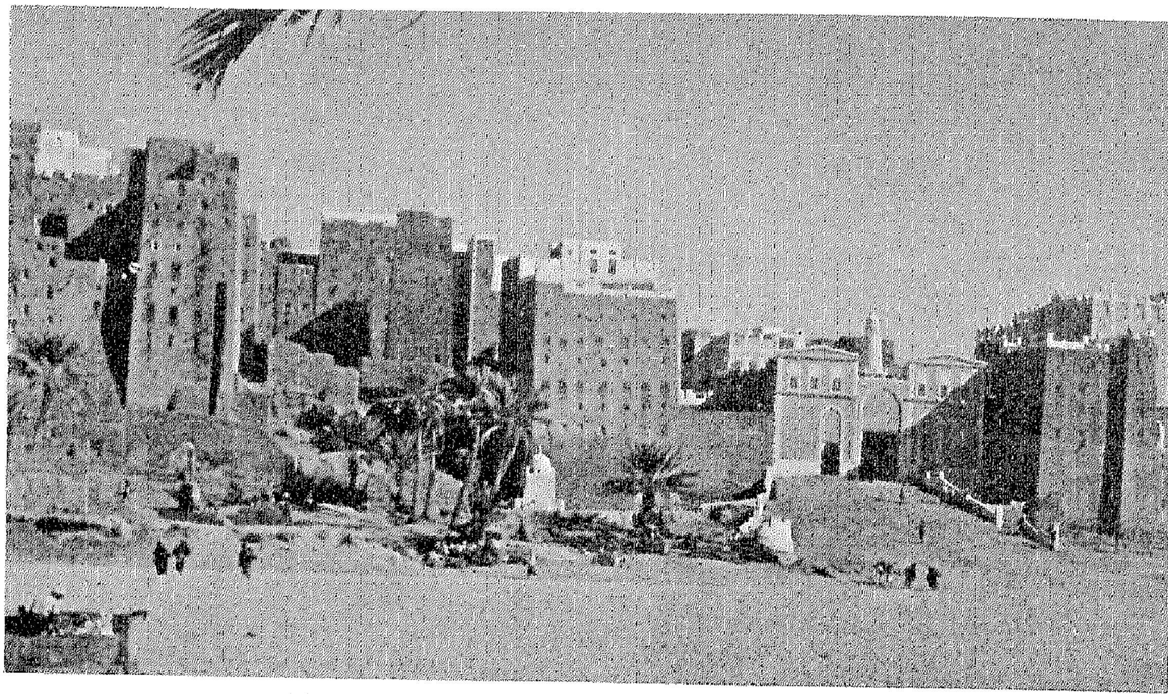
المرجع: فكر وفن، العدد ٣٥ (١٩٨١)

تقوم المعلومات الوصفية المدرجة باقتضاب في هذا البحث على أبحاثي التي بدأتها في جنوب شبه الجزيرة العربية منذ عشرين عاماً، وذلك أثناء فترات إقامتي في حضرموت ومرتفعات رأس الخيمة واليمن الشمالي، بالاضافة الى رحلة دراسية قمت بها الى ظفار. أما المعلومات الخاصة بجنوب الحجاز وعسير فمقتبسة من عرض عام موجز لمشروع عمل مشترك بين معهد علم الشعوب في جامعة فيينا وقسم الآثار في جامعة الرياض. ويهدف هذا المشروع، الذي يشرف عليه المؤلف والأستاذ الدكتور عبد الرحمن أنصاري (جامعة الرياض) ويشترك فيه أنتروبولوجي سعودي شاب هو السيد عبد العزيز الأشبان، الى وضع اطلس إتنوغرافي لعسير لتوثيق الانتشار المساحي لشواهد الحضارة النفيسة الغابرة قبل زوالها والحفاظ على هذه الشواهد إتماماً للتاريخ الحضاري.

ومن الأهمية بمكان أن أوضح بايجاز سبب اختياري لفن الهندسة المعمارية التقليدية موضوعاً لهذا البحث. من أجل ذلك أبرز قضيتين هامتين قد يؤدي الالمام بهما الى تفهم الغاية التي أنشدها. وقبل ذلك، على سبيل التمهيد، أود أن أبدي ملاحظة شخصية: حين يكون المرء قد قضى أكثر من ٢٠عاماً في دراسة طرق معيشة البشر وعاداتهم وتقاليدهم في بلدان عربية مختلفة، فإنه لا ينظر الى هؤلاء البشر كموضوعات اختبارية للدراسة والتمحيص، وإنما يراهم بالدرجة الأولى كشركاء اتصال ويشاركهم أفراحهم وهمومهم على السواء. وتؤدي الأبحاث الأنثروبولوجية بطبيعتها الى قيام علاقات بين الباحث والشركاء تنشأ عنها وشائج طابعها الاحترام المتبادل. إن التقدير الخاص للانجازات الحضارية لهذه المجتمعات التي أتيحت لي فرصة التعرف عليها في الجزيرة العربية هو الذي دفعني بالذات الى اختيار هذا المجال الحضاري الجذاب موضوعاً لهذا المقال.

وأنتقل الآن الى معالجة وجهة النظر الأولى التي تمس المشكلة العامة للتحول الحضاري. يقدم التاريخ لنا أمثلة جلية توضح أن الحضارات تخضع لتأثيرات وتغيرات مستمرة. إلا أن هذه العمليات والتأثيرات لم تحدث بالسرعة التي تمت بها تلك التي نشأت عن الاتصال بين المجتمعات غير الصناعية والمجتمع الصناعي الغربي. وينطبق هذا القول بالذات على تلك البلدان العربية التي ترتبط، بسبب استغلال ثرواتها النفطية، بروابط اقتصادية وثيقة ومتشعبة بالمجتمع الصناعي. ويرافق هذا التشابك الاقتصادي تحولات تترتب عليها تغيرات في الحضارة التقليدية، تغيرات تخترق اليوم أعماق حياة سكان هذه البلدان. وتتلخص المشكلة الأساسية لهذا التحول الحضاري العنيف في تلاشي الذاتية الخلاقة للحضارات التقليدية، وذلك لصالح تقبل بعيد عن النقد لنتاج الحضارة الغربية. وإنه لمن السذاجة بطبيعة الحال أن نعتقد بأن مثل هذا الأخذ والنقل أمر غير مقبول، ولكن يبدو لي بأن هناك ما يبرر القول بأن عمليات الأخذ والنقل عن الحضارة الغربية يجب أن تتم بوعي ونقد. بمعنى تكييف المنقول مع الشخصية الحضارية الذاتية. وهذا ما لا يمكن تحقيقه بالتأكيد عند إنشاء معمل للطاقة النووية، ولكنه قابل للتحقيق في حقل الهندسة المعمارية على سبيل المثال. فما هو التعليل المنطقي للأخذ بالرتابة الجامدة الكئيبة للهندسة المعمارية الغربية عند بناء البيوت الحديثة وإهمال الثروة التعبيرية في الأشكال والزخارف التي تزخر بها الهندسة التقليدية؟ والجواب الوحيد على هذا السؤال هو أن الانجازات الحضارية للمجتمع الأصلي تسقط نهائياً في طيات النسيان إما نتيجة للجهل أو ربما بسبب الانسياق الأعمى وراء كل ما هو غربي. إن التصدي لهذا الاتجاه هو الغرض الحقيقي الذي أسعى اليه في هذا البحث.

بعد أن الحت الى أهمية العناية بالحضارة العربية التقليدية من أجل تشكيل حضارة المستقبل، فإن عليّ أن أذكر وجهة نظر أخرى تتعلق الى حد ما بالجزء الثاني من الغاية التي أنشدها في هذه الدراسة. وأعني بذلك الفائدة التي يجنيها علم الأنثروبولوجيا من معرفة الحضارة السابقة للمجتمع الصناعي، ولا يستطيع أحد أن ينكر أن شبه الجزيرة



الهندسة المعمارية للبيوت المرتفعة في حضرموت (شبام)

العربية من أكثر المناطق المجهولة إثنوغرافياً في العالم. ولذا فإن هذه الحقيقة تلزم الأنثروبولوجي بالسعي الى تسجيل مواقع الحضارة التقليدية للجزيرة العربية وتوثيقها، قبل أن يصيبها الضياع والتلاشي بسبب التغيرات الحضارية الشاملة، وحتى يحافظ عليها كوثائق للتاريخ الحضاري. ونمثل على ذلك بفن الهندسة المعمارية، ومن خلاله نبين مدى ضرورة مثل هذا التوثيق وأهميته.

ومن وجهة نظر الأنثروبولوجيا، العلم الذي يسعى الى فهم الانسان، يمكن وصف فن العمارة بأنه محصلة أو نتاج الصراع المرير لسكان هذه المناطق للوصول الى أفضل تكيف مع البيئة. حين أحاول فيما يلي أن أوضح هذا البعد لفن العمارة، فإنه من البديهي أن أسأل عن طبيعة التخطيط في فن العمارة التقليدية. فالتخطيط هو تصرف عقلاني منظم لاشباع حاجات ومصالح معينة.

ومن وجهة نظر موضوع بحثنا نسأل الى أي مدى يمكن إدخال المعلومات المتوفرة حول الظروف البيئية الطبيعية في التخطيط المعماري عند بناء البيوت. وللإجابة على ذلك بصورة عملية بقدر الامكان، أدرج فيما يلي بعض الأمثلة التي توضح المظاهر المختلفة لهذه القضية.

١ ـ من البقاع المختلفة لجنوب شبه الجزيرة العربية، التي تشتمل على تنوع في الطبيعة يتراوح ما بين المرتفعات الجبلية والمنخفضات الساحلية الصحراوية، أختار مثلين من المناطق الجبلية، فطبيعة التربة في هذه المناطق تسبب صعوبات شديدة عند بناء البيوت. ويوضح الرسم الايضاحي المرفق حلاً ايجابياً لهذه الصعوبات، ويبين مقطعاً عرضياً لأحد البيوت في جنوب الحجاز.

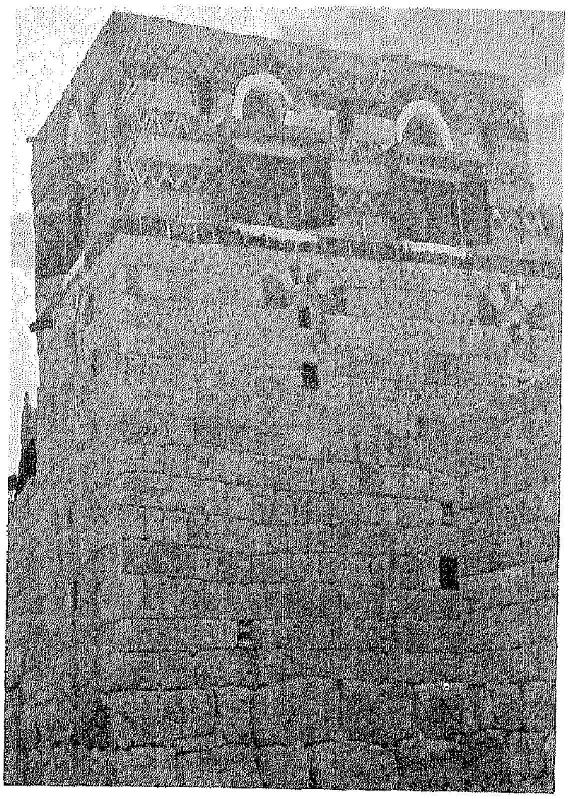
ويوضح المقطع العرضي بصورة جلية الطريقة التي استفيد بها من الانحدار الأرضي لموقع البناء، وذلك بانشاء البناء فوق المنحدر مع استخدام الصخور الكبيرة كعناصر لتثبيت البناء بادماجها في تكوين البيت. واذا تأملنا مليا مستوطنة شحوح في رأس مسندم يتوضّح بالدليل كيف يمكن استغلال أية مساحة أرضية لبناء البيوت وانشاء الشرفات الحقلية الزراعية بطريقة مدروسة منتظمة، حتى وان كان اختيار المكان سيسبب عزلة اجتماعية مؤقتة، لأن سكان هذه البقعة مجبرون على الهجرة الموسمية بسبب اعتمادهم على الأمطار في إمداد أنفسهم

بالمياه. وتفرض هذه الهجرة الموسمية بالذات على سكان الجبال عند نزوحهم الى السهول الساحلية مطالب عالية قاسية فيما يتعلق ببناء البيوت، إذ يقتضي ذلك أن يبتكروا مباني سكنية تتلاءم مع كل من المنطقتين الجغرافيتين.

ومن الضرورات الاقتصادية في تخطيط بناء البيوت أيضاً تأمين مواد البناء. ففي مرتفعات اليمن الشمالي يوجد لكل قرية مقلع للحجارة يعتبر ملكاً مشتركاً للمجتمع السكني. ويستطيع عمال المحاجر، الذين يمارسون مهنتهم الى جانب عملهم الزراعي، أن يمدوا كل شخص في القرية بمادة البناء هذه استناداً الى مبدأ الملكية المشتركة المذكور. وفي عسير يكفل الامداد بأخشاب البناء وفقاً للعرف المسمى بـ «الحيمة». ويعني ذلك أن جزءاً من الملكية المشتركة مستبعد من الاستخدام اليومي بحكم العرف. ويشمل بعض المراعي المحددة والأشجار الثمينة. ولا يستطيع الفرد الحصول على خشب البناء من (منطقة الحيمة) إلا بموافقة الجماعة. وهكذا فعرف الحيمة أجراء فعال لحماية البيئة وللحيلولة دون السطو الأناني على الثروات الطبيعية وتبديدها.

٢ ـ يؤثر المناخ كذلك بدرجة عالية على هندسة المباني. وعلى العموم فإن شبه الجزيرة العربية تتسم مناخياً بجو جاف ودرجات حرارة عالية في الصيف، ودرجات حرارة دافئة نسبياً في الشتاء مع أمطار شتائية من وقت الى آخر، إلا أن هذا المناخ يتعرض تحت تأثير البر والبحر، والجبال والصحراء، لتغيرات أساسية تؤدي الى تكوين مناطق مناخية مختلفة وفقاً لتباين البقاع الجغرافية. وهكذا يتكون في الجبال مناخ خاص، تكثر فيه الأمطار وتنخفض فيه درجة الحرارة، في حين يصبح المناخ الرطب الحار في المناطق الساحلية محتملاً بفضل تغير الريح المنتظم وفقاً للفصول. وفيما يلي سأتخذ من العاملين المناخيين، الريح والمطر، مثالاً لأوضح الانشاءات البنائية التي ابتكرها سكان شبه الجزيرة العربية لاستغلال الرياح الملطفة للجو وللوقاية من الأمطار.

أختار في بادىء الأمر المنشآت المعمارية التي تستغل الرياح كعامل للتبريد. ومن حيث النمط



بيت فلاحي يمني (منطقة ايال يزيد)

البنائي فانها تنقسم الى فئتين: أبنية ذات ملاقف (جمع ملقف أو منور) لسحب الريح وتحويله الى حجرة في البيت، وأبنية ذات فتحات خاصة في الجدران وفقاً لتصميمات محددة تسمح بدخول الريح.

وتنتمي «أبراج الرياح» الى الفئة الأولى. وهناك نوعان في جنوب شبه الجزيرة العربية وهما: البرج، وهو برج الريح المفتوح من الجهات الأربع، ثم الحصن. وكل منهما بناء مكعب الشكل يقام على سطح البيت.

ويبنى البرج، بارتفاع يقارب المترين الى الثلاثة، من جدار مركزي داعم وأربعة أعمدة خارجية. تؤمن مجرى دائماً للهواء اذ توجدُ بذلك أربع فتحات مستطيلة. ويمكن فتح هذه الفتحات أو اغلاقها بواسطة ألواح خشبية وفقاً لاتجاه الريح، وذلك لالتقاط الريح. وتتصل هذه الفتحات بواسطة ملقف خشبي بالحجرة الواقعة تحت برج الريح. ومن خلال هذا الملقف يحوّل هواء الريح الى هذه الحجرة بحيث يلطف جوها. ويُركب مشبك حديدي بين الفتحات وملقف

الريح للحيلولة دون دخول الطيور الى الحجرة.

على خلاف البرج، الذي يبنى لسحب الريح من جهات متعددة، فإن الحصن، بارتفاع متر الى متر ونصف فقط، لا يسمح بسحب الريح إلا من جهة واحدة. ولذا فغالباً ما تكون فتحة الحصن باتجاه البحر، للاستفادة من رياح البحر الباردة.

إن بناء هذه الأبراج الرياحية شكل من أشكال تكييف الهواء يعود الى ما قبل عصر التصنيع.

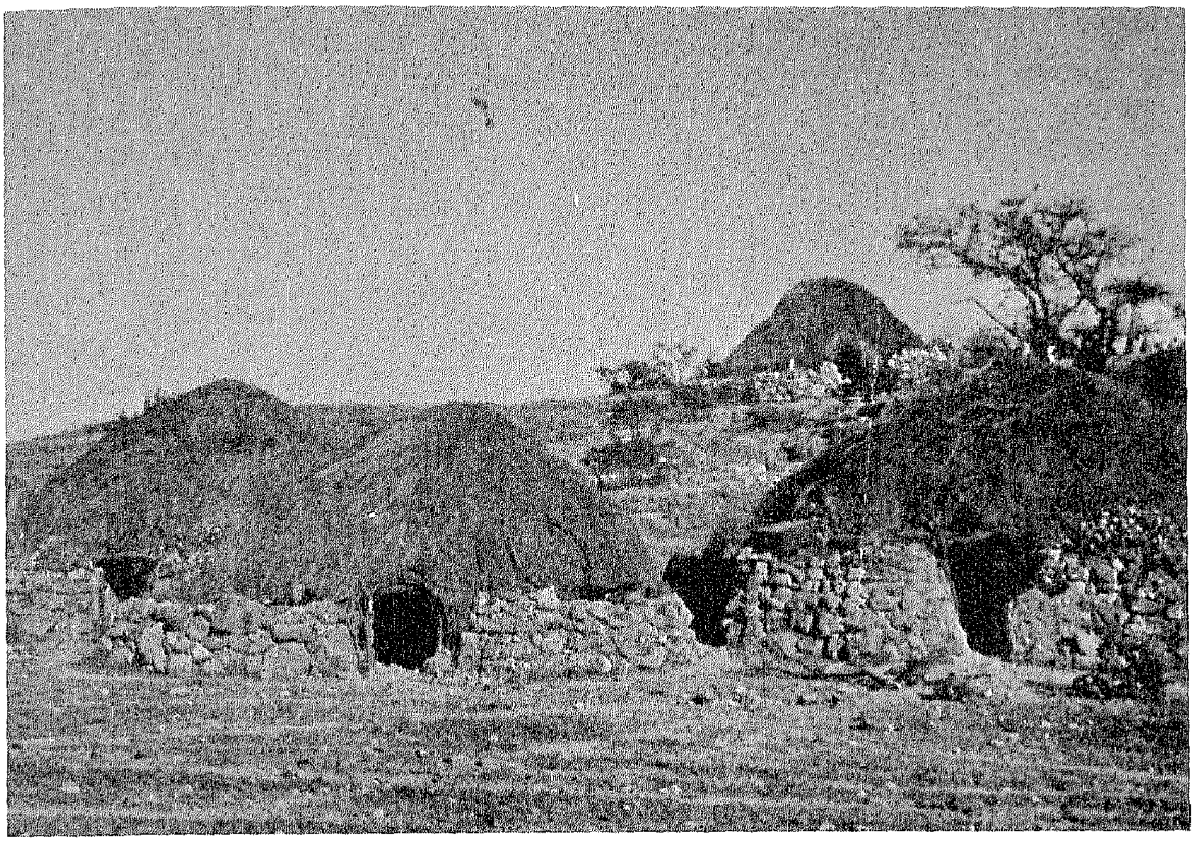
نتناول الآن بالبحث الفئة الثانية التي تتميز بترك فتحات في الجدران. هناك نوع خاص من الفئة وهو الكوخ المربع المسمى بالعريش، وهو واسع الانتشار في جنوب شرق شبه الجزيرة العربية. ويبنى بأكمله من سعف النخيل. ولبناء الجدران الجانبية تحفر في الأرض حفر على أبعاد منتظمة تبلغ العشرين سنتيمتراً تقريباً. ثم تنصب فيها رزم طويلة من سعف النخيل توصّل بقضبان أفقية. وبذلك تنشأ جدران تسمح بدخول الهواء من جميع الجهات بالاضافة الى الضوء أيضاً. ويعتمد السقف المسطح وهو شيء كالمظلة، على هيكل من جذوع الليف، وتوصل به الجدران الجانبية بواسطة القضبان الأفقية المذكورة.

وفي منطقة الواحات في الجنوب الشرقي ينتشر النوع الذي يطلق عليه اسم الدحريس. وتكمن العلامات البنائية لهذا البيت المستطيل ذي السقف المستوي الذي يبنى من الآجر (طوب اللبن أو الطين) في وجود فتحات كبيرة شبيهة بالنوافذ في الجدارين الأمامي والخلفي، وفي الجدارين الجانبيين أيضاً. ويمنع النظر خلال هذه الفتحات بشبكة من قضبان الليف المحبوكة. وبالاضافة الى هذه الفجوات فقد جعلت في الجدران فتحات كبيرة أخرى، مستطيلة أو مربعة.

وتبني القبائل التي تعيش في مرتفعات رأس مسندم نوعاً خاصاً من البيوت يدعى باسم الصوفة. وهو بيت مستطيل يُسكن في بداية فترات القيظ. ويتميز هذا النوع بطريقة بناء الجدران والسقف. فالجدران تبنى من الحجارة التي توضع مخلخلة فوق بعضها والى جانب بعضها بعضاً. وفي بعض مباني الصوفه تترك في الجدران عدة فتحات كبيرة. أما السقف فلا يتألف إلا من أعمدة خشبية أفقية تغطّى بالأغصان والشجيرات. والى جانب هذه الوحدات البنائية المستقلة فهناك نوع آخر من الصوفه يبنى ملحقاً بالبيت الشتائي. ولا تتألف هذه المباني الملحقة إلا من جدار جانبي وآخر أمامي. أما الجدار الجانبي الثاني فلا وجود له، مما ينشأ عنه فتحة كبيرة وظيفتها الامداد بالريح.

أنتقل الآن الى ذكر الحلول البنائية التي تستخدم لاتقاء الأمطار. ونبدأ أولا بذلك الحل التقني الذي نجده منتشراً في عسير، في منطقة أبها. ففي هذه البقاع تبنى من اللبن بيوت من طوابق عدة. ولأن هذه البيوت تتعرض، بسبب الموقع الجبلي المرتفع، الى أمطار غزيرة، فقد أوجدت وقاية فعالة للجدران لمنع تآكلها بالامطار، وذلك بتدعيمها وتثبيتها بألواح أو نطوف حجرية. أما الحلول البنائية الأخرى فتتعلق بطبيعة الحال بطرق بناء السقوف المختلفة. وفي الجنوب الشرقي يشتهر البيت ذو السقف الجملوني الذي يدعى بالخيمة. ولهذا النوع من البيوت أساس مستطيل، ويبنى من سعف النخيل. أما عنصر الثبات فيه فيتألف من هيكل مشبّك من القضبان تثبت اليه الجدران المؤلفة من أعواد ليفية مشدودة الى بعضها باحكام. ويغطى هيكل السقف المشبك بواسطة حُصرٍ من سعف النخيل، وتستخدم هذه الحصر أيضاً لتغطية الجدران الداخلية.

وامّا في المناطق السفلى للمرتفعات الجبلية فيوجد نوع شبيه من البيوت السابقة وهو ما يدعى بالكرين، والفارق الوحيد أن جدران هذا البيت تتألف من آجر اللبن أو الحجارة المنحوتة ويتمثل نوع آخر في الكوخ ذي السقف الجملوني الذي يطلق عليه كذلك اسم «الخيمة» ويُشاهد في مرتفعات الجنوب الشرقي. والمسقط الأفقي لهذا البيت بيضاوي الشكل . وتطلى الجدران الحجرية — وهي عادة بدون ملاط — من الداخل فحسب بطبقة طينية، وفي داخل البيت توجد الأعمدة الحاملة لهيكل السقف الجملوني. ويمتد غطاء



بيت بسقف مقبب (في ظفار).

السقف، المؤلف من أعواد ليفية محبوكة باحكام ببعضها، حتى يصل الى الارض.

وفي البقاع التي تكثر فيها الأمطار صممت السقوف على هيئة قباب وهذه تحتم بطبيعتها اختيار مقاطع بيضاوية أو دائرية للبيوت. وتنتشر هذه المباني في مرتفعات الجنوب الشرقي وظفار، وتعتبر من معالم تهامة المعمارية.

ان الأمثلة التي اخترناها حتى الآن تشير الى «العقلانية» في تخطيط البيوت من حيث علاقتها بظروف البيئة الطبيعية. واستطراداً للبحث، فإنه من الجدير أن نوضح كيف يدخل فن العمارة التقليدي عن وعي شروط الحياة الاجتماعية في اعتباره.

ان المبدأ التنظيمي الاجتماعي الأساسي لجميع القبائل التي تعيش في شبه الجزيرة العربية ينبع من مفهوم السلالة الأبوية، أي يرتكز على ايديولوجية الاستمرار السلالي من الأب الى الأبناء، بكل ما يرتبط بذلك من حقوق اقتصادية شرعية وسياسية. لإظهار تأثير العوامل الاجتماعية على بناء المنشآت السكنية، نناقش، من وجهة النظر هذه، أنواع الزيجات، وأشكال المساكن بعد القران والدخلة، والوضع الاجتماعي للمرأة وعلاقة الموضوعات جميعاً بنظام السلالة الأبوية.

بصدد الصلة بين أشكال الزواج ونظام النسب السلالي الأبوي، فإن دراسة المجتمعات ذات نظام الأنساب الأبوية تظهر اتجاهاً جديراً بالملاحظة، وهو تفضيلها لنظام تعدد الزوجات. ولكن ليس لهذه المقولة أكثر من قيمة نظرية، إذ أن نظام الزوجة الواحدة هو السائد في الواقع الاجتماعي للمجتمعات العربية. فقد أوضحت احصاءاتي التي قمت بها في الشمال الشرقي من اليمن الى أن نسبة تعدد الزوجات تبلغ اثنين من مئة واحدى وعشرين حالة زواج، وهي نسبة ضئيلة جداً. لهامشية ظاهرة تعدد الزوجات أهمية بالنسبة لبحثنا، وإذ توضح أن نظام تعدد الزوجات، من حيث كونه عاملاً مؤثراً على بناء المساكن، ليس له إلا طابع الاستثناء.



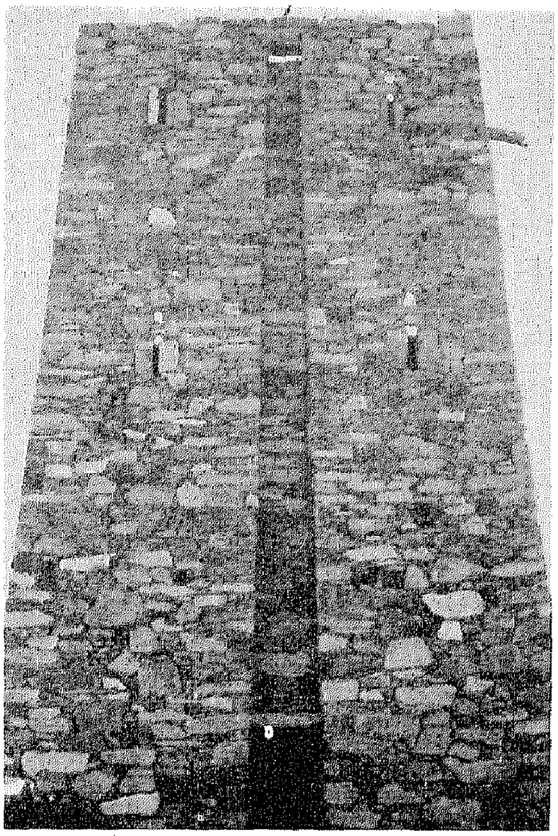
ـ بيت بسقف مقبب (وادي وعاله، رأس الخيمة).

ففي حالات تعدد الزوجات فقط، يحق لكل امرأة، حسب الشريعة الاسلامية، أن تطالب بحجرات خاصة بها للسكن والمعيشة.

على خلاف نظام الزوجة الواحدة، فإن الأشكال السكنية بعد إتمام الزواج تؤثر على تكوين البيوت وتركيب المنشآت السكنية. ويقصد بسكن ما بعد الزواج المسكن الذي يستقر فيه الزوجان الشابان، والعامل الحاسم هنا هو: لأي المجتمعين العائليين ينضم الزوجان، الى المجتمع البيتي لأب الزوج، أم لأب الزوجة. ومن الدراسات الأنثروبولوجية نعلم أنه عادة ما توجد عدة بدائل للسكن يختار من بينها الزوجان الشابان. وقد دلت دراساتي واحصاءاتي بين القبائل العربية على أن الدار السكنية الأبوية هو الشكل الأكثر انتشاراً في الواقع.

يترتب على اختيار الدار السكنية الأبوية في المقام الأول، أي حين ينضم الأبناء بعد زواجهم الى مجتمع الأسرة الأبوية الكبيرة، التوسع المساحي في منشآت الدار. وقد يقام بيت الابن المتزوج أيضاً على مقربة من دار الأب، عندما لا تسمح الظروف المكانية بناء ملحقات سكنية. على أنه من الهام عند تقييم مثل هذا الانفصال المكاني لأسرة الابن عن العائلة الأبوية معرفة ما إذا كانت أسرة الابن هذه، مندمجة في المجتمع العائلي الأبوي، رغم انفصالها سكنياً عنه، أم أنها استقلت عنه كلياً وشكلت ذاتها مجتمعاً جديداً بميزانية مستقلة تماماً. وبذلك نكون قد أوضحنا عاملاً اجتماعياً واحداً فحسب من العوامل المؤثرة على تكوين البيوت والمنشآت السكنية، وتوضح اللوحة المرفقة بصورة بيانية كيفية التوسع في الوحدة البنائية الأصلية لمسكن رب الأسرة الناجم عن هذا العامل.

أما العامل الاجتماعي الثاني المؤثر فمصدره الروابط الحقوقية والشرعية لايديولوجية الأنساب الأبوية. ويعبر عن هذه الايديولوجية في العربية بعبارة «نسب أصيل». وتتلخص هذه



برج دفاعي أقيم منذ نحو ٥٠ عاماً.

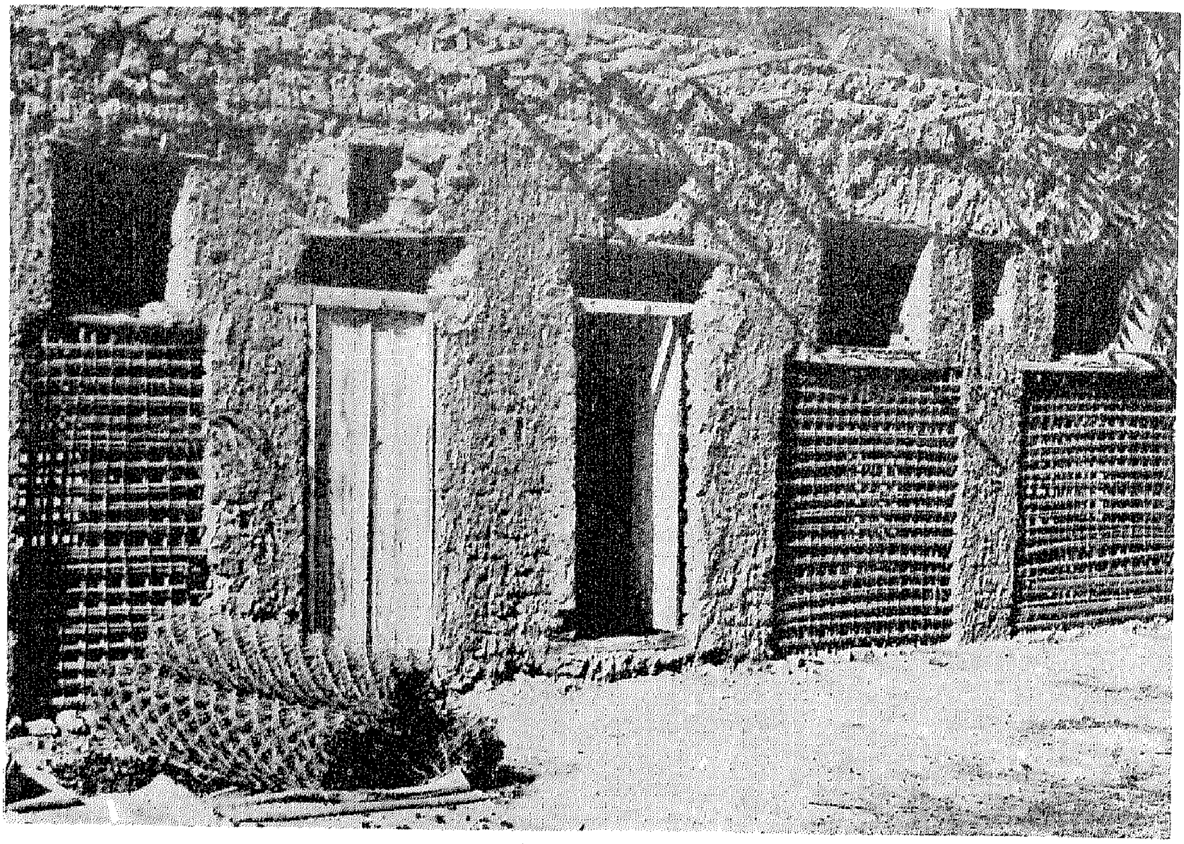
العبارة تصور الاستمرارية السلالية لسلسلة الأنساب الأبوية كحقيقة اجتماعية. فهي المنطلق الذي أدى الى تطوير قواعد معينة لفحص هذه الحقيقة والتأكد من صحة محتواها. ووظيفة إحدى هذه القواعد هو ضمان نقاوة الخط السلالي. وقد ترتب على هذه القواعد بالذات آثار في تكوين المنشآت البيتيّة، على ما قد يبدو في ذلك من غرابة لأول وهلة. وأعني بذلك تلك القواعد التي تتعلق بوضع المرأة في هذه المجتمعات الأبوية الأنساب. ولا سبيل الى إنكار أن وضع المرأة الاجتماعي في هذه المجتمعات يختلف اختلافاً أساسياً عن وضع الرجل من حيث أن لا سيطرة لها على وسائل الانتاج. ولكن المرأة، من الجهة الأخرى، تحظى بمكانة هامة بفضل وظيفتها كمنتجة للأنساب الأبوية (للنسب الأبوي). ومن ثم كل تلك الاجراءات الهادفة بالدرجة الاولى الى حماية المرأة من استحواذ الغرباء عليها. فالمسألة هنا تتعلق بالمحافظة على نقاء السلالة وأصالتها. وينجم عن ذلك عزل المرأة اجتماعياً. ونجد صدى ذلك في بناء البيوت وهندستها، إذ تفصل الأماكن التي تتواجد فيها المرأة عن تلك التي يمكن أن يدخلها الغرباء. وتقضي الحلول المعمارية لذلك بانشاء وحدة معمارية خاصة، هي المَجلس، يستقبل الرجل فيها ضيوفه، وتكون معزولة عن وحدات السكن والاقامة والنوم للمجتمع العائلي. وحيثما لا تتوفر إمكانية تحقيق هذا الحل يقام في المستوطنة السكنية بناء خاص يطلق عليه اسم (المجلس)، يمكن استقبال الغرباء فيه. ولكن هناك حالات لا يتوفر فيها حتى مثل هذا الحل الأخير. وفي هذه الحالات تتجنب النساء غالباً دخول غرفة المعيشة (الجلوس)، ما دام يجلس فيها رجل غريب. وتتضح الحلول المعمارية بصورة تخطيطية في الرسم المرفق.

من ذلك التفاعل بين العوامل الاجتماعية وعمارة المساكن يمكننا أن نستخلص ثلاث ميزات لفن العمارة العربي التقليدي تميزه عن الهندسة المعمارية الغربية التي تتسم بالجمود:

١ ـ يجب أن يكون نظام البناء شديد التنوع، أي يجب أن يكون طابعه المرونة الكبيرة للاستجابة للضرورات الاجتماعية بحيث يمكن توسيع البناء الأصلي الأول. ويبدو أنه من الضروري الاشارة هنا الى أن الجهد العملي اللازم لذلك كثيراً ما يقدمه أعضاء المجتمع العائلي وأقرباؤهم وفقاً لمبادىء التعاضد والتكافل التي تنبع من نظام «النسب الأبوي».

٢ ـ طابع وحدات النظام المعماري هو الاستقلال عن بعضها بحيث يتم التوسع الضروري في وحدات السكن والنوم دون أن يترتب على ذلك أي تغيير في العناصر الأخرى من المبنى. وهذا يعني عملياً، أنه في حالة تزوج أحد الأبناء، يتيسر لهذا الابن أن يظل، بفضل دار السكن الأبوية، عضواً في المجتمع العائلي الأبوي، مما لا يحتاج الى أكثر من توسيع وحدات السكن والنوم الجديدة، دون حاجة الى تغيير مباني الادارة المنزلية الأبوية.

٣ ـ يقوم النظام المعماري، إذا سمحت الظروف بذلك، على أساس عزل الوحدات السكنية الخاصة للمجتمع العائلي عزلاً تاماً عن الجزء العام من البناء الذي يدخله الغرباء



واجهة بيت صيفي (رأس الخيمة)

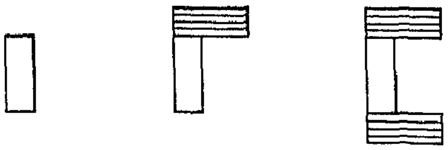
والذي يسمى بالمجلس. ومصدر هذا الفصل هو تلك المعايير النابعة من أيديولوجية السلالة الأبوية.

بهذه المعارف السابقة لم نعالج بعد تأثير العوامل الاجتماعية على فن العمارة التقليدي من جميع النواحي. وقد يكون من المجدي متابعة تأثيرات تقسيم العمل بين الجنسين، أي تلك القواعد التي تحدد توزيع الصلاحيات الاقتصادية بين الرجل والمرأة في المجتمع المنزلي، على تشكيل المنشآت السكنية. ولكن من الأفضل ـ كما يبدو لي ـ التخلي عن ذلك، فهدف هذا الموضوع العام هو ابراز تأثير بعض العوامل فحسب. غير أن هناك عاملاً يستحق الاهتمام ولا يجوز التغاضي عنه عند معالجة هذه المسائل التي أوردناها من قبل. وأعنى به قضية الدفاع عن النفس، وهي قضية اجتماعية هامة. ولا يحتاج الأمر الى ايضاح كبير فإن مساحة الأراضي الصالحة للزراعة في سلسلة الجبال الجنوبية الغربية من الجزيرة العربية ـ نظراً لعوامل التعرية ـ محدودة للغاية. وهذه حقيقة قد تصبح خطراً ملوحاً، عند ازدياد عدد أفراد قبيلة من القبائل، وحين ينزع البعض الى اتخاذ الحرب وسيلة لانتزاع الأراضي الضرورية الصالحة للزراعة. عندئذ يصبح الدفاع في هذا المجال قضية وجود أم فناء. وعلى ضوء هذه الحقيقة نفهم الحلول المختلفة للمنشآت البنائية الدفاعية في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة العربية. وتشمل ثلاثة أنواع:

١ ـ البيوت العالية التي تضم فيها حجرات المؤونة والطبخ مع وحدات غرف الأقامة والنوم في مُجمّع بنائي واحد.

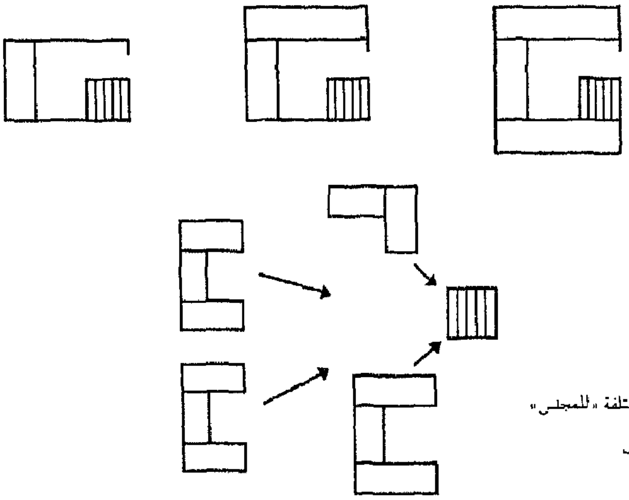
٢ ـ الحصون، التي يلجأ اليها أفراد الأسرة مع أهم ما لديهم من أمتعة ومؤن في أوقات الخطر.

٣ ـ القرى الدفاعية. بنيت هذه القرى، المنتشرة بوجه خاص في الشمال الغربي والجنوب الغربي من منطقة أبها في عسير، بحيث تشكل الجدران الخارجية للبيوت أسوار



(٢) رسم بياني يوضح كيفية توسيع المنزل الأبوي في حالة انضمام الأبناء بأسرهم إليه

منزل الأب — وحدات المعيشة والنوم للأبناء المتزوجين



(٣) مثال للحلول المعمارية المختلفة «للمجلس»

مجلس

الحصن، وبحيث يمكن اغلاق المداخل بالبوابات. وقد أصبحت هذه القرى الدفاعية اليوم، نتيجة لسياسة الاستقرار الناجحة لحكومة المملكة العربية السعودية، مجرد شواهد أثرية مدهشة لماضي مضطرب.

لقد حاولت حتى الآن أن أبين بعض المعالم الأساسية لفن العمارة التقليدي لجنوب شبه الجزيرة العربية. إلا أن هذا العرض سيكون ناقصاً إذا لم أذكر ذلك الحقل من حقول فن الهندسة المعمارية الذي يعبر من خلاله المجتمع عن مفهومه الجمالي وعن قدراته الابداعية: وأعني به ميدان الزخارف المعمارية. ويشمل الأسلوب الزخرفي المترف الشبيه بنمط الروكوكو على بعض بيوت زبيد — وهذا تطوير محلي لأسلوب الزخارف الفارسي الهندي — وزخارف السقوف والنوافذ — من مواد مختلفة — على البيوت وعلى واجهة مسجد قرية زيدية، ثم رسوم الجدران داخل بيوت عسير، تلك الرسوم التي تبدعها أنامل النساء. وحتى لا أطيل على القارىء وأبعث في نفسه الملل بالوصف المفصل، أكتفي بالاشارة الى الصور الفوتوغرافية التي تنقل انطباعاً أكثر مباشرة وصدقاً مما يستطيعه الوصف الكلامي.

والآن فقد بلغت نهاية عرضي الذي أرجو أن يكون قد أوضح لنا أن فن العمارة التقليدي يضم الخبرات العملية المباشرة التي اكتسبت أثناء الصراعات الدائرة مع البيئة الطبيعية كما يعبر عن الأوضاع الاجتماعية. وقد تكون هذه المقولة السابقة بديهية أو تافهة، إلا أنها — كما يبدو لي — ضرورية للتأكيد على «معقولية» فن العمارة التقليدي الذي يميل المرء كثيراً الى اغفاله في غمرة عمليات التحول الحضاري الحالية. إن فن العمارة هذا هو تعبير رائع عن القدرات الابداعية للإنسان في الماضي. واليوم نرى كيف تحدث القطيعة بيننا وبين عصر ما قبل التصنيع بشدة وعنف. من لم يستوعب في هذه المرحلة الجديدة من التاريخ الحضاري لشبه الجزيرة العربية ماضيه، من لم يفهم هذا الماضي ويقدره حق قدره، فقد يكون أيضاً عاجزاً عن تشكيل حضارته من جديد وعن تحقيق رؤيته الحضارية. وبهذا المعنى أهدي هذه المقالة وأكرسها الى جميع أصدقائي العرب. ■

عمر بن الخطّاب وزعيم العجم*

لما أتي بالهرمزان أسيرا إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قيل له: يا أمير المؤمنين؛ هذا زعيم العجم، وصاحب رستم[1]؛ فقال له عمر رضي الله عنه:

أعرض عليك الاسلام نُصحا لك في عاجلك واجلك. فقال: إنما أعتقد ما أنا عليه، ولا أرغبُ في الاسلام رهبة. فدعا عمر بالسيف، فلما همّ بقتله، قال: يا أمير المؤمنين، شربة من ماء هي أفضل من قتلي على الظمأ، فأمر له بشربة من ماء، فلما أخذها الهرمزان قال: يا أمير المؤمنين، أنا آمن حتى أشربها؟ قال: نعم؛ فرمى بها، وقال: الوفاء — يا أمير المؤمنين — نور أبلج! قال: صدقت! لك التوقف عنك، والنظر فيك، ارفعوا عنه السيف!

فقال: يا أمير المؤمنين، الآن أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، وما جاء به حق من عنده. فقال عمر: أسلمت خير الاسلام، فما أخرك؟ قال: كرهت أن يظن بي أني إنما أسلمت خوفا من السيف، فقال عمر: ألاَ إن لأهل فارس عقولا استحقوا بها ما كانوا فيه من المُلك، ثم أمر ببره واكرامه! ■

هوامش

* نهاية الأرب: ٦ — ٧٧.

(١) رستم: كان من أعظم رجال فارس، وقائد جيوش وقعة القادسية التي انتصر فيها المسلمون أيام عمر بن الخطاب، وقتله رستم في هذه الوقعة.

أفضل العجائب*

كان محمد بن حُمَيد[1] الطوسي على غذائه يوما مع جلسائه، واذا بصيحة عظيمة على باب داره، فرفع رأسه، وقال لبعض غلمانه: ما هذه الضجة؟ من كان على الباب فليدخل!

فخرج الغلام، ثم عاد اليه، وقال: ان فلانا اخذ وقد اوثق بالحديد، والغلمان ينتظرون امرك فيه، فرفع يده عن الطعام؛ فقال رجل من جلسائه: الحمد لله الذي امكنك من عدوك، فسبيله ان تسقي الارض من دمه؛ واشار كل من جلسائه عليه بقتله على صفة اختارها، وهو ساكت!

ثم قال: يا غلام؛ فك عنه وثاقه، ويدخل الينا مكرما.

فادخل عليه رجل لا دم فيه؛ فلما رآه هش اليه، ورفع مجلسه وامر بتجديد الطعام. وبسطه بالكلام، ولقمه[2] حتى انتهى الطعام، ثم امر له بكسوة حسنة وصلة، وامر برده الى اهله مكرما، ولم يعاتبه على جرم ولا جناية.

ثم التفت الى جلسائه، وقال لهم: ان افضل الاصحاب من حض الصاحب على المكارم، ونهاه عن ارتكاب المآثم، وحسن لصاحبه ان يجازى الاحسان بضعفه، والاساءة بصفحه؛ انا اذا جازينا من اساء الينا بمثل ما أساء فاين موقع الشكر على النعمة فيما أتيح من الظفر! انه ينبغي لمن حضر مجالس الملوك ان يمسك الا عن قول سديد وامر رشيد؛ فان ذلك ادوم للنعمة، واجمع للالفة. ان الله تعالى يقول: ﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً. يصلح لكم اعمالكم، ويغفر لكم ذنوبكم، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما[3]. ■

هوامش

(*) نهاية الأرب: ٦ — ٦٣، غرر الخصائص: ٢٢٩.

(١) محمد بن حميد الطوسي: وال من قواد جيش المأمون العباسي، استعمله على الموصل، وكان شجاعا ممدوحا جوادا وقتل سنة ٢١٢ هـ.

(٢) لقمه، يريد اطعمه.

(٣) سورة الاحزاب — آية: ٧٠، ٧١.

عمائم

العلاّمة الشّيخ

جميل عبد القادر عدرة

فضل المقدّم



حفلت طرابلس في المائة السنة الماضية بعدد كبير من العلماء الاعلام الذين تركوا آثارا خالدة في الحياة العلمية والادبية والتربوية في هذا البلد العريق. فكانت الدروس التي تلقى في المساجد و(المدارس) وفي بيوت العلماء تجتذب اليها الطلاب من سائر الاصقاع، القريبة منها والبعيدة. ولا أراني مبالغا اذا قلت ان طرابلس (أزهر) الديار الشامية، حتى استغنى كثير من طلبة العلم عن (المجاورة) في أزهر الديار المصرية! مكتفين بما كانوا يتلقّونه من العلم، وما يلقونه من العلماء! ولو ذهبت الى ايراد اسمائهم لطال بي التعداد!

ولم تكن طرابلس مقصد الطلاب المسلمين فحسب، بل كان يؤمها الراغبون في التخصص بالفقه، والتبحّر فيه من مختلف الطوائف. وهذا الشيخ بشارة الخوري، جد رئيس جمهورية لبنان الأسبق، الملقب بفقيه لبنان ينتقل ورفيقا له يدعى الشماس حبيبا الخوري البتديني الى طرابلس (لإكمال التعلّم) على الشيخ محمد اعرابي الزيلع(١)، ونالا منه شهادة بإتقان هذا العلم.

من هؤلاء الاعلام من أقام، وأصدر الصحف والمجلات، وصنّف الكتب، وأسس المدارس، ومنهم من ظعن، كالشيخ عبد القادر المغربي الذي اصبح رئيس (المجمع العلمي العربي) في

دمشق، والشيخ رشيد رضا منشىء مجلة (المنار) في القاهرة، وفرح انطون صاحب مجلة (الجامعة) التي اصدرها في الاسكندرية أولاً ثم في نيويورك[٢].

ولقد قيّض الله لي ان اتعرّف عن كثب على احد هؤلاء العلماء وهو الاستاذ الجليل الشيخ جميل عبد القادر عدرة، استاذي في المدرسة، وشيخي في المسجد، حيث كان يلقي دروسه القيّمة في العقيدة والتفسير والحديث والفقه...

وأرى من حق الوفاء عليّ ان أبدأ (سلسلة علماء طرابلس في المائة السنة الماضية) بترجمته:

ــ ولد الشيخ جميل عدرة سنة ١٨٧٢، أبوه الشيخ عبد القادر ممن زهدوا في الدنيا ومباهجها، فانقطع الى العبادة والتأمل حقبة طويلة من الزمن، وأمه بهيجة عكاري عرفت بالتقوى والصلاح.

تلقى علومه الابتدائية في الكتّاب، على عادة الطلاب في ذلك العهد، ثم في المساجد، على كبار العلماء. والتحق بمدرسة (مشحة ــ عكار العالية)[٣] التي انشأها المحسن الكبير محمد باشا المحمد، وأهداها السلطان عبد الحميد الثاني مكتبة قيّمة. وكان من مشايخه فيها الشيخ محمد ابراهيم الحسيني والشيخ سعيد اليمني وغيرهما من جلة العلماء. ثم عاد الى طرابلس والتزم بدروس الشيخ امين عز الدين، وهو من كبار العلماء والادباء.

ولقد حدّثني من أثق بروايته ان شيخنا عرف منذ حداثته بالصدق والجرأة وحدّة الذكاء والصلابة بما يعتقد انه حق. وكان أشدّ ما يؤله ان يرى مجتمعه سادرا في جهالته، غافلا عمّا تتمخّض عنه دنيا العرب والاسلام من حركات اصلاحية وثورات تحريرية، وبالاخص كبرى هذه الحركات وأبعدها أثرا في تاريخ الاسلام الحديث (الوهابية). او ما كانت تبثّه الدولة العثمانية، الخاضعة كليا لقناصل الدول الاجنبية، وما قام به حاكم مصر الالباني الاصل، محمد علي باشا، بأمر من دولة «الخلافة» في الظاهر، ومن الدول الغربية في الواقع، اذ كان من خبث الغرب الاستعماري الحاقد، ومن جهالة هذا الشرق الجامد، ان يجعل الاول بأس المشرقيين فيما بينهم شديدا، يمدّهم بالسلاح ليحارب بهم كل اصلاح.

لقد اولع الشيخ بتتبّع سيرة الامام محمد بن عبد الوهاب، ودراسة مذهبه. ولما لم يجد في طرابلس ما يروي ظمأه، أمّ الحجاز عام ١٩٣٢ للمرة الثالثة، حاجّا ودارسا. وقد وفّق الى الاجتماع ببعض كبار العلماء، فكان له معهم، كما حدّثني، مناظرات ومساجلات، وعاد الى بلده متأثرا الى ابعد حدود التأثر بما رأى وسمع: رأى الأمن قد استتبّ بعد طول اختلال وانحلال. وسمع عن المذهب الجديد انه العودة الحق الى الدين الحنيف، والسلفية الصحيحة، وان الامام ابن عبد الوهاب مجتهد في مذهب الامام احمد بن حنبل، كما يقرره هو بنفسه[٤]. وما احوجنا نحن المسلمين، بل وما أحوج اتباع كل دين، الى العودة الى الينابيع الصافية لأديانهم، اذاً لما اصطرعت الاطماع، واصطخبت النُهُجُ! وهل جاء الاسلام الاّ لتحطيم الاوثان، واخلاص العبادة للواحد القهار؟

ولست ازعم ان شيخنا الجليل قد اعتنق الوهابية، كما قال البعض، بل كان له رأي في بعض الممارسات الصارمة، والاجراءات المتطرفة، التي ربما اقتضتها التصرفات المغرقة في التطرف التي كانت تقوم بها الدهماء بما يشبه العبادة لبعض الاحياء والاموات، بل وللشجر النابت على الاضرحة، والحجر!

اخذ شيخنا يبثّ في تلاميذه الكثر روح التحرر وحب البحث والتنقيب، ليطهروا افكارهم من جميع البدع والاساطير الموروثة، حتى يلتقطوا الحقيقة حيثما وجدوها، وحتى لا يرفضوا رأيا او اجتهادا له من الادلة العقلية او النقلية ما يؤيده.

هذا كان شأنه عندما عينته (نظارة المعارف) عام ١٩٢٠ معلما في المدرسة (السلطانية) (الجديدة الآن) وظل فيها حتى عام ١٩٣١ حين أقدمت وزارة اميل اده على الغاء التعليم الرسمي، ثم اعيد! ولكن شيخنا لم يعد، اذ آثر البقاء استاذا في (دار التربية والتعليم الاسلامية) وهو رئيسها! والتي ستصبح ثانوية عام ١٩٣٢، ويصبح استاذ الادب العربي فيها، وسينشأ فيها بعدُ (القسم الشرعي) وهو مجال

اختصاصه، فيتولى فيه تدريس العلوم الشرعية واللغوية، وظل فيها حتى توفاه الله عن تسعين عاما سنة ١٩٦٢ وقد رأى الكثير من طلابه وقد اصبحوا من نجوم المجتمع الطرابلسي واللبناني في السياسة والعلم والاقتصاد والمهن الحرة فرقد قرير العين في مثواه الأخير.

ولم يكتف شيخنا بالتدريس في المعاهد والمساجد، بل اتخذ من الصحافة منبرا جديدا للثقافة والوعظ والارشاد، فأصدر والعلامة الشيخ مصطفى وهيب البارودي مجلة (البيان) في ١٩١١/١٢/٢٣، ثم استقلّ بها بعد العدد السابع.

وقد صدر منها اربعة وعشرون جزءا، جمعت في مجلدين. وقد كتب في غلافها:


الجزء الاول * المجلد الاول

البيان

انشئت سنة ١٣٣٠ هـ

مجلة دينية عمرانية تاريخية ادبية

« لمنشئيها »

مصطفى وهيب البارودي * وجميل عبد القادر عدره

تصدر الآن مرة في الشهر

المدير المسئول * جميل عبد القادر عدره

قيمة الاشتراك عن سنة

في طرابلس الشام مجيدي واحد

في سائر البلاد العثمانية مجيدي وربع

في الاقطار الاجنبية فرنك ٧

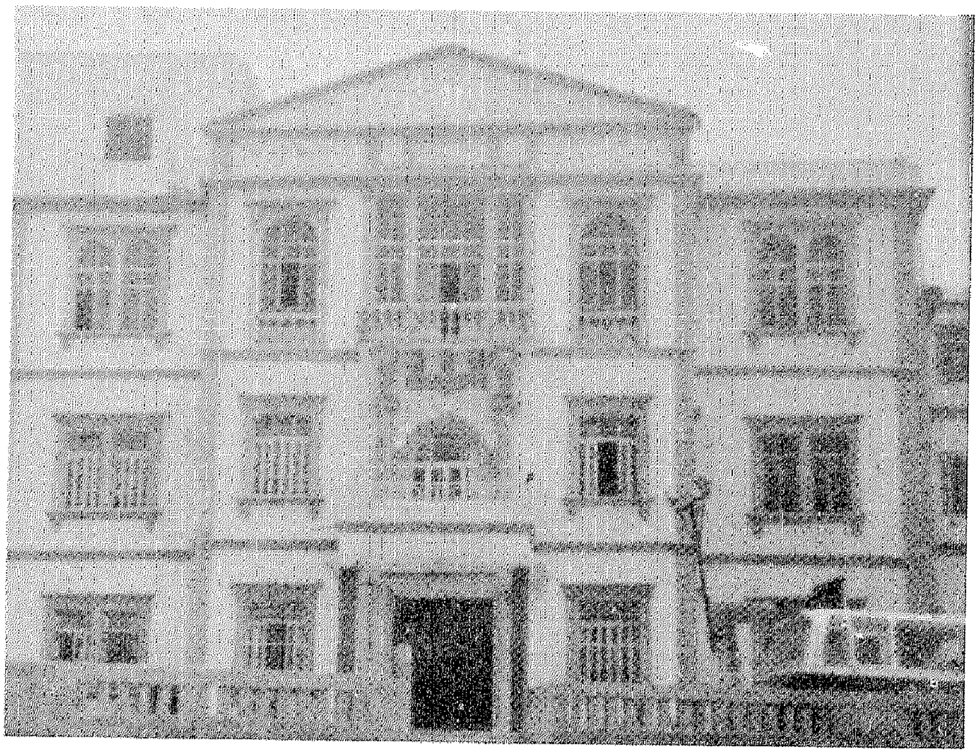
« من قبل العدد الاول يعد مشتركاً »

لانفضل ارجاع المجلة على قبولها استحياء

يجب ان تكون الرسائل بعنوان « ادارة مجلة البيان » (بطرابلس الشام)

وللادارة حق تنقيح الرسائل وتهذيبها

« طبعت بمطبعة البلاغة * بطرابلس الشام »



المبنى الرئيسي للجمعية الخيرية الاسلامية واسعاف المحتاجين التي تأسست عام ١٩٢٤

وفي (خطبة البيان وخطته) التي استغرقت ست صفحات من المجلة ذات الاثنتين والثلاثين صفحة، يقول «... اننا بعد التفويض الى الله فيما أراده، عزمنا على نشر هذه المجلة ندعو بها انفسنا وعباده بالحكمة والموعظة ونودعها من دينه آيات بينة ولسنا والحمد لله على غرة من حالنا فنفضل على اخواننا بأعمالنا ولكن رأينا اهل الارشاد يلقون ثقل هذه الدعوة على بعضهم ويوزعونها على مجموع أفرادهم في انحاء الارض ورأينا في قلوبنا شيئا من العلم وبضاعة مزجاة من الفهم والله تعالى توعد من كتم فضله بعذابه فقال سبحانه ﴿ويكتمون ما آتاهم الله من فضله واعتدنا للكافرين عذابا مهينا﴾ والنبي صلى الله عليه وسلم يقول «من كان عنده علم فلينشره» فشاركنا في نشرها من دعا للحق وسلك سبيل الصدق ومهما أفرغنا الجهد من انفسنا في انتقاء مايصل اليه علمنا لمباحثها فلا غنى لنا في هذا المشروع الذي بنفسه يدعو للتعاون عن اسعاف الفضلاء وانظار المصلحين الذين لا نعدم ارشادهم فيما هو الاولى والتفضل على اخوانهم بابحاثهم الفضلى...».

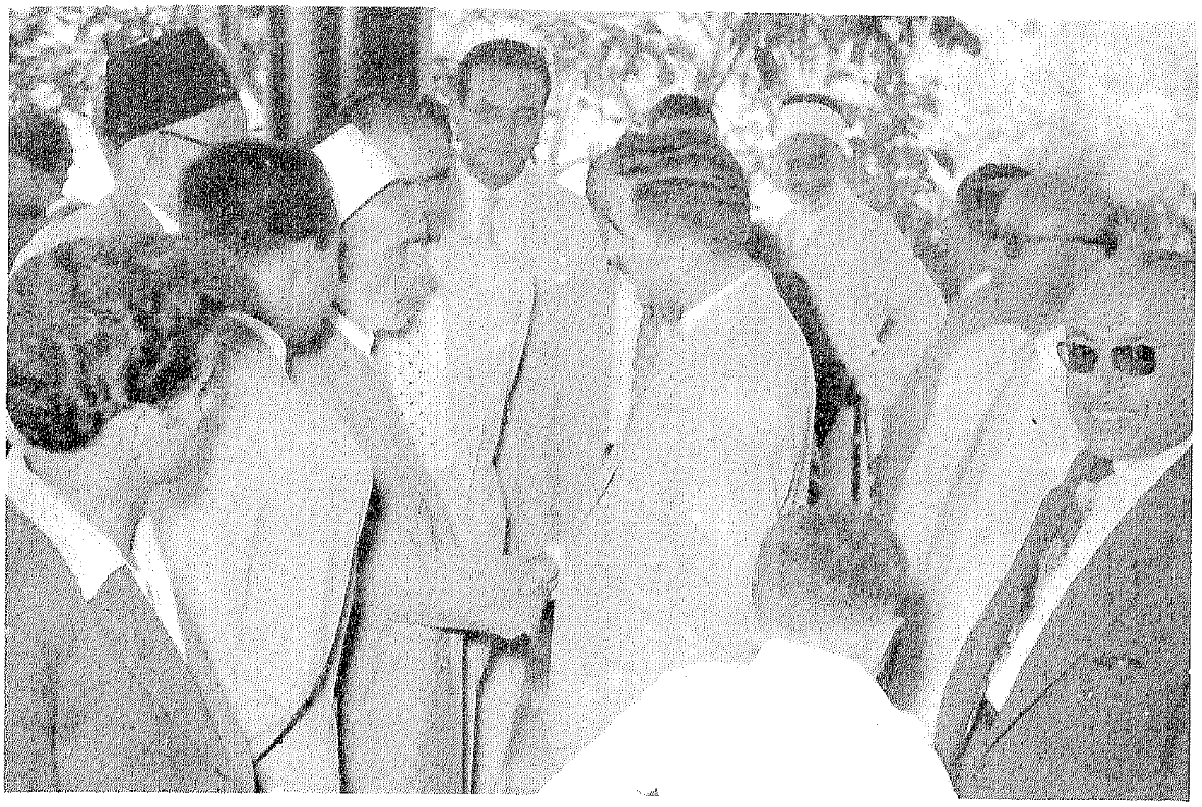
ثم يستطرد شيخنا الجليل فيوضح الأسس التي قامت عليهاالمجلة فيقول: «وقد وضعناها على اربع قواعد هي في الاجتماع من أهم المقاصد:

الاولى: في العلوم الدينية، وهي تشمل التفسير والحديث والعقائد والفقه والاخلاق والوعظ وعلم النفس، فنبحث فيها عن أصولها وفروعها وحكمها واسرارها التي من اجلها شرعت.

وثانيها: في العمران وأصوله التي من ضروريات الانسان.

وثالثها: التاريخ، ونأتي فيه على تراجم العظماء ومن لهم آثار في العالم، ففسد أو صح بهم أمر الأمم، «لا نفرق بين ذي دين او منّ بحكمته من السائرين، ونتكلم فيه على اخبار ما اشتهر من الاصقاع، وما لأهلها من غرائب الطباع. ونخص قسما منه بذكر الآثار وما يؤخذ منها في الاعتبار ندرجها تحت عنوان (عظة الآثار لذوي الافتكار).

ورابعها: في الادبيات، ونأتي منها بالشعر والنثر، وعزيز النوادر، بما ترتاح اليه النفس، ويصفو به الخاطر، ونورد فيها شيئا من نثر وشعر الماضي والحاضر، ليتمكن القارىء من تقابل الضمائر، ونخص هذا البحث بشيء من



في احدى المآدب التكريمية للرئيس رشيد كرامي في بلدة حصرون

اللغة لفضلها اذهان المستعجمين من اهلها على احيائها وترقي ابنائها، فانه لا غيرة لقوم الا بفضل لغتهم ونشرها. ولو لم تكن الا لغة القرآن لكفاها ذلك في وجوب الاهتمام.

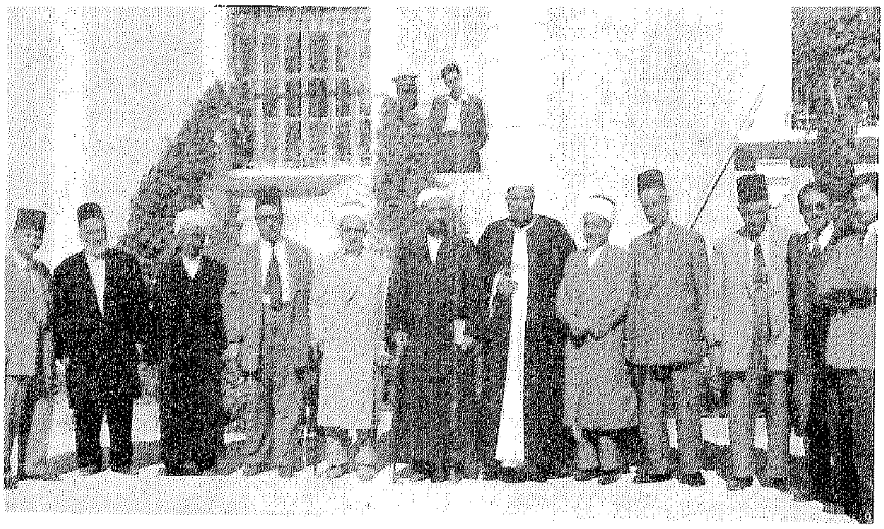
وله سلسلة مقالات بعنوان (درس عام) يفتتح بها كل عدد. وقد اتبع طريقة الحوار بين (الشيخ) وتلاميذه، يبث فيه باسلوب حي ممتع ما وسعه المقام، من تفسير وحديث وحكم وأمثال ونوادر.

ويظهر الشيخ في هذا الحوار واسع المعرفة، متحرر الفكر، لا يجد غضاضة في نشر ما يخالف رأيه، كما فعل بايراد (خطبة الامام الشيخ محمد عبده في الربا) والذي يدعو فيه (أولي الامر من المسلمين وهم كبار العلماء المدرسين، والقضاة، ورجال الشورى، والمهندسون، وكبار المزارعين، والتجار ليتشاوروا فيما بينهم في المسألة (مسألة فوائد الاموال المودعة في المصارف)، ثم يكون العمل بما يقدرون انه مست اليه الضرورة والجأت اليه الحاجة) (انتهى عن المنار)[٥]. وكذلك نشر ابياتا لعمر الخيام من ترجمة وديع البستاني، يقول فيها:

عدم آخر الوجود فصاح
هات راحا اغدو بها غير صاح
وأدرها ريحانة الارواح[٦]

وهو، على الرغم من اشتغاله بالعربية وآدابها، لم يجد حرجا من نشر مقالات[٧] وطرف باللهجة العامية!

أراني اكثرت من الشواهد على انفتاحه على مختلف المذاهب والآراء والناس، وذلك لأن هناك من لا يفرّق ما بين التدين العميق والتعصب الذميم. وأحب ان اضيف ما كتب في الجزء السادس من المجلد الاول ص ١٨٠: «والديانات نظامات روحية عالية تتضاءل عندها عقول البشر فتخنع لها عواطفهم ومشاعرهم. فمن فقه اسرارها وعرف اصولها وادرك الغاية منها علم ان الدين واحد. قال الله تعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾.



ذكرى تشريف حضرة صاحب السعادة السيد محمد صادق باشا المجددي الوزير المفوض لدولة افغان الجليلة بزيارته الكريمة لكلية التربية والتعليم وملجأ الايتام الاسلامي بطرابلس (لبنان). بتاريخ ١٨ من محرم الحرام ١٣٧١ الموافق لـ ١٨ تشرين الاول ١٩٥١

وفي مخطوطة لدينا بقلم الشيخ: «الدين الاسلامي الحقيقي ليس عدو الإلفة ولا حرب المحبة، ولا يحرم المسلمين من الانتفاع بعمل من يشاركهم في المصلحة، وان اختلف عنهم في الدين». الى ان يقول: «وقد ارشدتنا التجربة الى ان كل عارف بحقيقة الدين الاسلامي كان اوسع نظرا في الامور، واطهر قلبا من التعصب الجاهلي، واقرب الى الالفة مع ابناء الملل المختلفة، وأسبق الناس الى ترقية المعاملة بين البشر. وانما يبعد المسلم عن غيره جهله بحقيقة دينه. وهذه آيات القرآن شاهدة على ما نقوله، اللهم لمن يفهمها كما جاءت، ويعرف معناها كما وردت. القرآن، وهو منبع الدين، يقارب بين المسلمين وأهل الكتاب حتى يظن المتأمل فيه انهم منهم، لايختلفون عنهم الا في بعض احكام قليلة. ولكن عرض على الدين زوائد ادخلها عليه اعداؤه اللابسون ثياب احبائه، فأفسدوا قلوب أهاليه».

ولم يقتصر نشاط الشيخ على التربية والتعليم وانشاء المجلات، بل تعداها الى الجمعيات الخيرية والعلمية والاجتماعية، فانتسب منذ مطلع شبابه الى الجمعية الخيرية الاسلامية التي كان يرأسها العلامة الشيخ علي رشيد الميقاتي بأمر من مدحت باشا، والي سوريا(٨). وفي العام ١٩٢١ تنادى ونفرا من كرام العاملين معه، ممن عرفوا بالغيرة والحمية، وفي طليعتهم المرحوم الحاج رفيق الفتال، لتأسيس (جمعية اسعاف المحتاجين وملجأ الايتام الاسلامي) فكان هو رئيسها. ولن أطيل الحديث عنها، فلهذا مبحث خاص، او اكثر، واكتفي بذكر اهم تحول حصل في تاريخها: «فقد قررت الجمعية الخيرية الاسلامية في ٢٧ مايس/ ايار ١٩٣٠ التنازل عن ادارة شؤونها وتسليم ادارتها واموالها المنقولة وغير المنقولة لجمعية اسعاف المحتاجين والملجأ الاسلامي»(٩)، فولدت (الجمعية الخيرية الاسلامية واسعاف المحتاجين) التي ستكون أبرز حدث في تاريخ طرابلس العلمي والاجتماعي في هذا القرن العشرين.

هذا غيض من فيض ما طفحت به تلك النفس البشرية، نفس العلامة الشيخ جميل عدرة التي أبت عليه الاستكانة عن تأدية الواجب في سبيل الخير العام حتى آخر رمق من عمره الطويل. ■

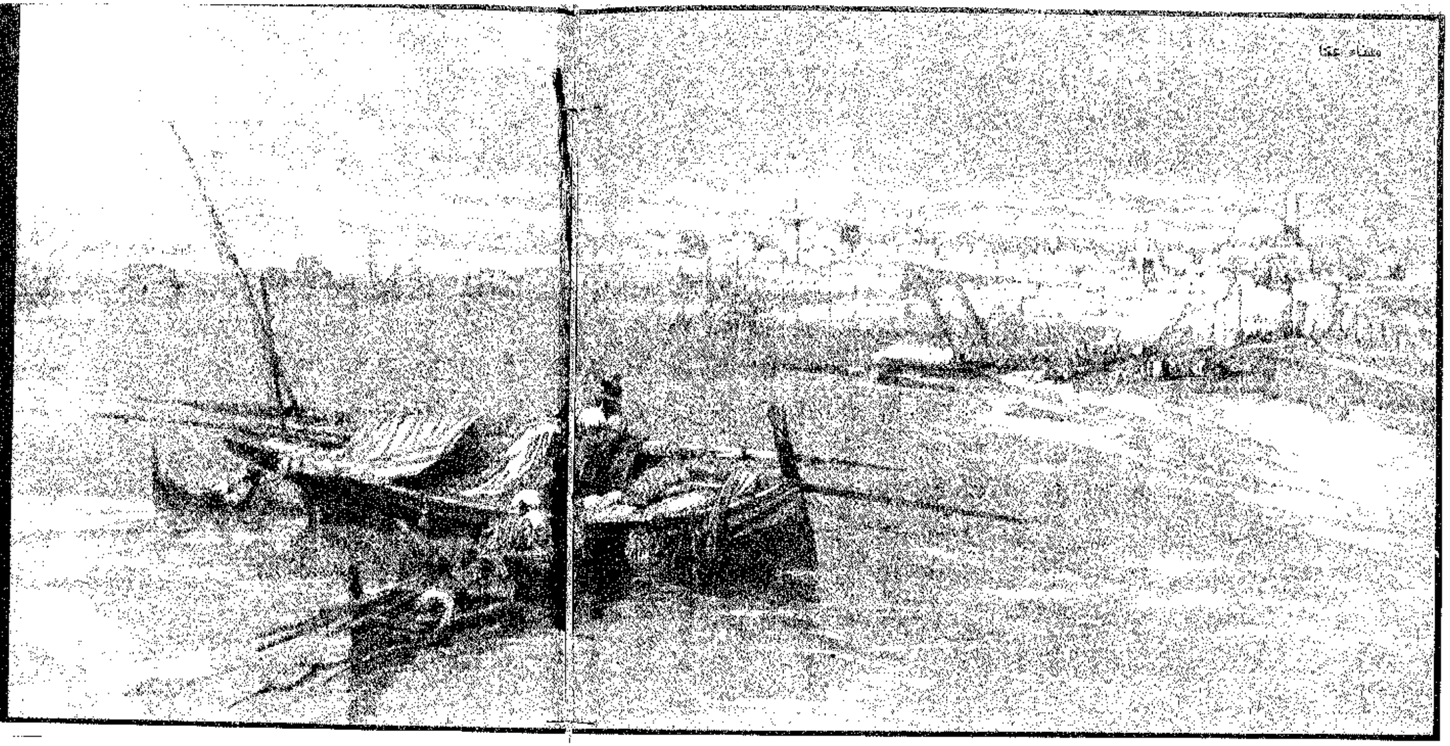
الهوامش

(١) الشيخ بشارة الخوري ــ للحد خاطر ــ ص ٨٤.
(٢) كتاب (فرح انطون) ــ اصدار مكتبة صادر ص ٨.
(٣) من مخطوطة لدينا بقلم الشيخ محمد كامل البابا.
(٤) سيرة الامام الشيخ محمد بن عبد الوهاب لأمين السعيد ــ ص ٦٧.
(٥) مجلة البيان الجزء السادس من المجلد الاول ــ ص ١٨٤ وما يليها.
(٦) مجلة البيان الجزء الثاني عشر من المجلد الاول ــ ص ٣٨١.
(٧) مجلة البيان الجزء السادس من المجلد الثاني ــ ص ١٧٧.
(٨) كتاب (طرابلس) لنور الدين الميقاتي ــ ص ٨٧.
(٩) من محفوظات (دار التربية والتعليم الاسلامية).

الجزّار والفرنسيّون عام ١٧٨٩

د. محمّد نور الدّين

معركة محميّة على الطريقة الشرقيّة



ميناء عكا

فرنسا هي احدى الدول الأولى التي مُنحت امتيازات في الأمبراطورية العثمانية. وبموجب اتفاقية ١٥٣٥ بين السلطان سليمان القانوني والملك فرنسوا الأول، أنشئت، عام ١٥٤٤ أول قنصلية فرنسية في سوريا. في البداية لم يكن مركز القنصل الفرنسي ثابتاً في مكان واحد، بل كان يتنقّل باستمرار بين حلب وطرابلس. مع تنامي واتساع المصالح التجارية الفرنسية في سوريا، صارت حلب في مطلع القرن السابع عشر قنصلية مستقلة واعتبرت طرابلس فرعا قنصليا تطال مسؤولياته منطقتي الاسكندرونة وصيدا التي تحوّلت بدورها، عام ١٦١٥، الى قنصلية مستقلة. استدعى تطور العلاقات التجارية بين سوريا وفرنسا في أواخر القرن السابع عشر وخلال القرن الثامن عشر الى افتتاح فروع قنصلية جديدة في كل من الاسكندرونة (١٦٧٤)، الرامة (١٧٠١)، عكا (١٧٢٣)، يافا (١٧٧٦) واللاذقية (١٧٧٩). بعد القضاء على المتاولة في جبل عامل عام ١٧٨٢ وما تلاه من ازدهار تجاري فرنسي، ومع استقرار احمد باشا الجزار والي صيدا في عاصمته الجديدة عكا، تحوّل الفرع القنصلي في الاخيرة الى قنصلية مستقلة وعيّن رينودو أول قنصل فرنسي فيها.

خلال القرن الثامن عشر، كان القسم الأكبر من التجارة السورية في أيدٍ فرنسية، مع وجود محدود لبعض التجار البنادقة والانكليز والنمساوية والروس. وكانت عمليات التبادل التجاري تتم بشكل رئيسي مع المراكز الفرنسية وبالذات مرسيليا، يليها مراكز البندقية وليفورنو وجنوى.

كانت سوريا تشكل مصدرا هاما لاغتناء الفرنسيين الذين كانوا انفسهم يقولون عنها: انها تنتج كثيرا من الثروات. فمن سوريا كان يصدّر (أساسا الى مرسيليا): الاقمشة، الفواكه، الحرير البيروتي، الرماد (من بيروت). الحرير

■ د. محمد نور الدين دكتوراه في التاريخ من بلغاريا.

وخيـوط القطن ((من صيـدا). التبغ، الرمـاد والحنطة (من صـور). القطن، الصوف، الحرير، القمح، الشوفان، الزيوت الرمـاد والنيلة (من عكا). خيوط القطن الأورشليمية، الرماد والزيوت والقمح (من يافا). وفي المقابـل كانت سـوريا تستورد الاجواخ والحرير والبهارات والتوابـل والاسلحة وغيرها من السلع الكمالية المستهلكة بشكل أساسي من الطبقة الاقطاعية المحلية.

كان لتطور بعض الاحداث السياسية خلال سبعينات القرن الثامن عشر مثل القضاء على ضـاهر العمـر وإخضـاع الدروز والاستقـرار النسبي لحكم احمد باشا الجزار، ان توطدت وازدهرت الحركة التجارية في المناطق الواقعـة تحت حكم الجزار ولا سيما الشريط الساحلي من طرابلس حتى فلسطين الجنوبية. ووجد هذا اثره على صعيد واردات وصادرات فرنسا الى سوريا. ففي حين كانت صادرات فرنسا تتجاوز وارداتها فإن تبدلا ملحوظا حصل في المعادلة لصالح الواردات عام ١٧٨٠، نتيجـة للعلاقـة الجيـدة مع الجـزار، كمـا يـؤكـد القنـاصلة الفرنسيون انفسهم في تقاريرهم.

صـادرات صيدا ووارداتهـا في أواخر العقـد السابع
ومطلع العقد الثامن من القرن الثامن عشر

السنة	الصادرات (بالليرات الفرنسية)	الواردات (بالليرات الفرنسية)
١٧٧٦	١٤١١١٤٣	١٦٨٤٧٦٣
١٧٧٧	١٢٨٥٣٤٧	١٥٦٤٩٦٦
١٧٧٨	٧٩٤٣٥٠	٨٧٩٤٤٤
١٧٧٩	٣٩٣٩١٨	٢٤٣٩٧٩
١٧٨٠	١٤٣٥٢٥٥	١٠٧٣٥٣٥
١٧٨١	١٧٥٠٣٠٩	١٦٨٧٦٦٠
١٧٨٢	٨٢٦٦٩٧	١٠٢٥٧٩٥
١٧٨٤	١٤٢٧٧٥٤	١٢١٥٥٨٠

ونفس المـلاحـظات تنسحب عـلى تجـارة الفرنسيين مع طرابلس التي كانت تقـع تحت نفوذ الجزار والتي كانت لها الطبيعة التالية:

احمد باشا الجزّار



السنة	الصادرات	الواردات
١٧٨٥	٣٦٦٨٥٨	٢١٩٤٧٧
١٧٨٦	٥٢٨٧٦٢	١٨١١٨٢
١٧٨٧	٥٧١٩٢١	١٤٣١٢٣
١٧٨٨	٢٧٠١٥٠	٤١٤٩٧٢
١٧٨٩	٣٠٧٣٣٢	٣٨٧٧١٨
١٧٩٠	٥٢٣٣٠٢	٣٦٣٦٨٤
١٧٩١	٣٤٠٩٤٠	٣٤٠٣٧٧

نلاحظ، من الجدول، أن الصادرات خلال ١٧٨٨ كانت اقل بكثير من الواردات، والسبب في ذلك عائد الى الغلاء الكبير الذي انتشر هذه السنة والذي دفع بمشتري القطن الى التحول نحو صيدا وعكا.

لم تكن سوريا حجرا اساسيا في تجارة فرنسا بالنسبة لمناطق الشرق الاوسط بفقط بل كانت كذلك بالمقارنة مع سائر المراكز العثمانية في انحاء الامبراطورية وهذا يتضح من خلال الجدول التالي العائد للعام ١٧٨٧.

تجارة الليفانت مع مرسيليا (خلال ١٩٨٧)

المدينة	الصادرات (بالليرات الفرنسية)	الواردات (بالليرات الفرنسية)
استنابول	٢٨٥٤٨٢٠	٤٣٥٩١٠٧
سميرنة	١٥٢٤٠١٥٩	٦١٢٤٢٦٠
الاسكندرونة	٣٧٩٨٩٩٢	١٤٨٥٩٩٤
الاسكندرية	٢٨١٨٤٧٢	١٣٥٨٩١
سالونيك	٢٤٣٢٢٨٥	١٤٤٥١٨٢
صيدا، عكار وطرابلس	٥٧٤٢٨٦ (من صيدا وعكا)	٨٨٢٦٦٢
--	٧٧٧٠٦٢ (من طرابلس)	—
قبرص	٩٥٣٤٠٩	١٠٤٢٧٥
المورة	١٤٠٥٠٢٨	٢١٣٢٨٨
كانية	٥٣١٩٤٧	٤٠١٣٠
الجزائر	٥٠١٨٧١	٣٤٥٩٨١
تونس	٥١١٤٠١٢	٧٤٢٥٢٣
طرابلس الغرب	٤٦٥٥١	١٠٤٢٠
كارافان	—	٣١٤٠٠
المجموع	**٣٧٠٤٨٩٩٤**	**١٦٦٥٨١٣**

قبل العام ١٧٨٩ كانت تجارة سوريا تشكل ١/٥ صادرات و ١/٥ واردات فرنسا (من بلاد الليفانت. وهذا ما نستطيع تبينه من الجدول التالي:

البلد	الصادرات (بملايين القروش الزكية)	الواردات
سميرنة	٩	٧
استانبول	١	٣
سالونيك	٣ ½	٣
المورة	١	½
كريت	١	½
قبرص	١	½
حلب	٣	٢
المناطق الاخرى من سوريا	٢ ½	٢
مصر	٣ ½	٢ ½
المجموع	**٢٥ ½**	**٢١**

هكـذا كانت طبيعـة العـلاقـات التجـاريـة الفرنسية ــ السورية حتى العـام ١٧٨٩، وهو العام الذي شهد أكبـر ضربـة تتلقاهـا هذه العـلاقات منـذ تغلغل التجـارة الفرنسيـة في الشرق. وهي علاقات كـانت تجعل الفـرنسيين بمنـأى عن القيـام بـأيـة خـطوات طائشـة أو مغامرات تعرّضها لخسارة ما أو حتى القضاء عليها.

منذ أن صار واليا على صيدا عام ١٧٧٥ واحمد باشا الجزار ينهج سياسة ثابتة في تعزيز سلطته على حساب كل القوى المحيطة به، بما فيها الباب العالي احيانا. فشـارك في القضاء على ضاهر العمر واولاده. ونجح في جعل امير الجبل اللبناني الدرزي اداة طيعة بين يـديه. وأباد المتاولة في بـلاد بشارة. وعلى كل هذه الاعمال كوفىء عام ١٧٨٥ بولاية دمشق، باسطا نفوذه على معظم اجزاء سوريا (بلاد الشام)، بـاستثنـاء ولاية حلب التي لم تغب عن بـاله.

ولتطبيق هذه السياسة «التوسعية» فرض الجزار الضرائب الخيالية وجباها بأسـاليب غايـة في الوحشيـة، مشبعـا ببعضهـا شهـوات بـلاط استـانبول، ووزع بـطشه عـلى الجميـع دون استثنـاء من مختلف الطبقـات الاجتمـاعيـة والدينية بمن فيهم الجاليات الاجنبية في سوريا والفرنسيون بشكل خاص.

لاحظ الجزار الارباح الضخمة التي يراكمها الفرنسيون، لا سيما من تجارة القطن، فرغب بدءاً من اواسط الثمانينات من القرن الثاني عشر في فرض احتكاره على هذه التجارة بأن يكون هو الوحيد الذي له الحق ببيع المنتجات للفرنسيين. ولما كان القطن والحنطة اساس التجارة مع عكا ادى احتكار تجارة هذين النتاجـين الى خلق صعوبات كبيـرة للتجار الفـرنسيين. فـواجهوا الجزار بالامتيازات التي منحوها من السلطان. إلا ان الجزار اجابهم بأنه هو السلطان الوحيد في مقاطعاته. هذه الطبيعة النادرة لهذا الباشا يعبر عنها بشكل بليغ احدهم ويدعى سـانت بـرست الذي يكتب عام ١٧٨٣ الى القنصـل الفـرنسي في عكـا رينـودو: «اتمنى لك كـل الشجاعة الضرورية للعيش مع الجزار. اعتمـد في حساباتك على فطنتك فقط ولا تنتظر مني أي عون ضده». ورغم ذلك فقد حافظت العلاقة بين الجزار والفرنسيين على استقرار وجودة نسبيين حتى عام ١٧٨٩.



الكونت دو شوا سّول ــ كوفييه،
سفير فرنسا في القسطنطينية

في هـذا العـام سحق الجـزّار، عـلى غـير ما توقع، انتفاضة مماليكه التي شارك فيها كل اعداء الجزار من قوى محلية وخارجية. بعـد إخفـاق الانتفاضـة شن الجزار حملة انتقـام واسعة ضد كل من شارك في الانتفاضة ومن بينهم... فرنسيون، والسبب في ذلك اكتشـاف الجزار ان ثمة دورا لهم في الانتفاضة. فقـد وقعت في يد الجزار رسالة لقائـد الانتفاضـة سليم الصغير موجهة للقنصل الفرنسي في صيدا دي بوسيه وفيها يطالب سليم بـالوديعة التي كان اودعها عند القنصل اثناء توجهه من صيدا الى عكا في بداية الانتفاضة والتي كانت تعادل ١٩ كيسا. هذه الحادثة كانت كافية لزرع الشك عند الجزار في علاقة الفرنسيين باعدائه، يضاف اليها ما اشيع عن تقديم الجالية الفرنسية في صيدا مبلغ ١٥٠٠ قرش لقائد الانتفاضة.

حسب تقارير القناصل الفرنسيين! فإن نهاية الجـزار كانت حتميـة بعد تـأييد كـل البلاد للمنتفضـين. ورأى الفرنسيـون في الانتفاضـة فرصة للتخلّص من منافسة الجزار ومساعـديه

الاخوين سكروج لتجارتهم. فدعموا الانتفاضة وامدوا سليما والامير يوسف بالمال وخلافه. إلا ان حسابات الفرنسيين انقلبت رأسا على عقب اثر الانتصار المفاجىء وغير المتوقع على الاطلاق للجزار. وليس صدفة ان يعلّق رينودو بتاريخ ٢ آب ١٧٨٩: «لقد تشتت المنتفضون عن عكا كالاعجوبة».

احتكر الجزار تجارة المناطق التي يحكمها وبدأ يبيع المنتجات للتجار المحليين. الا انه، على حد قول دي بوسيه بتاريخ ٣١ كانون اول ١٧٨٩، «عندما يكون المحصول وافرا تبقى شراءاتنا هي نفسها» بل ان متسلم صيدا وافق على طلب الفرنسيين بمنع النسّاجين من شراء القطن ذي النوع الجيد، وذلك حتى يبقى للفرنسيين. الا ان كل ذلك كان يسبق العاصفة.

قام الجزار بجمع كل المستدينين من التجار الفرنسيين وادانهم بتهمة الاشتراك بالانتفاضة وصادر كل ممتلكاتهم. هذه الخطوة كان المقصود بها التجار الفرنسيون الذين لن يستطيعوا بعد الآن استعادة اموالهم من المصادرين. واحسّ الفرنسيون بخيط الشؤم الذي يطول. وفضل البعض منهم اتقاء الاسوأ بان غادر صيدا وعكا. ويكتب رينودو بانفعال وقلق انه لكي يعود السلام والامن والازدهار للتجارة الفرنسية ولسوريا ولكي تزداد الفوائد والارباح فيجب ألا يوجد الجزار. ويردف رينودو بانه من غير الممكن وصف الفائدة التي ستعود على سوريا وكل السكان فيما لو حدث ذلك فعلا، اي ازالة الجزار. وهكذا فيما كان بعض الفرنسيين يفضل المغادرة كانت تقارير الآخرين تدعو الى مواجهة الوالي البشناقي وخلعه بشتى الطرق. غير ان الاوضاع الداخلية في سوريا وفي فرنسا نفسها كانت غير قادرة لتحويل الرغبات الى افعال. فالباب العالي مشغول بمعارك وحروب على جبهة روسيا والنمسا ولا يريد مزيدا من القلاقل على الجبهات الاخرى. وفرنسا كانت تغلي بعد قيام الثورة والاهتمام منصب على تسوية الاوضاع الداخلية فيها.

امام هذه الظروف. يواصل الجزار حملته على الفرنسيين فيرسل، يوم ٢٥ ايلول، احد كتبته الى القنصل الفرنسي في عكا ويبلغه بان الجزار سيذبحه اذا لم يرحل حالا. وفي نفس الوقت يمنع الجزار بيع العفص للفرنسيين تحت طائلة الموت، ويبلغ القنصل بان الجالية الفرنسية في عكا لن تتلقى من اليوم اية اونصة قطن ولن يكون لها الحق باستئجار اي مركب.

وبعد عدة ايام يعود كاتب الجزار من جديد ويحذّر القنصل من البقاء في عكا لاكثر من اسبوع. يدرك القنصل انه لا مفر من اتخاذ قرار حاسم، فيجمع من تبقّى من مواطنيه في الخان ويستعرض لهم الحالة الصعبة التي يمرون فيها والحاجة لمغادرة عكا. وفعلا في الصباح الباكر من السادس من تشرين اول ١٧٩٠ يترك رينودو عكا ويتوجه الى يافا. ويبادر الجزار الى الاستيلاء على ممتلكاته وبتاريخ ١٧

لويس السادس عشر مع ماري انطوانيت..
الصورة من تصوير «اوغست بروم»



تشـرين اول يُبلغ يوسف القـرداحي سكرتـير الجزار الفرنسيين في صيدا وعكا بوجوب مغادرة البلد في اسرع وقت ويهدّدهم بالموت. وبسبب ضيق الوقت فقد اضطر فرنسيو عكا لتحميل بعض اغـراضهم وبضائعهم عـلى متن احـد المراكب ويوم ٢٧ تشرين اول سافروا بالبحر الى يافا وكان عددهم ١٨ شخصا. في مساء نفس اليوم كان فرنسيو صيدا يتوجهون الى طرابلس وكان عددهم ٢٧ شخصا من بينهم دي بوسية ولم يتبق في المناطق التي يسيطر عليها الجزار اي فرنسي.

طرد الفرنسيين من عكا وصيدا كان صدمة كبيرة للدوائر الفرنسية نظرا لما تمثله سوريا وبالذات، صيدا وعكا، من اهمية لتجارة فرنسا الخارجية، خاصة وان الفرنسيين علقـوا امالا كبيرة على المحصول الطيب لسوريا خلال العام ١٧٨٩ وذلك لتعويض المواسم السيئة للسنوات الاربعة السابقة.

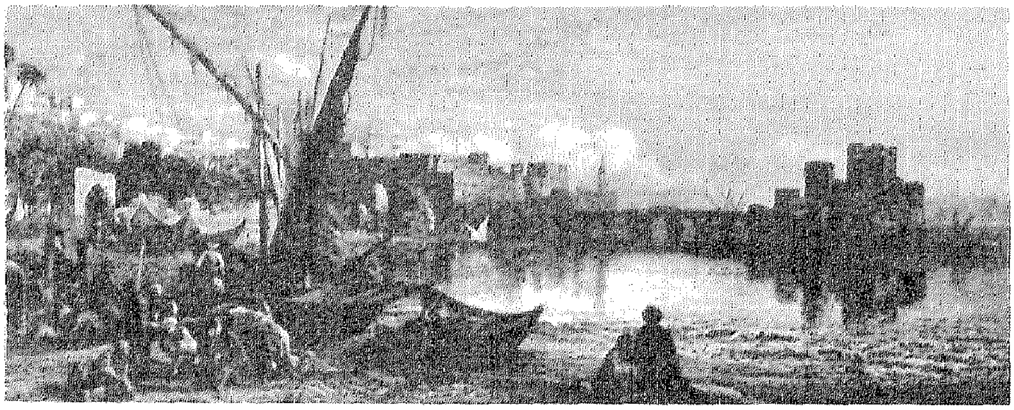
كانت الظروف الداخلية لفرنسا بعد الثورة تحول دون التحرّك خارج القنوات الدبلوماسية لمعالجة «قضيـة الجزار» وانقاذ ما يمكن انقاذه من مصالح فرنسا في سوريا. فيلتقـي السفير الفرنسي في استانبـول شوازيـل بوفييـة وزير خارجية تركيا ريّس افندي ويكتبان خلال كانون الاول ١٧٩٠ رسالة قاسية الى الجزار يدعوانه فيها للتعامل على نحـو جيد مـع الفرنسيـين. وشوازيل نفسه يكتب رسالة شخصيـة للجزار ولكن دون نتيجة.

عدم نجاح الاتصالات الديبلوماسية الاولية، استـدعى انعقـاد المجلس الوزاري الفـرنسي برئاسة لويس السادس عشر حيث تُلي بتاريخ ١٦ كانون الثاني ١٧٩١ تقرير مفصّل عن حالة المراكز الفرنسية في سوريا، وتقرر رفع احتجاج للبـاب العالي عـلى الخـرق الذي تعـرضت له الامتيازات الفرنسية. وطالبوا بمعاقبة الجزار... رغم انهم كـانوا لا ينتـظرون نتائـج سريعـة او ايجـابيـة. فعـدا عـن انشغـال السلطنـة بحروبها مع روسيا والنمسا، فان قوة الجزار، في الظروف المحيطة بالامبراطورية آنذاك، كانت تمكنه من مقاومة اية قوة بما فيها اوامر الباب العـالي نفسه. يضـاف الى ذلك ان الخطوات الاولى للثورة الفرنسية بشعاراتها ذات المضامين التقدمية، كانت تولّد في استانبول المخاوف من ان ما يحدث في باريس بقدر ما هو غير واضح للاتراك بمقدار ما هو معادٍ للاسلام. لذا كانت مسألة اعادة الفرنسيين او ازالة الجزار ضربا من المستحيل. الا ان ذلك لم يمنع من معاودة فتح المسألة بعد فترة.

فخـلال كـانـون الثـاني ١٧٩٢، ونتيجـة للصداقة الشخصية بين شوازيل بـوفييه وريّس افندي يصدر خط شريف ارسل الى الجزار مع موفد للباب العالي يدعى امين افندي وفيه يُدعى الجزار الى اعادة الفرنسيين المطرودين. الا ان الجزار بقي عند رفضه مبلغا الباب العالي عبر رسوله اسبابا مغايرة كلية للأسباب الحقيقة وهي انه «طُعن في شرفـه ودينه نتيجـة لمضاجعـة التجار الفرنسيين لحريمه» وبتاريخ ١٢ شباط ١٧٩٢ يمزّق الجزار العلم الفرنسي الموجود على قنصلية عكا ويعطيه بعـد ذلك للجمهور الذي يحرقه.

كان لتدخل مفتي الامبراطورية شخصيا في المسألة دليلا على اهميتها وخـطورتها. الا ان الجـزار لم يتـراجـع في مـوقفـه عن مسـألة المـطرودين ووافق اخيرا عـلى قبـول غيـرهم. الا ان تطور الاحداث في داخل فرنسا اوقف البحث في المسألة كلية.

لا شك بان طرد الفرنسيين يعتبـر ضربـة ناجحة للجزار، ليس فقط في انعكاساتهـا على خصومه الفرنسيين، بل وفي علاقته، كحاكم له طموحاته، بالسلطة المركزية في استانبول. فقد استغل الجزار انشغالات السلطنة الحربية في اوروبا. ليضغط عـلى ولاية دمشق، وبمـوجب «قانون» قطع الطريق على عصيـانات الـولادة الاقوياء بإعطائهم ولايات جديدة تضم الى ولاياتهم السابقة، عين السلطان في ٥ حزيـران ١٧٩١ الجزار واليا من جديد على دمشق. هذا التعيين يمكن ان نعتبره مكافأة على طرد الفرنسيين. ذلك ان الباب العالي، رغم المسـاعي الرسمية والشخصية لبعض رجالاته، كان يتـوجس من انعكاسات الثورة الفرنسية ليس على اوروبـا فقط بل وعلى وضع السلطنة وبالنتيجة على... الاسلام.



ميناء صيدا

من جهة اخرى، فان طرد الفرنسيين يمثل نقطة بالغة الاهمية من «الجانب الحقوقي» التنفيذي للامتيازات المعطاة لفرنسا ولغيرها من الدول ضمن الاراضي العثمانية. ضربة الجزار هذه تتناقض مع اتفاقية ١٧٤٠ بين فرنسا والباب العالي والتي لا يحق بموجبها للباشوات والقضاة والقادة العسكريين التعرض لنشاط القناصل الفرنسيين، وقد اظهر الجزار بذلك ان استمرار الامتيازات رهن بموافقة الطرف الذي اعطى هذه الامتيازات وهو... الدولة العثمانية. وان اي إلغاء لها لا يفترض اية عواقب من جانب الدولة الممنوحة، بل إن ذلك «حق» تلقائي للذي منحها. وهذا ما «تنبّهت» له الدول الغربية فيما بعد، حيث وجدت ان افضل طريقة لضمان استمرار هذه الامتيازات وديمومتها هو حمايتها عن طريق الغزو العسكري المباشر، والذي مثّلت الحملة النابليونية، بعد اقل من عشر سنين على طرد الفرنسيين من سوريا، طلائعه الاولى، وما ترتّب على هذا الطور الجديد من العلاقة بين الشرق والغرب من آثار هامة على المسألة الشرقية والشعوب ذات العلاقة المباشرة بها.

خسارة فرنسا لاثنين من اهم مراكزها التجارية في سوريا وبلاد الليڤانت كان في صالح التجار من الجنسيات الاخرى ولا سيما البنادقة الذين منحهم الجزار امتيازات وتسهيلات ساهمت في ازدياد عددهم في عكا وبعض المدن الاخرى. وقد جنوا من ذلك ارباحا كثيرة وكانوا يقرضون الحكام بمن فيهم الجزار نفسه. الا ان هذا الازدهار بقي محدودا ولم يصل في اية حال من الاحوال الى ما كانت عليه من قبل التجارة الفرنسية في كل من صيدا وعكا.

تجدر الاشارة، اخيرا، الى ما اثاره البعض من ان حركة الجزار ضد الفرنسيين كان باعثها مصلحة التجار المحلية، اي انها كانت بدافع «وطني». لا شك بان غياب الفرنسيين انعش قسما من التجار المحليين ذوي العلاقة المباشرة ببعض الزراعات الرئيسية في منطقتي صيدا وفلسطين. الا ان خطوة الجزار تبقى في منحاها الاساسي، باعثا ومسرى ونتيجة، اسيرة الخصوصية الاقطاعية العثمانية وصراع القوى الاقطاعية المحلية في سوريا والاتجاهات «الاستقلال ذاتية» (ان لم نقل الانفصالية) للعديد من الباشوات الاقوياء. ورغم انه لا يمكن تأكيد او نفي وجود نوايا انفصالية او استقلالية عند حاكم عكا القوي الا ان معظم تصرفات الجزار منذ ظهوره لاول مرة على المسرح السياسي بشكل بارز اثناء حصار بيروت الشهير عام ١٧٧٢ وحتى عشية الصدام مع الفرنسيين، كانت تنزع الى الحد الاقصى من «استقلالية القرار». هذه الاستقلالية لم تكن تعني التناقض مع النظام المركزي العثماني، بقدر ما كانت تعبيراً عن ان الجزار هو احد الاعمدة الرئيسية في هذا النظام. وضربته للفرنسيين كانت اشبه بماركة محمية على طريقة «شرقية» نموذجية. ■

بعض مصادر ومراجع الدراسة

(١) Documents Diplomatiques et Relatifs à L'histoire Du Liban et Des Pays du Proche-Orient au XVII èmes à nos Jours, 21 Volumes. Adel Ismail. Beyrouth 1975-1981.

(٢) Les échelles de Syrie et de Palestine au XVIII èmes. François Charles-Doux. Paris, 1954.

أدباء من لبنان

الكامدي

د. أسامة عانوتي

الكامدي[1] نسبة الى «كامد اللوز» في البقاع بلبنان. اما اسمه فعبد السلام بن محمد بن علي بن محمد، وقد تصحّفت نسبته، أحياناً، فنبّه المرادي[2] على أنها «الكامدي» بالدال، لا «الكاملي» باللام. ولكن ولادته كانت في دمشق بعد سنة ١٠٨٠هـ/١٦٩٩م، وكذلك وفاته، سنة ١١٤٧هـ/١٧٣٤م؛ ودفن بتربة الباب الصغير.

كان الكامدي ذا مشاركات جمة، اذ كان فقيهاً، نحوياً، أديباً، أصولياً[3]، محدثاً، الخ... وكان الى هذا كله شاعراً رقيقاً. من ذلك قوله يصف ثمر «النارنج»[4] يتساقط على المرج الاخضر كأنه عقود الياقوت تنفرط فتتلقفها يد من زبرجد:

انظر الى النارنج في اغصانه
الخضر اللواتي للنواظر ممتعة
كعقود ياقوت الحسان تبددت
فتلقطته يد الزبرجد مسرعة

وله شعر غير قليل، في وصف الازهار والطبيعة قال في «الجُلّنار»:

وكأنّ سقط الجُلّنارِ على
طرس الى البلور ذي نَسَبِ
وجهٌ تعشّقه الجمالُ
فنقّط خده من خالص الذهبِ

وتلمس تأثره وانفعاله بالطبيعة حتى وهو ينظم مؤرخا. مثل قوله في عذار[5]:

لما بدا خطُّ العذا
ر بطلعة القمر الفريد
كمل الجمال فخلته
كالشمس في شرف السعود
فكأنّ خضرة نقشه
في صفحة الخط السعيد
قطعُ الزبرجد نظّمت
فجُعِلْنَ تيجان الخدود
او نبت ريحان بدا
في لوح ياقوت نضيد
او طلع نمام اتى
كيما يتمّ على الورود
او نفحة المسك انبرت
فوفت «كاورد»[6] وعود
او نظم ند خلته
ورقَ البنفسج في عقود
او خط محراب الهدى
يصبي الحسان الى السجود
او مرسل في خده
يدعو الى دار الخلود
او سطر حسن رقّ لي
حسن التغزل والنشيد
قد قلت لما صاغه
قلم المحاسن في الخدود
كتب الجمال مؤرخا
خط الزبرجد بالورود

ولعله ليس في هذه الابيات غير صورة واحدة، متكررة على نحو ما، بشاعرية عادية. ولكنها صورة رائعة بسيطة، لم يذهب بنضرتها تقعر في اللفظ، او تعنٍّ في المعنى

وكذلك انفعل الشاعر وتأثر بتيارات الشعر في عصره او «أزيائه»؛ ان صح التعبير: فقد عُهد اذ ذاك التُعمية[7] والتلغيز[8] — في ما عُهد من «مهارات شعرية» — فقال في مَن اسمه «علي»:

لاح شمسا فوق غصن يانع
زانه خال على خد نقي
خلت تحت الشمس لما إن بدا
طلع الورد بخديك يقي

وقال في مَن يدعى «عمر»:

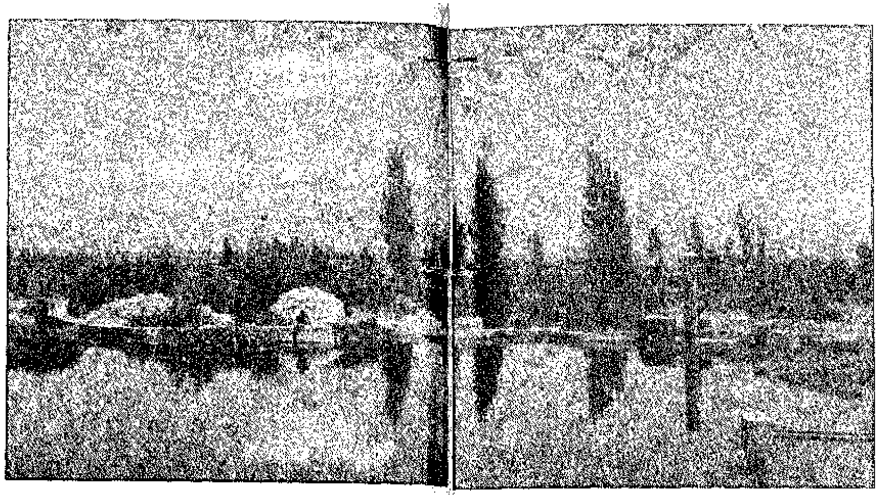
بروحي شادنٌ ألمى[9]
ظريفُ القد ممتشقه
دنا واللحظُ رائده
ورام الصلبَ فاسترَقَهْ

وقال في مَن يسمى «حُسَينا»:

أفديه ظبيا بالدلال مولعا
رَوْدُ[10] الشباب مورَّد الوجناتِ
عذب الثنايا والمقبل مترف
لولا التعوّد ذاب باللحظات

* * *

ومما يدعونا الى الاسف ان ديوانه — المذكور في ترجمته — لم يطبع بعد، ولعله لا يزال بعيدا عن متناول ايدي الباحثين والدارسين. ■



■ د. اسامة عانوتي استاذ الادب العربي في كلية الآداب الجامعة اللبنانية

الهوامش

(١) ترجمته في «سلك الدرر» للمرادي. ج ٣، ص ٢٥ — ٢٩.
(٢) المصدر السابق. ٣/٢٥.
(٣) نسبة الى علم اصول الفقه.
(٤) نوع مما نطلق عليه في عاميتنا: «الصفير» او «البو صفير».
(٥) العذار: جانب اللحية، وكذلك الشعر النابت في موضع العذار. وكان تأريخ بدوّ العذار عند الفتيان عادة لدى الشعراء — في حقبة من الحقب — تعبيرا عن ابتهاج ببلوغهم مبلغ الرجولة الخ...
(٦) ماء الورد.
(٧) التعمية «...تقديا: تضمين اسم الحبيب او غيره في الشعر اما بتصحيف واما بقلب او حساب، الخ» («المرجع» للعلايلي: ١/٥٩٣).
(٨) التلغيز او الإلغاز: «...التعمية باحجية او بما يستعصي على الحل» («المرجع» للعلايلي: ١/٢٥٥).
(٩) ألمى (مؤنثها لمياء): «الاسمر الشفتين» («المرجع» للعلايلي: ١/٢٦٠).
(١٠) يقال امرأة رَوْد: «السريعة الشباب»، «التي ترود وتطوف» وتكثر «الاختلاف الى بيوت جاراتها» («لسان العرب» مادة «رود») وهي صفة مختصة بالمرأة، انزلها الشاعر هنا، منزلة التذكير.

تاريخ فلسطين القديم
وتاريخ المدن الفلسطينية

عبد الباقي شنان



١ ــ تاريخ فلسطين القديم

حظى هذا الموضوع باهتمام غير عادي من الكتاب والباحثين وعلماء التاريخ والاجتماع، وباعتقادي فإن السبب الرئيسي وراء هذا الاهتمام غير العادي بتاريخ فلسطين القديم وتاريخ الاقوام والطوائف التي سكنت فلسطين يكمن في مكانة فلسطين العالمية. والاحداث التاريخية التي حدثت في فلسطين منذ العصور القديمة، بحيث ان بعض تلك الاحداث كانت ولا تزال تهم معظم سكان العالم بجميع قاراته، وهذا الكلام غير مبالغ به لان فلسطين تهم المسلمين والمسيحيين واليهود، وهي الاديان الرئيسية في العالم والمنتشره في معظم قارات

■ عبد الباقي شنان
باحث اجتماعي ــ اقتصادي ــ مجلة جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني

العالم، ومما زاد أهمية هذه البقعة من العالم هو سلبها من قبل الصهيونية العالمية بمساعدة ودعم الامبريالية العالمية، الامر الذي نتج عنه تشريد شعب فلسطين من أرضه ودياره

يشير الأستاذ الدكتور فؤاد حسنين علي في كتابه «اسرائيل عبر التاريخ» معتمداً أبحاث ودراسات مجموعة من العلماء والباحثين عن فلسطين وسكانها الاصليين بقوله: لفظ «فلسطين» هو الصيغة اليونانية للفظ «فلاشت» الواردة في العهد القديم. ومعنى هذا اللفظ «أرض فلسطين» وهي الجزء المطل على البحر، واليونان أيضاً منذ عهد هيرودوت ا اطلقوا هذا اللفظ على الجزء الداخلي من بلاد فلسطين[1].

إلا أن لفظ «فلسطين» هو ليس اقدم لفظ، فقد حفظت لنا الكتابات المسمارية لفظاً آخر، وهو: (امورو) وفي العبرية نجد له لفظ (أموري) وهذا اللفظ يطلق على فلسطين وكنعان والبقاع.

كما أن رسائل تل العمارنه اطلقت على فلسطين ووسط سوريا حالياً لفظ (لينخي) أو (لينخني)، واطلق قدماء المصريين على جنوب فلسطين لفظ (خرو) وشمالها (روتنو)[2].

لقد أكدت حملة من الدراسات والبحوث أن فلسطين قد سكنها الإنسان منذ نحو ٢٠٠,٠٠٠ سنة، فقد عثر الباحثون على بقايا الهياكل البشرية للعصر الحجري في قرية شمال طبرية (ليست الأقدم ففي اندونيسيا والصين اكتشفت جماجم عمرها ٤٠٠٠ سنة) ووجدت جماجم في مناطق فلسطينية أخرى من العصر نفسه.

وقد توصل الباحثون الى اتفاق على أن الإنسان الفلسطيني القديم «الذي عاش على مقربة من كهف الطابون في جبل الكرمل كان حلقة بين الإنسان البدائي والإنسان الحالي. خصوصاً وانه يمكنه مقارنة هذا الإنسان أيضاً من الناحية التشريحية بما نسميه الآن الإنسان العاقل»[3].

«ولعل هذه هي مرحلة التطور الإنساني من النوع العتيق البائد الى النوع الحديث. وقد أطلق على هذا النوع اسم انسان فلسطين»[4].

وهناك من الباحثين من يعتقد أن الزراعة ظهرت في العصر الوسيط في فلسطين قبل غيرها وخاصة في مدينة أريحا، إلا ان مثل هذا الرأي يحتاج الى تأكيدات علمية أكثر. لانه كما هو معروف أن الزراعة قد وجدت في شمال العراق قبل أن توجد في أي مكان آخر.

وعن الإنسان الفلسطيني الذي عاش في العصر الحجري الحديث والحجري النحاسي قال الدكتور فيليب حتي في كتابه «لبنان في التاريخ»..«إن العرق البشري الذي تنتمي إليه الشعوب التي قطنت شمالي سورية وفلسطين ولبنان في العصر الحجري الحديث هو العرق الذي يعرف بعرق حوض البحر الابيض المتوسط. فقد وجدت آثار الإنسان الذي ينتمي الى هذا العرق في حفريات «شقبة» في وادي الطوف وفي «مغارة الوادي» قبل ٥٠٠٠ ق.م وفي «تل الجديدة» قبل ٤٠٠٠ ق.م وفي «جبيل» ٣٥٠٠ ــ ٣٢٥٠ ق.م، مما يدل على أنه الشعب الاصيل في البلاد، ومما يدل أيضاً على أنه اقدم الشعوب التي توطنت شرقي البحر الابيض المتوسط. وهذا العرق البشري هو في الواقع العرق الذي تنتمي إليه جميع الشعوب البيضاء القديمة التي كانت تتوطن شمالي أفريقية (الشعب المصري الحامي القديم) وجنوب اوروبا، (أي الشعوب التي كانت تقطن شبه جزيرة ايبريه (اسبانيا والبرتغال) وفرنسه وايطاليا وبلاد اليونان والجزر القريبة منها والتي تغلبت عليها فيما بعد الشعوب الهندية الاوربية). وَهو عرق بشري يختلف اختلافاً كلياً عن العرق الذي ينتمي اليه انسان مغارة الكرمل وانسان انطلياس (شمالي بيروت) الذي كان يحتفظ بكثير من المزايا الجسمانية البدائية. أما الإنسان الذي ينتمي الى هذا العرق الذي نحن بصدده فهو انسان كما نعرف الإنسان اليوم. هذا الإنسان الذي توطن حوض المتوسط ينتمي الى العرق الابيض القوقاسي. فقد كان قصير القامة أو معتدلها، ذا بنية نحيفة ــ واحياناً قوية ــ ذا ساقين طويلين إذا قيسا بجذع جسمه. وقد كان رأسه طويلاً، ذو شعر يميل لونه الى السواد، وقل ان تجده أصلع. والى هذا العرق تنتمي الشعوب السامية، ولكنها لم تكن قد ظهرت بعد في المنطقة التي نتكلم عنها»[5].

كما يشير كل من مصطفى الدباغ والدكتور فيليب حتي الى الاقوام التي سكنت فلسطين حوالي سنة ٣٠٠٠ ق.م استشهاداً على الآثار التي وجدت في كل الجزر وفي غربي جبل الكرمل بأن هذه الاقوام كانت قد سكنت المغاور وأفرادها غلاظ العظام قصار القامة زرق العيون مع أحمرار شعورهم.

إن هذه الاقوام تنتسب الى الفصيلة الهندية الايرانية (الاوربية)، انقرض قسم كبير منها، بينما اندمج واختلط القسم الباقي مع الاقوام التي اغارت عليهم واستوطنت ديارهم. وهذه الاقوام المغيرة هي الاقوام السامية[٦].

ومعروف لنا ان الموطن الاصلي للاقوام السامية هو شبه الجزيرة العربية، وبعد ان حل الجدب في هذه الأرض نزحت عنها هذه الاقوام بحثاً عن المياه والمراعي.

ومعظم علماء التاريخ والباحثين في الشؤون التاريخية وحياة الشعوب يتفقون على ان شبه الجزيرة العربية كانت مصدر الهجرات السامية التي أتخذت اسم «الموجات السامية».

لقد اضطرت هذه الاقوام الى ترك اراضيها نظراً لتزايد اعدادها في أرض صحراوية كاملة، الى السهول المجاورة التماساً للرزق وطلباً للعيش. وقد شهد التاريخ خمسة موجات سامية الى مشارف «العراق وسوريا ومصر»، وقد اتخذت الموجة الثانية من هذه الموجات الخمسة طريقها الى فلسطين وهي الموجة« الامورية الكنعانية» وقد تعاظم أمر هذه الموجة سنة ٢٥٠٠ ق.م.

وحول هجرة الكنعانين الى فلسطين يشير الدكتور أحمد سوسه معتمداً على اراء مجموعة من العلماء والباحثين(*)، على ان الكنعانيين قد توجهوا الى أرض فلسطين في النصف الاول من الالف الثالثة قبل الميلاد وحسب أوثق التقديرات، يرى الدكتور سوسه ان الكنعانين قد سكنوا أرض فلسطين الى ما قبل ذلك زمن بعيد إذ توصل الاثاريون الذين اجروا تنقيبات في بعض المدن التي تحمل اسماء كنعانية مثل «اريحا»، و «بيت شان»، و «مجدو»، و «جازو»، الى تاريخ هذه المدن الى ما قبل الالف الثالثة قبل الميلاد. وقد عثر في حفائر «تليلات غسول» الواقعة شمالي شرقي البحر الميت في سنة ١٩٢٩ وما بعدها على آثار اقدم مدينة كنعانية في فلسطين، وكان لها حضارة راقية، وقد خرجت في اوائل العهد الحجري المعدني أو البرونزي. (٥٠٠٠ ــ ٣٠٠٠ ق.م) نتيجة حريق حولها الى رماد[٧]. ويقول الاستاذ اولبرايت معلقاً على هذا الموضوع «انه لدينا البراهين والأدلة على ان الكنعانيين اصحاب اللغة السامية الغربية استقروا في فلسطين في اوائل الالف الثالثة قبل الميلاد حيث عثر على اسماء مدن كما وردت كلمات كنعانية في المدونات المصرية من عصر الاهرام (القرن الثامن عشر والعشرون قبل الميلاد)[٨]»، وعن ذلك ذكر الطبري بقوله «فعمليق أبو العماليق كلهم امم تفرقت في البلاد وكان أهل المشرق وأهل عمان وأهل الحجاز وأهل الشام وأهل مصر ومنهم كانت الجبابرة بالشام الذين يقال لهم الكنعانيون»[٩].

وقد سميت فلسطين منذ ان دخلها الكنعانيين باسم «بلاد كنعان»، ويرجع الاصل في هذه التسمية الى الكنعانيين انفسهم حيث سميت فلسطين باسمهم.

توجد مدينة بابلية(**) كانت تسمى كنعان، وسمي ساكنها (كنعاني) وهو نفس اسم كنعان الفلسطيني. وربما جاء ذلك عن طريق هجرة

(*) إعتمد الدكتور أحمد سوسة بهذا الصدد على جملة من المصادر منها:

— «Keller, «The Bibleas History». 1957, p. 158».
— «Biccioti, «History d'Israel» & vol. 1. p.70-104».
— «Hitti, «History of Syria» London, 1951, p.120».
— «Albright, «Archaeology & The Religion of Israel», 1942. p. 68 .
— «Rogers, «Cuneeiform Parallels Is to the old Testament», 1947, p. 260».
— «G.A. Smith «The Historical Geography of the Holg — hand» 1931, p. 796».

(**) توجد حالياً بلدة في محافظة ديالى في العراق تسمى (كنعان).



«نساء فلسطينيات يغزلْن» (١٨٧٥)

بعض الكنعانيين إلى (بابل) فسميت مدينتهم على اسم بلدهم الذي جاؤوا منه. و (كنعان) هي نفس التسمية التي وردت في التوراة نسبة الى (كنعان بن حام بن نوح). فمن الكنعانيين اخذت فلسطين أسمها فصارت تعرف باسم (أرض كنعان)(*)، وكان اسم بلاد كنعان في بادىء الامر يطلق على الساحل والقسم الغربي من فلسطين، إلا ان هذه التسمية توسعت فيما بعد فشملت أكثر أجزاء سورية مع جميع أرض فلسطين. وكانت عاصمة بلاد كنعان هي (نابلس)(١٠).

وحول اصل تسمية كنعان يشير الدكتور أحمد سوسه بقوله لقد ورد ذكر كنعان في رسائل تل العمارنه باسم (knakhni)، وكانت هذه التسمية تطلق على القسم الجنوبي من بلاد الشرق المشتمله على أرض فلسطين، وقد ورد في الكتابات القديمة ذكر مدينة بابلية باسم «كنعان» (Kan —— nan) وسمي ساكنها (كنعاني) (Kanunai) وهو نفس اسم كنعان الفلسطيني، ويعتقد ان هذه التسمية جاءت عن طريق انتقال مهاجرين من كنعان الى بابل فسميت مدينتهم على اسم بلدهم الذي جاؤوا منه طبقاً للعادة التي أتبعها المهاجرون في مختلف البقاع عبر التاريخ. ذلك يدل على أن لفظ «كنعان» قديم جداً سبق عهد التوراة بعدة قرون(١١).

ومن الجدير بالذكر، ان كلمة كنعان قد تكررت كثيراً في الكتاب المقدس، حتى انها وردت به خمسة وثمانين مرة، ثلاثة وثمانون في العهد القديم ومرتان في العهد الجديد، مثلاً: «وكنعان وَلَدَ صيدون بكره وحثا واليابوسي والاموري والجرجاشي والحوي والعرقي والسيني والاروادي والصماري والحماتي. وبعد ذلك تفرقت قبائل الكنعاني. وكانت تخوم الكنعاني من صيدون حينما تجيء نحو جرار الى غزة وحينما تجيء نحو سدوم وعموره وادمه وصبو ييم الى لاشع. هؤلاء بنو حام حسب قبائلهم كالسنتهم باراضيهم وامهم(١٢)». واذا ما ذهبنا مع التوراة تكون رقعة بلاد كنعان

(*) جاء في الكتاب المقدس الاصحاح التاسع ص ١٠ «وكان بنو نوح الدين خرجوا من الفلك ساما وحاما ويافت. وحام هو أبو كنعان» وجاء في الاصحاح العاشر، ص ١١ «وبنو حام كوش ومصرايم وقوط وكنعان».

الجغرافية تقع بين الشواطيء الشرقية للبحر المتوسط من اوغاريب الى غزه وبين الصحراء السورية ومن سهول ادنه في جنوب آسيا الصغرى الى صحراء النقب جنوبي فلسطين.

ويتفق الدكتور كلود شافر مع ما ذهبت إليه التوراة في تحديد حدود كنعان استناداً الى لوحات تل العمارنه والى وثائق رأس شمرا، والمكتشفات الاثارية التي نشرت عن حفريات طرطوس في فيليقيا واريحا وذلك بقوله «ثبت لنا ان بلاد الكنعانيين بين شواطيء المتوسط، الشرقية وصحراء سورية، اتسعت في الجنوب، من فلسطين الجنوبية الى اوغاريت (قرب اللاذقية)، وفي الشمال استعمر الكنعانيون سهول دانونا (ادنه) الخصبة واستثمروها منذ النصف الاول للالف الثانية قبل الميلاد[١٣]».

اذن اسم «كنعان» هو اول اسم لفلسطين، وجميع الاسماء الاخرى كما يرى الدكتور حتي، هي اقل اهمية[١٤]، وفي وثائق العهد القديم الاولى أطلق اسم «كنعان» بدون أي مدلول عرقي، وتعبير «لغة كنعان»[١٥] كان يطلق بصورة عامة على لغة فلسطين السامية[١٦].

أما الحضارة الفلسطينية القديمة، فهي ترجع الى الكنعانيين، حيث أنهم اول من أسس حضارة فلسطين القديمة.

وعلى ما يبدو ان تاريخ الحضارة الكنعانية يشير ان هذه الحضارة من الحضارات الانسانية الواغلة في القدم، حيث تعود الى العصر الحجري الحديث أو العصر النيوليتي (٧٠٠٠ ـ ٥٠٠٠ ق.م) وقد عبر عن نمو الحضارة الكنعانية وازدهارها نمو وازدهار المدن الكنعانية، وظهر ان الكنعانيين قد اكتشفوا النحاس الطري، واستطاعوا الجمع بين النحاس والقصدير في انتاج البرونز، ولاستخدامهم صناعة التعدين تمكنوا من الحيازة على ادوات واسلحة كانت تعتبر في عصر ذلك العصر من الاسلحة الفتاكة، وقد شاع استعمال البرونز عندهم في فلسطين قبل ٢٥٠٠ ق.م وقد أظهر التحليل الكيمياوي لنصل فأس من اوائل القرن الرابع عشر اكتشفت في قرية قريبة من اللاذقية، ليس معرفة إذابة الحديد فحسب وإنما معرفة مزجه بمعادن أخرى لصنع مزيج الفولاذ، وأولى الكنعانيون اهتماماً للبحث عن المعادن لجعل الحديد قاسياً، واهتموا أيضاً بالبحث عن الذهب والفضة، لذلك قاموا برحلات طويلة خارج بلادهم، كما اجادوا فن الصياغة في القرن السادس عشر قبل الميلاد، وقد اكتشف ميزان أحد الصاغة واوزانه في رأس الشمرة قرب اللاذقية[١٨].

ومن الجديد ذكره، ان بعض الباحثين وعلماء التاريخ يعتقدون ان الكنعانيين قد أخذوا الحديد من الاقوام المجاورة لهم كالحيثيين.

وحين قام المصريون، بغزو المدن الكنعانية، وصفوا الغنائم التي حازوا عليها من اعدائهم الكنعانيين، فقد وصفوا بأن من بين المصنوعات المعدنية الثمينة التي وردت في القوائم التي سجلها «تحوطمس الثالث» ، عربات مطعمة بالذهب واوتاد لتثبيت الخيم مطعمة بالفضة، وسرائر من العاج واسرة نوم مطلية بالذهب وكؤوس وآنية أخرى وسيوف وتماثيل معظمها من الذهب وخشب الابنوس، كما تشير سجلات تحوطمس الثالث الى وجود معاصر الزيت والعنب وهي مصنوعة بدقة واتقان وأيضاً تشير السجلات الى ان أرض كنعان أرض خصبة، وقد جلب تحوطمس الثالث من أرض كنعان الى مصر (٢٠٧,٠٠٠) كيس من الحنطة[١٩].

لقد وجدت السكاكين ورؤوس الحراب والفؤوس الحربية والمخازن والملاقط في اريحا من العصر الذي سبق قدوم بني اسرائيل، واكتشفت في فلسطين اساور وكلاكل واقراط وخزائم ومشابك للصدر من البرونز والذهب والفضة في مختلف المواقع. واستخرجت صنوج صغيرة من القرن الرابع عشر من تل «أبو هوام» قرب حيفا. يستدل على وجود الات موسيقية كالقيثارة والناي والمزمار والعود والدف، وقد تلفت مثل هذه الالات لعدم مقاومتها للظروف الطبيعية[٢٠].

واشتهرت المزارع الكنعانية بزراعة الكروم والتين، وقد تفننوا في الزراعة، فهندسوا المشاريع المائية، فأوصلوا الماء الى داخل قلاعهم التي تفننوا أيضاً في بنائها، وقد شيدوها قلاعاً قوية حتى تستطيع حماية مدنهم من غارات اعدائهم[٢١].

واستفادوا من قوة المصريين في حماية الطرق التجارية، فازدهرت تجارتهم، الامر الذي سهل وصولها الى بلدان بعيدة عن بلادهم، فقد وصلت بضائعهم الى المدن المصرية.

والكنعانيون الذين عرفوا المعادن والتعدين، لهم ثقافتهم المميزة، وقد أخذ اليهود فيما بعد الى شريعتهم من الشريعة الكنعانية الكثير من الاحكام الاجتماعية والسياسية وفي الشريعة الكنعانية كما في شريعة حمورابي تنظيم للاحوال الحقوقية والجزائية[٢٢].

ووجدت في أرض كنعان اثار مغازل من الحجر والعظم، واثقال من الحجر والطين تستخدم لاجل الانوال وترجع الى اوائل الالف الثالث ق.م.

ان وثائق نوزي من حوالي ١٥٠٠ ق.م جاء فيها ذكر الصوف الكنعاني، ويذكر الاستاذ جيمس هنري برستد «James H. Breasted» عن القطن الذي كانوا يسمونه صوفاً، والذي «كان في الاصل من نبات الهند قد ادخله سنحاريب الى بلاد اشور حيث يشير في احدى الكتابات الاثرية الى «الاشجار التي تحمل صوفاً» والتي كان رجاله يقطعونها ويسرحونها لعمل الملابس[٢٣]». كما اكتشف في فلسطين «الابر والدبابيس» اكتشفت «في صناديق برونزية وبدون صناديق» كما وجدت في أرض كنعان أيضاً (فلسطين)، «أزرار مستديرة بثقبين، وكانت أزرار الاغنياء تختلف عن أزرار الفقراء، حيث كانت أزرار الاغنياء تصنع من العظم أو العاج» بينما تصنع أزرار الفقراء من«الخزف المكسور»[٢٤].

من هذه الامور التي عرضناها نستدل ان الكنعانيين العرب هم اول شعب متحضر سكن فلسطين حتى ان فلسطين سميت باسمهم «أرض كنعان» وكما رأينا ان هذه التسميه قد وردت في كتاب بني اسرائيل نفسه.

لقد انقسم الكنعانيون الى قبائل عديدة، منها قبائل اليابسيون وقد نزلوا القدس وجوارها، والاموريون وكانت منازلهم في جهات نابلس وجوارها. وعرف فيما بعد بخلافهم الشديد مع اليهود الذين تسللوا في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، واشتهر الاموريون بطول القامة والقوة والشجاعة، والجرجاشيون سكن بعضهم الجليل والكرمل، والحيون نزلوا شمالي القدس، وقد امتازوا بأن كانت إدارتهم جمهورية ديمقراطية يديرها الاهلون[٢٥].

ان فلسطين هي بلاد كنعان، وبلاد كنعان هي بلاد عربية، سكنها الكنعانيون العرب وحكموها منذ ٣٠٠٠ ق.م وحتى الالف الاول قبل الميلاد، وهذا يعني ان ادعاء بني اسرائيل لا صحة علمية له اطلاقاً، بأنهم اقدم الاقوام التي سكنت فلسطين.

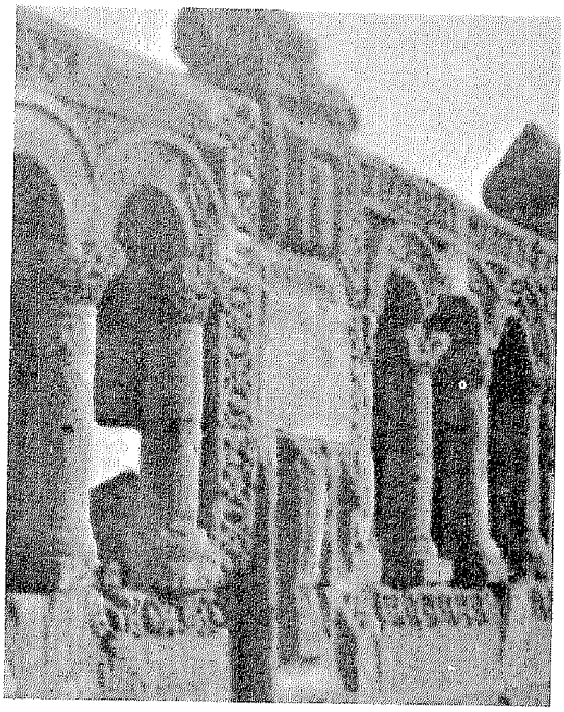
الفلسطينيون

هاجمت الكنعانيين اقوام عديدة للاستيلاء على ارضهم الخصبة والهيمنة على طرق التجارة، فقد كانت للكنعانيين حروب معروفة ضد المصريين الذين شددوا من الضغط على أرض كنعان ، وقد تمكن المصريون من اقتحام القلاع المنيعة التي بناها الكنعانيون وسيطروا على فلسطين وسوريا من ١٥٨٠ الى ١٣٥٠ ق.م.

وفي هذا العصر أي في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ابتدأت هجرة من جزيرة كريت وما جاورها من الجزر الى مصر. ويرى ذلك كل من برستد والاب فيكورو (مجلد (١ من الكتاب والاكتشافات)، وسيجي أن في هذا التاريخ قد حدثت الهجرة المذكورة. تقول سيجي: ان هؤلاء الاقوام قد «قدموا الى مصر من جزيرة كريت وغيرها من جزر الارخبيل وما جاورها من البلاد نحو القرن الخامس قبل الميلاد»[٢٦].

وقد استقر هؤلاء في منطقة «الكسلوحيم» التي هي الشطوط المصرية على البحر المتوسط، واطلق عليهم المصريون «الكسلوحيم» أو سكان البحر، أما اسمهم الحقيقي فهو «بلستPeleset » ولكن التوراة ذكرتهم باسم «الفلسطينين»[٢٧]، ويعتقد المطران يوسف الدبس وهو معتمد على الاب فيكورو وسيجي، انهم اصلاً «من قبيلة البلاسج» ويرى هؤلاء الباحثون ان بين الاسمين الفلسطينيون والبلاسج «مقاربة ظاهرة»[٢٨].

ان البلاسج أو الفلسطينيون أو بلست أو سكان الشطوط المصرية الذين جاؤوا من كريت وما جاورها من الجزر واليابسه، هم « من



من آثار قصر هشام بن عبد الملك بمدينة اريحا

ذرية يافت ومن اعقاب ابنه ياوان أبي اليونان» وكتب الاب كارا في مجلة «التمدن الكاثوليكي» ان «البلاسج الاولين من قبيلة الحثيين ولد حث بن كنعان»(٢٩).

سكن الفلسطينيون السواحل البحرية في مصر في عهد الفراعنة، وحينما تكاثروا ضايقوا القوافل التجارية المصرية وأغاروا على بعض البقاع المصرية واشتبكوا مع جيوش الفراعنة المصريين في عدة مواقع، ولما عظم أمرهم وكبر خطرهم على الفراعنة ، جهز الفرعون رعمسيس الثالث جيشاً جراراً لضربهم، فقتل معظمهم وأسر الباقين، ويذكر ان الفرعون رعمسيس الثالث قد عطف على الباقين فاسكنهم في الساحل الجنوبي من فلسطين وذلك في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ويحدد العميد عبد الرزاق في «الموسوعة الفلسطينية» أن هجرتهم الى الساحل الجنوبي من فلسطين حدثت في الفترة (١٢٠ـ١٢٠٠) ويشير الى موضوع الفلسطينيين مجموعة من الاساتذة واللاهوتيون الذين اشتركوا في تأليف «قاموس الكتاب المقدس» حيث قالوا: «في سنة ١١٩٤ق.م هزم رعمسيس الثالث «شعوب البحر» في حملة حربية قاموا بها عليه في الدلتا. وفي سنة ١١٩٠ رد حملة أخرى في سوريا قام بها هؤلاء الغزاة براً وبحراً. وكان بينهم الفليساتي (الفلسطينيون) وغيرهم من كاريين وليكيين وأخائيين وجماعات أخرى ذات صلة قرابة باليونانيين، والفلسطينيون على الارجح من حوض البحر المتوسط من اصل ليكي ـ كاري (في جنوب غربي آسيا الصغرى) وقد غزوا جزيرة كريت واستقروا في القسم الشرقي منها برهة من الزمان. ثم اشتركوا في الحملة الكبرى التي هزمهم فيها رعمسيس الثالث كما سبق ذكره. إلا ان بعض الغزاة بقوا في سوريا وبالتالي وصلوا فلسطين»(٣٠).

لقد استقر الفلسطينيون كما رأينا في جنوب فلسطين، وكان لهم شأن عظيم في تاريخ فلسطين، فقد أشادوا المدن الكبيرة وعمروها وحصنوها وبنوا فيها القلاع وأحاطوها بالاسوار المنيعة، وأشهر مدنهم غزة واسترود وعقرون وعسقلان وجت، وكانت مدينة اشرود عاصمتهم.

واشتهر الفلسطينيون بحروبهم الطويلة والعديدة مع العبرانيين الذين انسلوا الى فلسطين في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وقد طردهم الفراعنة الى سيناء ومكثوا فيها زمناً ثم انسلوا الى فلسطين.

وحين تجمع العبرانيون وكونوا لهم جيوشاً في فلسطين، زحف عليهم الفلسطينيون في حوالي ١٠٥٠ق.م فكسروهم وأخذوا منهم تابوت العهد، وفي نحو عام ١٠٢٠ق.م حينما طلب شيوخ بني اسرائيل من زعيمهم الديني صموئيل ان يجعل لهم «ملكاً يقضي لنا كسائر الشعوب(٣١)». وكان رجل اسمه شاول أول ملك عليهم، وقد عرف عن العبرانيون أنهم يرون في ملوكهم أنبياء.

لقد كان ملك العبرانيين الأول فاشلاً، فقد كانت أخلاقه ضعيفة وطباعه سوداوية، ولم تمتد حدود مملكته الصغيرة أبعد من منطقة قبيلته بنيامين(٣٢).

لقد استاء الفلسطينيون من وجود ملك في فلسطين واعتبروا ذلك بمثابة ثورة ضدهم فقادوا حملة عسكرية على الملك شاول وقتلوه

وشتتوا قومه في معركة جلبوع(٣٣).

إن الذي جعل الفلسطينيين متفوقين على اعدائهم بصورة خاصة هو امتلاكهم سلاحاً متفوقاً، ذلك السلاح الذي كان معرفة الصهر واستخدام الحديد لاجل اسلحة الدفاع والهجوم وقد احتكروا صناعة الالات والاسلحة الحديدية، بالمقابل كان الاسرائيليون يتأففون من القيام بمثل هذه الاعمال، وإذا قدر لهم واحتاجوا الات زراعية وأدوات قاطعة فأنهم يذهبون الى حدادين فلسطينيين لكي يعملوا لهم ذلك، بينما نجد الكنعانيون الذين تعلموا من الفلسطينيين استخدام المركبات الحديدية قد تفوقوا تفوقاً حازماً على الغزاة الاسرائيليين(٣٤).

ومن ذلك يمكن الاستدلال ان الفلسطينيين رفعوا الحضارة السورية من مرحلة البرونز الى مرحلة أهم وهي عصر الحديد وذلك بتوصلهم الى معرفة صهر الحديد المعقدة واستعماله على نطاق واسع، وكان ذلك إضافة الى ردعهم العبرانيين يعتبر فضلاً هاماً لهم.

ولكن الفلسطينيين اندحروا في آخر المطاف، أمام اليهود فقد «غزاهم غزياً وغلبهم وكذلك حزقيا. ورافق كثيرون من الفلسطينيين جورجياس القائد السوري لجيش الطيوطوس ابيفانيس في حملته على يهوذا. وبعد ذلك أخذ يهوذا المكابي ازوتوس ومدناً فلسطينية أخرى. ثم أحرق يوناتان المكابي ازوتوس مع هيكل داجون ومدينة اشقلون كما حرق ضواحي غزة(٣٥) » وقد دخل غزة بعد ان استسلمت إليه.

لقد انسل العبرانيون الى فلسطين كبدو رحل لا علاقة لهم إطلاقاً بالحضارة وعند استقرارهم في فلسطين أخذوا من كنعان بعض جوانب حضارتها. حيث تركوا لهجتهم القديمة واتخذوا لهجة الشعب الذي عاش في أرضه، فهم لم يعرفوا الكتاب قبل دخولهم الى فلسطين لان لغتهم لغة كلام فقط، ولكنهم تعلموا فن الكتابة من الكنعانيين، كما أخذ نفر قليل منهم من كنعان الزراعة، أما الغالبية العظمى للاسرائيليين فاهتموا بالرعي والتجارة، كما اقتبس الاسرائيليون من الكنعانيين آلهتهم ومعابدهم، وبقوا لسنوات طويلة يستعملون الفن



بيت لحم

الكنعاني سواء كان في البناء أم في الدين كالتراتيل الدينية والموسيقى التي تصاحبها. كما أخذوا من الكنعانيين عادات الدفن. وكانت ثيابهم وحليهم وخزفهم وحرفهم تتبع الاساليب والازياء الكنعانية.

إلا ان العبرانيين تميزوا عن غيرهم بالسرقة والسلب وقتل اعدائهم دون تمييز بين طفل وشيخ وامرأة وسنرى ذلك لاحقاً، كما تميزوا بحبهم للمال والذهب.

لقد بدأ حكم بني اسرائيل في بعض أقسام فلسطين بشكل حقيقي في ١٠٠٤ق.م أي في زمن الملك داوود، واشتهر من ملوك اسرائيل اضافة الى الملك داوود ابنه سليمان، والملك عمري وهو الذي اسس مدينة السامرة وحصنها وجعلها عاصمة(٣٦) وبنى فيها القصور ومنها القصر الذي وسعه و زخرفه ابنه ووريثه آخاب هذا القصر هو قصر «بيت العاج»(٣٧)، وآخاب الذي جاء كملك بعد والده سيطرت عليه زوجته «ايزابل» ابنة اتبعل ملك صور وصيدا، وكانت السبب في الشقاق والخلاف الذي حدث في صفوف قومه، الى أن قاد احد ضباط الجيش ثورة ضده والقى بايزابيل من نافذة. وهو

الضابط «ياهو» فأكلت جثتها الكلاب[٣٨] وأصبح «ياهو» ملكاً بعد ان استولى على العرش، وكان ياهو يقدم الجزية بشكل أوان من الفضة والذهب والرصاص الى الملك الاشوري، ثم من ملوك بني اسرائيل المشهورين يربعام الثاني.

وعندما رفض هوشع ملك اسرائيل بدفع الجزية لسنوات متكررة هاجمه شلمناصر الخامس وحاصر المدينة ذات الحصون القوية لثلاث سنوات ثم سقطت على يد خلفه سرجون الثاني بين ٧٢٢ و٧٢١ ق.م، وتلاشت مملكة اسرائيل الى الابد على يد الاشوريين.

أما مملكة يهوذا فقد سقطت على يد الكلدانيين في عهد نبوخذ نصر الذي دخل جيشه اورشليم في ٥٩٧ وقيد ملكها وارسله الى بابل[٣٩].

وبذلك فقد خضع قسم من فلسطين الى الحكم الاشوري عندما سقطت مملكة اسرائيل على يد سرجون، ثم خضعت الى الكلدانيين في عهد الملك الكلداني نبوخذ نصر.

الجدول التاريخي يشير الى سير الاحداث التاريخية التي سبقت الميلاد في فلسطين.

جدول الاحداث التاريخية التي تعرضت لها فلسطين قبل الميلاد

سنوات الأحداث		الأحداث التاريخية
٣٠٠٠	٢٥٠٠	هجرة الكنعانيين الى فلسطين، ومنهم اليبوسيون سكان اورشليم الاوائل.
١٩٩٦		هجرة إبراهيم الخليل من (اور) العراق. الى فلسطين، وقيل ان الهجرة كانت سنة ١٨٠٠.
١٧٢٠		هجرة يعقوب (اسرائيل) واهل بيته الى مصر.
١٥٣٠	١٣٥٠	سيطرة المصريين على سوريا وفلسطين.
١٤٩٠		خروج موسى من مصر امام جيوش فرعون. وقيل أن الخروج كان في عام ١٦٤٥ ق.م.
١٢٠٠	١١٢٠	هجرة الفلسطينيين الى الساحل الجنوبي من فلسطين ومنهم جاءت التسمية.
١١٨٩		دخول اليهود فلسطين من شبه جزيرة سيناء بقيادة (يوشع بن نون).
١١٨٠		اول محاولة ناجحة لاقامة دولة يهودية.
١١٢٥	١٠٢٥	عهد القضاة الموسويين في فلسطين.
١٠٢٥	١٠١٠	مطالبة اليهود بتعيين ملك عليهم. وتعيين شاؤول (طالوت). وتعتبر هذه الفترة هي مدة حكم (شاؤول).
١٠١٠	٩٧١	مدة حكم اليهود. وبداية انقسام المملكة الى شمالية وجنوبية.
٩٦٠	٩٣١	مدة حكم (سليمان الحكيم) وبناء الهيكل المسمى باسمه.
٨٧٩	٨٤٣	أستيلاء الملك السوري (بنحدد الأول) على أورشليم ونهب كنوزها ومعبدها وقصرها الملكي.
٧٣٩		استيلاء (تجلات بلاشو) الثالث ملك آشور على أرض فلسطين وسبي أهلها الى اشور.

٧٢٢	٧٢١	حملة الآشوريين على مملكة اسرائيل زمن (شلما نصر الرابع الذي توفي قبل فتح اورشليم) واكمل الفتح في عهد (سرجون الثاني) وازالة المملكة الشمالية من الوجود.
٧٠١		حملة (نبوخذ نصر) الاولى على مملكة يهوذا وحرق (اورشليم) وأسر ملكها وسبيه مع اليهود الى بابل مقيدين بالسلاسل. وهذا هو السبي الاول.
٥٨٧		حملة (نبوخذ نصر) الثانية على مملكة يهوذا (وهو السبي الثاني).
٥٨٦	٥٣٩	فترة اسر اليهود في بابل وكتابة التوراة من قبل اخبار اليهود.
٥٣٨		فتح (كورش) الفارسي مدينة بابل والسماح لمن يرغب من اليهود بالعودة الى فلسطين واعادة تشييد الهيكل.
٥١٥		اعادة بناء الهيكل.
٣٣٢		فتح الاسكندر المقدوني لفلسطين وانشاء المستعمرات الاغريقية.
٣٠٠		حملة بطليموس الاول على اورشليم ونقل عدد من اليهود الى افريقيا.
١٩٨		استيلاء (انطونيو غوس) الثالث على فلسطين.
١٧٥		ثورة اليهود ضد (انطونيو غوس) الرابع في اورشليم بزعامة (جاسون).
١٦٨		استيلاء السلوقيين على اورشليم.
١٦٦		استيلاء المكائيين على اورشليم.
٧٠		ثورة اليهود الثانية ضد الرومان بقيادة (حنانيا).
٦٠		دخول (بومبي) اورشليم وقيل سنة (٦٣).
٥٤		(كراسيوس) ينهب خزائن الهيكل في اورشليم.
٣٧		احتلال (هيروودتس) لاورشليم.

نظرة سريعة على تاريخ فلسطين العربي بعد الميلاد.

بعد دخول الرومان الى فلسطين بنحو ستين سنة ولد المسيح، وقد ولد في عهد اغسطوس قيصر، في بلدة بيت لحم، وبلدة بيت لحم تعتبر مسقط رأس اجداده، إلا ان بيت لحم لم تشهد نشأته بل انه تربي ونشأ في الناصرة، وعندما بلغ سن الثلاثين أخذ يتجول في مدن فلسطين ناشراً دينه الجديد. لا نريد ان نتناول هنا سيرة حياة المسيح فذلك يعرفه أكثر الناس وخاصة المسيحيين، ان الذي يهمنا هنا هو تاريخ فلسطين وعروبتها.

إذن كانت فلسطين في هذا التاريخ خاضعة الى الحكم الروماني، وكانت تشهد مولد المسيحية، وقد وقف امام المسيحية كل من الرومان واليهود، وشهدت هذه المرحلة آلاماً شديدة تعرض لها المسيحيون ومعظمهم من الفلسطينيين غير اليهود، وكان اليهود في هذا العهد قد وصلت بهم القسوة والهمجية مع

اعدائهم ما لا يصدقه أحد وينقل لنا ذلك المطران الدبس عن العالم اليوناني «ديون كسيوس» «انهم كانوا يأكلون من لحوم من قتلوهم ويشربون من دمهم ويحتزمون بامعائهم ويلتفون بجلودهم وقد شطروا كثيرين من رأسهم الى أسفل وارغموا كثيرين ان يصارع بعضهم بعضاً، ويجالدون بالسيوف الى ان يهلك بعضهم بعضاً(٤٠)».

ونظراً لتلك الهمجية والوحشية، شدد هدريان الروماني على اليهود في جميع انحاء فلسطين، وقتل منهم خلقاً عظيماً، وقد أخذوا من الاسرى خلقاً عظيماً وباعهم في البلدان بأبخس الاثمان(٤١)، ومنذ ذلك التاريخ أي منذ عام ١٣٥م لم يعد لليهود أي صلة بفلسطين ولم يعد لهم أي وجود حتى وقوع فلسطين تحت الانتداب البريطاني أو قبل ذلك بسنوات معدودة.

وفي عام ٣٩٥ انقسم الرومان على أنفسهم، وبذلك فقد انقسمت دولتهم الى قسمين: الدولة الرومانية الشرقية، والدولة الرومانية الغربية، وقد بقيت فلسطين مستعمرة رومانية شرقية حتى القرن السابع حين حررها العرب المسلمون.

ففي عام ٦٣٨م دخلت القدس حكم العرب المسلمين تلتها بقية مدن فلسطين، وكان ذلك في عهد عمر بن الخطاب وذلك سنة ١٥ هجرية.

فلسطين في الادب الإسلامي

جاء ذكر فلسطين في القرآن، مرات عديدة، والذكر المتكرر لها في القرآن يعني ان لفلسطين مكانة تاريخية عظيمة عند العرب والمسلمين، ولعل أشهر الآيات القرانية التي تذكر فيها فلسطين هي الآية الاولى من سورة الاسراء وهي «الذي اسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله، لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير(٤٢)».

وحين هاجر نبي المسلمين محمد بن عبد الله من مكه الى المدينة للتخلص من الارهاب والمضايقة الشديدة له ولاصحابه من قبل اسياد وتجار واغنياء قريش، بسبب نشره للدعوة الاسلامية فقد صلى مع اصحابه نحو القدس عندما استقر في المدينة، بينما كان يصلي واصحابه بمكة الى جهة الكعبة وبذلك فإن صخرة القدس بقيت قبلة المسلمين مدة ستة عشر أو سبعة عشر شهراً(٤٣).

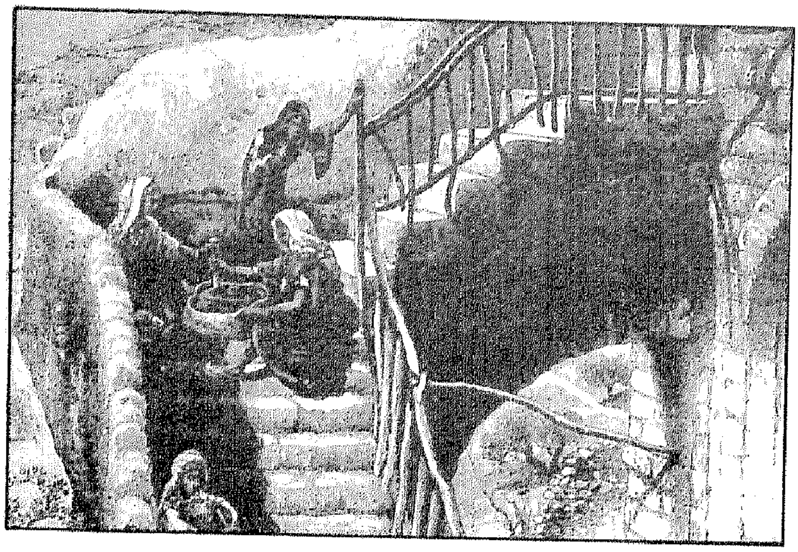
وحول ذلك نزلت احدى ايات سورة البقرة «قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنو لينك قبلة ترضاها، فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره»(٤٤).

وجاء ذكرها أيضاً في القرآن كأرض مباركة، حينما أراد قوم إبراهيم في بلاد ما بين النهرين، قتله، فقد هرب مع ابن اخيه الى فلسطين، وقد نجى من القتل، فقد جاء ذكر هذه القصة في سورة الانبياء «ونجيناه ولوطا الى الأرض التي باركنا فيها للعالمين»(٤٥).

وتحكي لنا سورة المائدة عن قصة النبي موسى وحواره المطول مع قومه حول دخول الأرض المقدسة (فلسطين) حيث كان يحاورهم لاقناعهم دخول فلسطين، وهم الذين الفوا الذل والخنوع في أرض القارعة، فكانوا يخشون الدخول الى أرض فلسطين خوفاً مما يلحقهم من أهلها من ضرر، وقد دار ذلك الحوار عندما دخلوا والنبي موسى صحراء التيه. تقول في ذلك الآية القرانية «يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على اديالكم فتنقلبوا خاسرين. قالوا يا موسى ان فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فأن يخرجوا منها فانا داخلون».(٤٦).

وحين أخذ هيرودوس بقتل الاطفال حين ولادتهم في بيت لحم، فقد اختفت مريم وابنها النبي عيسى في بيت المقدس، وقد ورد ذلك في سورة المؤمنين «وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين»(٤٧). قال ابن عباس هي بيت المقدس وهو كذلك قول قتاده وكعب(٤٨). وعن الحسن وأبي هريرة إنها فلسطين(٤٩).

كما جاء ذكر فلسطين وانصارها على لسان النبي محمد واصحابه، فعن ابن عباس قوله: قال رجل، يا رسول الله! اني اريد الغزو في سبيل الله. فقال الرسول محمد عليك بالشام، فان الله قد تكفل لي بالشام وأهله ثم الزم من الشام عسقلان. فانه إذا دارت الرحى في امتي



«جرش الحبوب
على درج البيت» (١٨٨٠)

كان أهل عسقلان في راحة وعافية(٥٠).

وعن أبي أمامه ان النبي محمد قال: أنزلت علي النبوة في ثلاثة امكنة بمكة والمدينة وبالشام، والمقصود بالشام تحديداً هنا هو بيت المقدس، حينما اسرى به الى بيت المقدس(٥١).

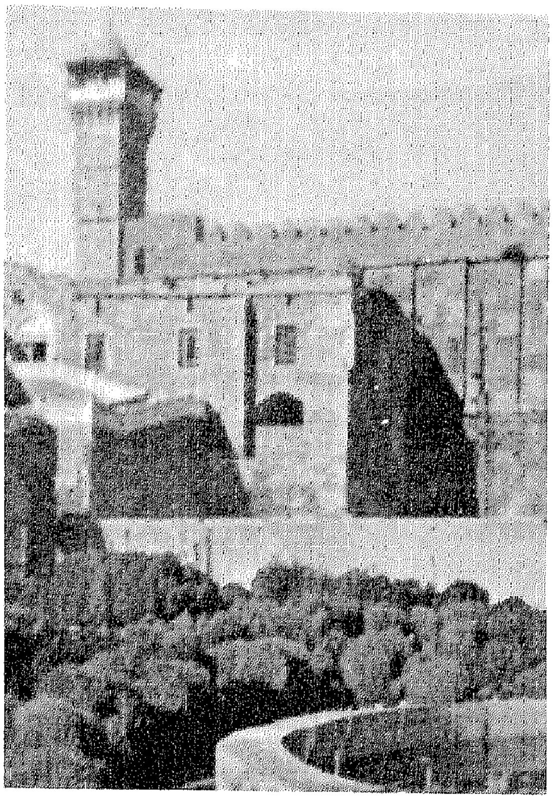
وروى الامام أحمد في مسنده عن أبي أمامه الباهلي، ان رسول الله محمد قال لا تزال طائفة من امتي ظاهرين على الحق، لعدوهم قاهرين، لا يغرهم من خالفهم، حتى يأتيهم أمر الله عز وجل وهم كذلك. قالوا: يا رسول الله وأين هم؟ قال: بيت المقدس.(٥٢)

وعن أبي هريرة عن النبي محمد قال: «لا تشد إلا الى ثلاث مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومسجد الاقصى»(٥٣).

وعن يحي بن بكير عن عقيل عن ابن شهاب عن أبو سلمه بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله، انه سمع النبي محمد يقول: «لما كذبتني قريش قمت في الحجر فجلا الله لي بيت المقدس، فطفت اخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه»، وروي ابن منذر بسنده عن انس بن مالك قال: «ان الجنة لتحن شوقاً الى بيت المقدس. وبيت المقدس من جنة الفردوس وهي سرة الارض»(٥٤)

كما جاءت فلسطين على لسان بعض علماء العرب. حيث ذكرها كجزء من بلاد الشام الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدس المعروف بالبشاري في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم الذي الفه سنة ٣٦٥هـ، بما يأتي: «اقليم الشام جليل الشأن ديار النبيين ومركز الصالحين، ومعدن البدلا ومطلب الفضلاء. به القبلة الاولى وموضع الحشر والسرى والارض المقدسة والرباطات الفاضلة والثغور الجليلة والجبال الشريفة ومهاجر إبراهيم وقبره وديار أيوب وبئره ومحراب داود وبابه وعجائب سليمان ومدنه وتربة اسحاق وامه ومولد المسيح ومهده وقرية طالوت ونهره ومقتل جالوت وحصنه وجب أرسيا وحبسه ومسجد اوريا وبيته وقبة محمد وبابه وصخرة موسى وربوة عيسى ومحراب زكريا ومعرك يحي ومشاهد الأنبياء وقرى أيوب ومنازل يعقوب والمسجد الاقصى، وجبل زيتا، وعين سلوان، وموضع لقمان، ووادي كنعان، ومدائن لوط، وموضع الجنان، ومساجد عمر، ووقف عثمان والباب الذي ذكره الرجلان، والمجلس الذي حضره الخصمان، والسور الذي بين العذاب والغفران والمكان القريب ومشهد بيان وباب وحطه ذو القدر والشأن وباب الصور وموضع اليقين وقبر مريم ورراميل ومجمع البحرين ومفرق الدارين وباب السكينة وقبة السلسلة ومنزل الكعبة مع مشاهد لا تحصى وفضائل لا تخفى وفواكه ورخاء واشجار ومياه، وآخرة ودنيا به يرق القلب وتنبسط للعبارة الاعضاء(٥٥)».

كما ذكرها كل من الشيخ الامام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي في معجمه



الحرم الابراهيمي بمدينة الخليل

«معجم البلدان» المتوفي سنة ٦٢٦هـ. والشيخ العلامة شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب البكري التيمي القرشي المعروف بالنويري المتوف سنة ٧٣٢هـ، في كتابه نهاية الأرب في فنون الادب، وآخرين وآخرين من العلماء والكتاب العرب ذكروها بأحسن الالفاظ.

الصليبيون وصلاح الدين الايوبي

بعد ان أكمل الفرنج امتلاك سوريا ولبنان اتجهوا الى الجنوب فنزلوا الرملة واستولوا عليها دون مقاومة بعد ان أخلاها أهلها. وفي عام ١٠٩٩ سار الفرنج الى بيت المقدس وكانت حامية المدينة من الجيش المصري (المماليك) وكانوا قبل ذلك قد دخلوا اريحا، ولكن مدينة القدس صمدت صمود الابطال فعمل الافرنج السيف برجالها واطفالها ونسائها، وبعد شهر ظفر جيش الفرنج بمدينة عسقلان.

لم يستمر زمن الانحدار العربي طويلاً فقد لمع في المنطقة العربية اسم الملك الناصر السلطان صلاح الدين يوسف الذي ولد في العراق، وأصبح اسمه يشكل رعباً وذعراً شديدين للافرنج، وهو الذي حرر بلاد الشام من الافرنج، فقد استولى على طبرية في اول تموز سنة ١١٨٧ بعد حصار دام اسبوعاً واحداً، ثم تلت بعد ذلك معركة حطين المشهورة، وشهدت هذه المعركة هزيمة كبرى بالنسبة للفرنج، وقد أسر العرب المسلمون في هذه المعركة جيشاً غفيراً من الافرنج بينهم ملك اورشليم[٥٦].

وبعد سقوط بيت المقدس اثر معركة حطين الشهيرة، ارتاعت أوروبا لذلك النبأ فنسي ملوكها خصوماتهم القديمة واتحدوا لأخذ الثأر وسلب الاراضي العربية مرة أخرى. وقد «انبري فردريك بربروسا (Fredrick Barbarossa) أمبراطور المانيا. ورتشرد قلب الأسد(Richard I Coeur de Lion) ملك إنكلترا، وفيليب اغسطس(Philip Augustus) ملك فرنسا الى حمل الصليب. ويعد هؤلاء الثلاثة أعظم ملوك أوروبا الغربية وبهم بدأت التجريدة الصليبية المعروفة بالثالثة (١١٨٩ ــ ٩٢) وهي من أكبر التجريدات من حيث عدد المحاربين. وكانت هذه الحملة وما ظهر فيها من شخصيات بارزة في كلا الجانبين وبنوع خاص صلاح الدين وقلب الأسد، قد مدت الاساطير والروايات الشرقية والغربية بأحسن المواضيع وغذتها بأغنى المواد وأمتع الأخبار»[٥٧]

لقد كان اعتقاد الصليبيين بأن عكا هي المفتاح الذي به يمكن ان يستعيدوا ما خسروه، وبذلك حاصروا مدينة عكا ودام حصارها نحو سنتين، وقد دافع العكاويون رجالاً ونساء ببسالة عن مدينتهم. ثم حدث صلح بين صلاح الدين والافرنج والصليبيين.

كما تعرضت فلسطين في العهد العثماني الى حدثين هامين أولهما تعرضها للغزو الفرنسي الذي قاده نابليون بونابرت، وثانيهما حملة محمد علي باشا التي قادها ابنه ابراهيم باشا ودام حكم إبراهيم باشا عشر سنوات أي من ١٨٣١ الى ١٨٤١.

لقد دام الحكم العثماني لفلسطين من سنة ١٥١٦ الى سنة ١٩١٨ حين وقوع فلسطين تحت الانتداب البريطاني.

الهوامش

(١) د. فؤاد حسنين علي، اسرائيل عبر التاريخ، ص ٦٠.
(٢) المصدر نفسه، ص ٦٨.
(٣) د. أحمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق القديم، ص ٣٥. القاهرة ١٩٥٨.
(٤) د. نجيب إبراهيم ميخائيل، مصر والشرق الادنى القديم ٣/٣٣ القاهرة ١٩٥٩.
(٥) د. فيليب حتي، لبنان في التاريخ، الترجمة العربية ص ٧٣ ــ ٧٤؛ بيروت ١٩٥٩.
(٦) مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، الجزء الاول، ص ٢٨.
(٧) د. أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، الجزء الاول، ص ٤٦.
(٨) المصدر نفسه.
(٩) تاريخ الطبري، لابي جعفر محمد بن جرير الطبري، المجلد الاول، الجزء الاول، ص ١٠٣.
(١٠) العميد المتقاعد عبد الرزاق محمد أسود، الموسوعة الفلسطينية، م ٢، ص ٣٣٥.
(١١) د. أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، الجزء الاول، ص٤٧.
(١٢) الكتاب المقدس، تكوين، الاصحاح العاشر، ص ١١.
(١٣) نسيب الخازن، من الساميين الى العرب، ص ٤١.
(١٤) د. فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، الجزء الاول ترجمة د. جورج حداد ــ عبد المنعم رافق، ص ٨٦.
(١٥) الكتاب المقدس، سفر اشعيا، ١٨:١٩.
(١٦) د. فليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، الجزء الاول، ص ٨٧.
(١٧) د. أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، ص ٥٠ Lods, «Israel», p. 59.
(١٨) د. فليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، الجزء الاول، ص ٩٥.
(١٩) د. أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، ص ٥٠.
(٢٠) د. فيليب حتي، سورية ولبنان وفلسطين، الجزء الاول، ص ٩٦.
(٢١) العميد عبد الرزاق محمد اسود، الموسوعة الفلسطينية، ص ٣٣٥.
(٢٢) مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، الجزء الاول، ص ٣٠.
(٢٣) د. فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، الجزء الاول، ص ٩٩.
(٢٤) المصدر نفسه.
(٢٥) مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، الجزء الاول، القسم الاول، ص ٤٨.
(٢٦) المطران يوسف الدبسي، من تاريخ سوريا الدنيوي والديني، المجلد الاول، ص ١١٠.
(٢٧) مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، الجزء الاول، القسم الاول، ص ٥٠.
(٢٨) المطران يوسف الدبس، تاريخ سوريا الدنيوي والديني، المجلد الاول، ص ١١٠.
(٢٩) المصدر نفسه.
(٣٠) مجموعة من الاساتذة واللاهوتيون، قاموس الكتاب المقدس، ص ٦٩٣.
(٣١) راجعوا الكتاب المقدس، سفر صموئيل الاول ٥:٨.
(٣٢) المصدر نفسه.
(٣٣) المصدر نفسه.
(٣٤) المصدر نفسه، يشوع ٢:١٧؛ القضاة ١٩:١.
(٣٥) راجعوا: قاموس الكتاب المقدس، ص ١٩٤.
(٣٦) الكتاب المقدس، سفر الملوك الاول ٢٤:١٦.
(٣٧) المصدر نفسه، ٣٩:٢٢.
(٣٨) المصدر نفسه.
(٣٩) المصدر نفسه، ٤. اخبار الايام الثاني ٦:٣٦.
(٤٠) المطران يوسف الدبس، من تاريخ سورية الدنيوي والديني، المجلد الثالث،ص ٥٦٩
(٤١) مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، الجزء الاول، القسم الاول، ص ٦٦٠.
(٤٢) سورة الاسراء الآية الاولى.
(٤٣) تاريخ الانس الجليل: ج ١ : ص ١٧٢.
(٤٤) سورة البقرة. ١٤٤.
(٤٥) سورة الانبياء. ٧١.
(٤٦) سورة المائدة ٢٣و٢٤.
(٤٧) سورة المؤمنون ٢٥.
(٤٨) الانس الجليل ج ١ ص ٢٠٢.
(٤٩) مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين. الجزء الاول القسم الاول، ص ١٠.
(٥٠) المصدر نفسه، ص ١٢.
(٥١) المصدر نفسه.
(٥٢) نهاية الأرب في فنون الادب ج ١ : ص ٢٢٣.
(٥٣) و(٥٤) مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، الجزء الأول، القسم الأول، ص ١٤.
(٥٥) المصدر نفسه.
(٥٦) د. فيليب حتي، تاريخ العرب، ص ٧٢٧.
(٥٧) المصدر نفسه، ص ٧٢٨.

اعتذار

تأسف مجلة «تاريخ العرب والعالم» لسقوط ذكر مصدر الدراسة القيّمة التي نشرت في عددها الأربعين الصادر في شهر شباط (فبراير) الماضي ١٩٨٢ م. والتي يعود مصدرها إلى العدد الثالث (١٣٩٩هـ ــ ١٩٧٩ م) من حولية الآثار العربية السعودية (الاطلال) والتي تصدر عن ادارة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف السعودية.

معركة

ديان بيان فو

ترجمة: د. رياض العالي

ربيع ١٩٥٤، إحدى ذكريات فرنسا، ذكرى انكسار عدّه بعضهم على مستوى انكسار معركة واترلو أو أشد. وإذا كانت معركة واترلو تنطوي على دفاع عن مصالح فرنسا، وعن مصيرها، فما معنى معركة ديان بيان فو بالقياس الى تلك المصالح وذلك المصير؟ لقد شعر الشعب الفرنسي انه يضحي بأبنائه على مذبح مطامع لا علاقة له بها، ولأول يأس لأبنائه من الجنود، وينفعل لمصيرهم، ويتعذب من اجل «أبطاله» الذين لم يفكر فيهم من قبل ولم يحاول انقاذهم.



لقد أقنع موت دولاتر كل الطبقة السياسية الفرنسية أن معركة الهند الصينية خاسرة سلفاً ولا سبيل إلى كسبها. وكان الشعور السائد وقت جنازته يؤكد على نهاية الوجود الفرنسي في الهند الصينية. لقد كانت آخر خدمة أسداها الماريشال دولاتر إلى الشعب الفرنسي هي إيقاظ حالة سياسية ــ حربية سمحت بالتفكير بمخرج مشرف من الصراع. ذلك أن الحكومات المتعاقبة، بوتيرة متسارعة، لم تستطع أن تحدد بوضوح خط سلوك بيّن تجاه المعركة في الهند الصينية.

ولم يكن مصير المعركة متعلقاً إلى حد كبير بالحكومة الفرنسية، منذ أن طلب دولاتر مساعدة الحكومة الأميركية. وقد فشلت محاولتان لوقف إطلاق النار مع الفييت ــ مين، وذلك بواسطة جورج ــ ليغ، نهاية ١٩٥٢، وبدايات حكم لانييل في تشرين الأول ١٩٥٣. كانت «الحرب الباردة» على أشدها آنذاك. فالأميركان يحاولون التوكيد على عدم إمكان فصل حرب كوريا عن حرب الهند الصينية، فالعدو واحد في نظرهم، والهيمنة ماركسية. وقد انحنى الحكم الفرنسي أمام الإرادة الأميركية لحاجته إلى الدولار الأميركي.

لم يكن توتّر الرأي العام الفرنسي بأقل حدة من حالة السلطة السياسية. فقد بلغ الأمر بالاثنين إلى حد الانهيار، وزوال الحماسة، بل بلوغ حد عدم المبالاة، ذلك أن الصحافة نفسها وقفت إلى جانب الهند الصينية في معركتها التحررية.

ففي تموز عام ١٩٥٣ ظهر مقال روجي ستيفان في (فرانس أوبسرفاتور ٣٠/٧) وقد نشر معه تقريراً عن اجتماع سري للجنة الحرب العليا، عقد في ٢٤ تموز، ورئيسها فانسان أوريول. يؤكد التقرير أن معركة لاوس خاسرة، وأن أي هجوم مضاد ضد الفييتمن مستحيل. عدا الدعاية ضد الاستعمار التي شملت معظم الصحف ووسائل الاعلان، قام «سابوتاج» ضخم في مجال السلاح، بلغ نسبة أربعين بالمائة من مجموعه.

تدهور الوضع في الهند الصينية

لم يتطور الوضع لصالح الفرنسيين منذ موت دولاتر. ولئن ساعد الدعم المادي الأميركي، وسياسة الفتنمة في مضاعفة القوة


Pour que LA PAIX l'emporte à Genève

l'Humanité

Sept succès pour les salaires

DIEN-BIEN-PHU EST TOMBÉ

UN CESSEZ-LE-FEU EN INDOCHINE !

IL Y A NEUF ANS L'HITLERISME ETAIT VAINCU

ضد الفييتمن ــ بلغت عام ١٩٥٤ خمسمائة ألف ــ فإنها كانت متباينة العناصر على جميع المستويات. فنصف الوحدات المسلحة من الدول المتحدة، كانت مقاتلة بالفعل، أما القوات الأخرى فلم تكن على مستواها قتالياً. من جهة ثانية لم يكن بين تلك القوات إلا خمسون ألف جندي فرنسي.

مقابل ذلك كان للفييتمن قوات تقدر بـ ١٢٥٠٠٠ جندي، تتزايد باستمرار، عدا أربعمائة ألف في المناطق، يتضاعفون يومياً، كذلك. وقد ازداد تسلحها وغدا أفضل، نتيجة المساعدات الخارجية (الروسية والصينية خاصة)، كما أن المضادات الأرضية ضد الطيران تحسنت تدريجياً حتى غدت فعالة.

وكانت للفييتمن أرض صينية للمناورة، للاختباء، والتزود بالسلاح والتدريب، مما لم يكن متاحاً للفرنسيين. هذا عدا المساعدات الفنية والتقنية.

لم يكن ظهر القوات الفرنسية محمياً، ولا خطوط اتصالاتها مضمونة، إذ كانت تتعرض دائماً للمناضلين المسلحين، الذين يختفون في الغابات والمناطق الجبلية التي كانوا يعرفونها جيداً.

وكان الفييتمن يعملون نهاراً ليلاً، في النهار يقاتلون، وفي الليل يتصلون بالجماهير ويلقون عليها دروس التوجيه، أو يدربونها على السلاح، أو يعملون على تصفية البؤر المضادة للفييتمن.

العمليات الفرنسية أو خطة نافار

مع ذلك كانت للفرنسيين أفضليات: الطيران، المصفحات، مدفعية البحرية، التي كانت تجعل الفرنسيين متفوقين، وتحول دون أن يحرز الخصم انتصاراً حاسماً. ولكن التفوق على مستوى الأسلحة الميدانية لم يكن قائماً، بل لعل قوات الخصم كانت أكثر تفوقاً بسبب قدرتها على التحرك عبر مساحات شاسعة، حتى التي تواجدت عليها القوات الفرنسية.

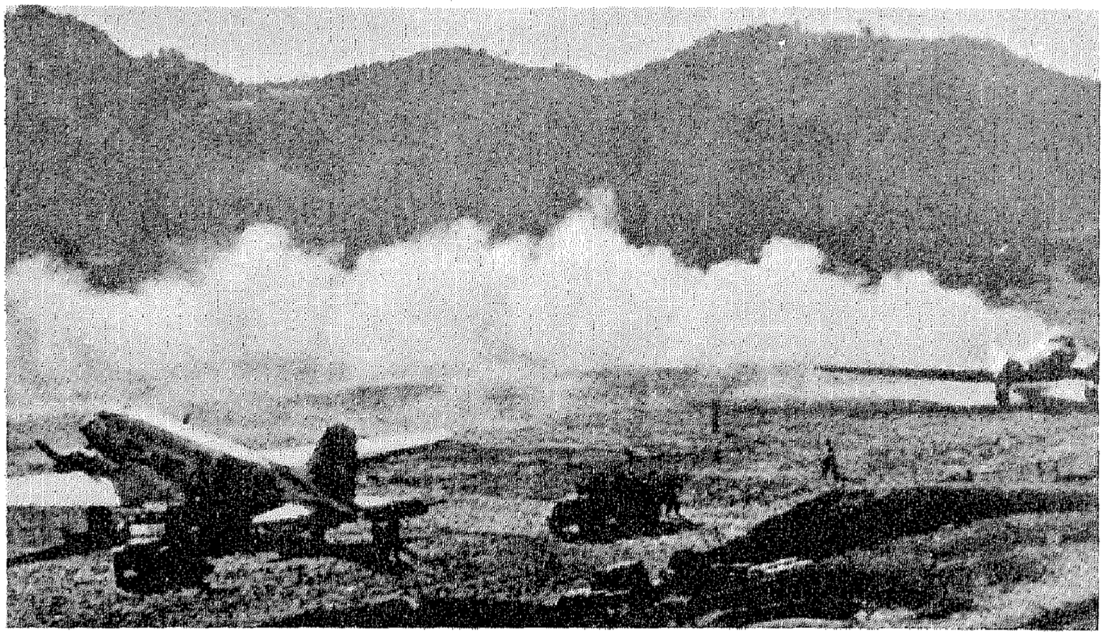
كان من الممكن لقوات المظليين أن تكون ضاربة ومؤثرة، لو أنها كانت مدربة تدريباً كبيراً على حرب الأدغال.

عام ١٩٥٣ درس قائد القوات الجديد الجنرال نافار، الوضع وقومه مع مساعديه، ثم وضع مخططاً واضحاً، حدد فيه الأهداف، والامكانات. وتركز المخطط حول نقطتين:

١ ــ التزام موقف الدفاع في فييتنام الشمالية حيث المواجهة غير ملائمة، مع شهر هجمات محدودة ذات أهداف مركزه، على أمل القضاء على مخابىء القوات الفييتنامية في الوسط والجنوب.

٢ ــ إقامة مراكز لآليات ضرورية يمكن الاستعانة بها لتكون المبادرة بيد الفرنسيين عند الحاجة. فقد كان في تقدير نافار أن المبادرة لا يمكن أن تصبح في أيدي الفييتمن إلا بعد عام ١٩٥٥، حين تزداد قواتهم ومسلحيهم زيادة واضحة. وفي هذا الوقت يمكن إعداد قوة عسكرية فرنسية كبيرة ضاربة، والاستعانة بقوات محلية عدوة للفييتمن.

منذ الصيف، بُدىء بتنفيذ المخطط. ولم تكن النتائج متساوية: كانت جيدة في الشمال حيث تمكنت الغارات على لانغ سون من تدمير مخازن أسلحة هامة للعدو. بينما الهجوم في أنام الشمالية سمح للفييتمن بإعادة تنظيم وحداتهم، وإخلاء المراكز في منطقة تاي، مما حرم الجيش الفرنسي القدرة على مفاجأتهم. أما الهجوم الستراتيجي في وسط فيتينام فقد فشل تماماً: فمحاولة «تنظيف» شمال هوي انتهت إلى الخيبة، إذ كان الفييتمن قد انسحبوا (نهاية تموز ١٩٥٣). لقد بدأت في نهاية كانون الثاني ١٩٥٤ عملية «آتلانت» (محاولة ضرب ليان كهوه، أي أكبر مخبأ للفييتمن، ويمتد من جنوب توران إلى رأس فاريلا). نجح الهجوم نجاحاً



المطار

جـزئياً رغم المعـارك الضاربـة والمكلفة، ولكن هجوم جياب على ديان بيان فو أجبر القيادة الفرنسية عـلى تغيير كـل مخططهـا، وبالتـالي رجحان كفة الفييتمن.

الستراتيجية الفييتمنية

كان الفييتمن على علم بمخطط نافار، ولكن لم يبد أنهم عازمون على اتخاذ أي تدبير ضدها. وكان تنفيذه كامناً في حـل وحيد هـو توزيـع القوات الفرنسيـة على أوسـع منطقـة ممكنة. ولم يعدوا الرد الحقيقي إلا في كانون الأول: قام الرد على هجومين محدودين، أولهما المسير نحو الجنـوب وغـزلاوس الشمـاليـة. وكـان عـلى الفـرنسيـين أن يـتخـلوا عن أفـضليـاتـهم الستراتيجية ذات الأهميـة الأولى، مما يهـدد بالقضاء على تحقيق مخططهم الحربي، أو أن يضطروا إلى خوض المعركة على أرض مفتوحة كثيرة الأخاديد، حيث تنتظرهم صعوبات تموينية كبرى. في الحالين كانت المبادرة في يد الفييتمن، فقد فرضوا المعركة على الأرض التي اختاروا.

بدأ المسير نحو الجنوب في ٢٠ كانون الأول، بنجاحات عاجلة. فقد انطلق ١٥٠٠٠ جندي من فين (الفرقة ٣٢٥ ولواء مدرع) وبلغوا تاكي على الميكونغ، وشطروا لاوس إلى شطرين. وكان على نافار أن يركز قواته بحيث يمنعهم من التقدم نحو منطقة مصب النهر (مما يشكل خطراً كبيراً عـلى كوشنشـين وكامبـوديا)، ودعم المعسكـر الفرنسي، وأقلع الفييتمن منذ شباط ١٩٥٤ عن التقـدم. ولكنهم تمركـزوا، عـوضـاً عن ذلك، على الهضبة الأمامية، وأطلقوا في الوقت نفسه هجوماً جديداً على هضاب موي، فغدا شـديد الخطورة على الاتصال بوحـدات لين ـــ كهوه. وهكذا إنهار حلم توحيد القوات الفرنسية.

وهكذا وجدت فرنسا نفسها مضطرة لمعركة على أرض لم تختارها، فأتاحت لجياب القدرة على إرهاق القوات الفرنسية.

إقامة مخيم ديان بيان فو المعزول

لاوس الشمالية منطقة هضاب وجبال وعرة جداً ومغطاة بالأحراج يتخللها الميكونغ وروافده. والدفـاع عنها بقـوات كـلاسيكيـة مستحيـل. ولم تكن القيادة العليا الفرنسية قادرة بوسائلها وقواتها وسبل تموينها أن تقوم بالدفاع. بقي حل واحد، وهو تعويق قـوات الخصم، بخلق قاعدة برية جوية. ولم تكن المناطق المؤهلة لإقامة مثل هذه القاعدة متوفرة. كانت المنطقة الوحيدة

المكنة هي ثغرة ديان بيان فو التي تعتبر باب لاوس.

منذ ١٩٥٢ كان الفرنسيون قد أخلوا المنطقة. وكان لابد من إعادة احتلالها.

ووضعت خطة «كاستور» موضع التنفيذ. ففي ٢٠ تشرين الثاني أنزل فوق ديان بيان فو ثلاثة آلاف مظلي، نظفوا الثغرة خلال يومين، وطردوا اللواء الذي كان مقيماً فيها. ثم قدمت فرقة من ١٠٨٠٠ جندي فتمركزت هناك، وجهزت مطاراً ومدرجاً له بالسرعة المكنة، وأقامت نقاط ارتكاز أساسية!

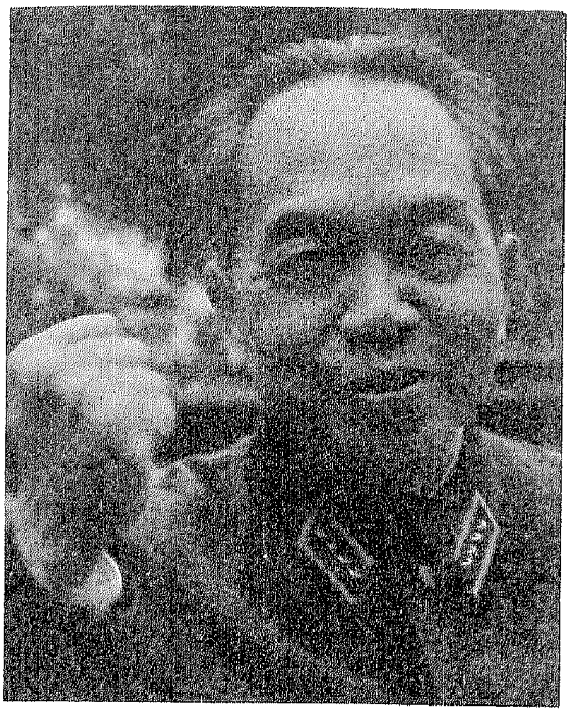
بدا المعسكر المعزول قوة هائلة لا تقهر، فقد قام في ثغرة طولها ١٧ كم وعرضها ٩كم. حيث يجري نهر نام يوم. أما المرتفعات المحيطة فيبلغ علوها ألف متر وترى بوضوح من القاعدة. لذا اعتقدت القيادة ألا قيمة لها، إذا شاءت مدفعية الخصم استخدامها، وأنها قادرة على تدميرها.

مواطن ضعف المعسكر

لم يكن الوضع سيئاً في حد ذاته. الخطأ الرئيسي الذي ارتكبته القيادة هو الاستهانة بالوسائل التي يمكن أن يعمد إليها الخصم ضد المعسكر. كان تقدير القيادة أن جياب لم يكن قادراً على زج أكثر من عشرين ألف مقاتل. بينما كان يمكن أن يزج أربع فرق مدفعية، والفرقة الثقيلة، و٧٥ ألفاً من المجندين يمكن استخدامهم لحفر الخنادق، وعدداً لا حصر له من المقاتلين الاحتياطيين. ومن جهة ثانية كان من المستحيل تدعيم المعسكر بالمؤن والذخائر أكثر من معدل مائتي طن يومياً، وهو معدل غير كاف.

ثمة خطأ تكتيكي آخر، وهو أن قائد المعسكر لم يدرك إلا بعد فوات الأوان أن محاصرة المخيم قد بدأت سراً منذ كانون الأول. وبدأ العدو ينصب كمائن خطرة منذ ١٥ كانون الأول، حول المعسكر. ولما شرع جياب يضغط بدأ القلق الفعلي في القيادة الفرنسية.

امتنع الجيش الفرنسي عن استخدام منافذ المعسكر، واعتقدت القيادة أن جياب لن يجرؤ على مهاجمة المعسكر ذاته خوفاً من القوة المتمركزة. حتى العسكريون الأميركيون اعتقدوا أن أي هجوم على المعسكر من شأنه أن يحطم



جياب

قوات الفييتمن. واستمر الجنود يحفرون الخنادق، ويمدون الأسلاك الشائكة، ولكنهم لم يكونوا مؤمنين بما يفعلون.

غير أن المخابرات من أعداء الفييتمن، والطيران، ومعلومات الأميركيين أقلقت القيادة. إذ أكدت جميعها أن قوات العدو تجمعت وتركزت حول المعسكر. فثمة عشرات الآلاف من الجنود، ٢٤٠٠ مدفع هاون، سبعمائة كميون، وآلاف الحمالين (أي المشاة الذين ينقلون العتاد، أو الدراجين، أو النساء تحمل كل اثنتين حملاً معلقاً إلى عمود ممتد على كتفيهما).

هجوم مفاجىء

ظل جياب خلال شهرين يعد العدة لهجوم مفاجىء. واحتل القمم القريبة سراً، وفي الليل، وأنشأ فيها قاعدة ضخمة للمدفعية، ولكنه وزع المدافع على مساحة واسعة بحيث لا يؤثر أي قصف فيها، خاصة وأنها ركزت في خنادق تتصل في ما بينها بأنفاق، يمكن الاحتماء فيها، أو الانسحاب دون أن تتأثر بالنيران الفرنسية. لقد أنشأ جياب أربعمائة كيلومتر من الأنفاق حول المعسكر الفرنسي.



جيش «الحمالين» ينقل المؤن والذخائر

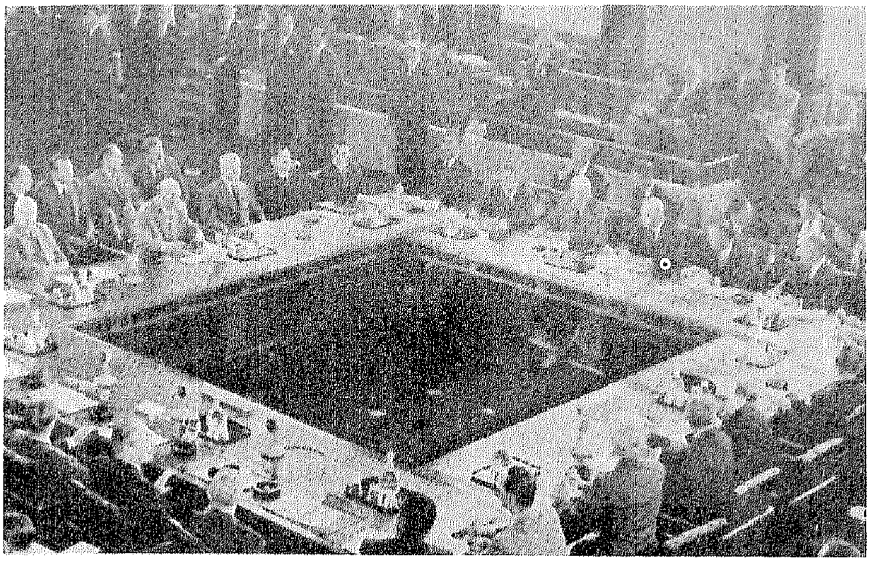
بدأ الهجوم في الثالث عشر من آذار، مساءً، وبكثافة وعنف نادرين. كانت النيران جحيماً يشبه جحيم فردان. فالمدافع المركزة تركيزاً فنياً، ومخفية بعناية، أمطرت المعسكر بسيل من القذائف. وكانت المفاجأة لدى الفرنسيين شاملة. وكان دوي المدافع قوياً، وكانت الإصابات في نقاط حيوية، فشلت القدرة على الدفاع. وما سكتت المدافع حتى ظهر فدائيون على بعد مائتي متر فقط، فألقوا قنابل لتدمير آخر الأسلاك الشائكة المتبقية. ثم تلت ذلك حمم المدافع مرة ثانية.

ورغم المقاومة الشرسة في الليل، والقتال فرداً لفرد، وبالسلاح الأبيض سقطت عدة نقاط رئيسية بينها نقطة ارتكاز «بياتريس». جرت محاولة مع طلوع النهار للرد بمساندة الطيران، ولكن المحاولة ألغيت لكثافة الضباب. وخلال ثلاثة أيام من ذلك سقطت مراكز الدفاع الشمالية واحداً بعد آخر. ولم تفد عمليات الإنزال المظلي.

وصلت قوات فييتمن أبواب المعسكر. وضربت مدافعها مدارج المطار رئة ديان بيان فو الحيوية، وحالت دون الاقلاع أو الهبوط منذ

الجنود الفرنسيون في الخنادق... ينتظرون





مؤتمر جنيف الذي تم فيه توقيع الهدنة في فييتنام

٢٦ آذار. وتحول المعسكر إلى مخبأ، وغدا الموقف حرجاً، والتموين مستحيلاً إلا بواسطة المظلات، وهي وسيلة غير مضمونة.

المقاتلون متروكون لمصيرهم

كانت المقاومة شديدة في ديان بيان فو. فأيقظت الروح الوطنية في فرنسا. وبات الشعب ينتظر كل ساعة آخر النشرات الاخبارية. ووقف الناس صفوفاً طويلة للتطوع. ولكن!

حاولت القيادة المستحيل لفك الحصار. اندفع عدد كبير من المظليين إلى الأحراج في عملية (كوندور)، بينما المقاتلون من أخصام الفييتمن يقومون بنشاط كبير على مؤخرة أخصامهم. ولكن النقص كان في وسائل التموين. فكيف يمكن بعدد قليل من الطائرات (طياروها استنفدت قواهم لكثرة المهمات اليومية التي قاموا بها) تأمين إرسال الجنود والمؤن، رغم النوايا الحسنة؟

حاولت القيادة الاستعانة بمساندة طيران الأسطول الأميركي في البحر الهادىء. وقد استخدم الأميرال ردفورد، بدءاً، من ٢٥ آذار، في عملية (فوتور) ستين طائرة ب ــ ٢٩ تحميها ١٥٠ مطاردة، فقصفت خطوط الفييتمن. وكان يمكن أن ينقلب الوضع رأساً على عقب، ولكن تردد الجنرال (إلي) ومعارضة الكونغرس الأميركي والفيتو البريطاني (نيسان) أجبرت الرئيس أيزنهاور على التخلي عن مشروع التدخل. وهكذا ترك الجنود في ديان بيان فو إلى مصيرهم حتى السابع من أيار.

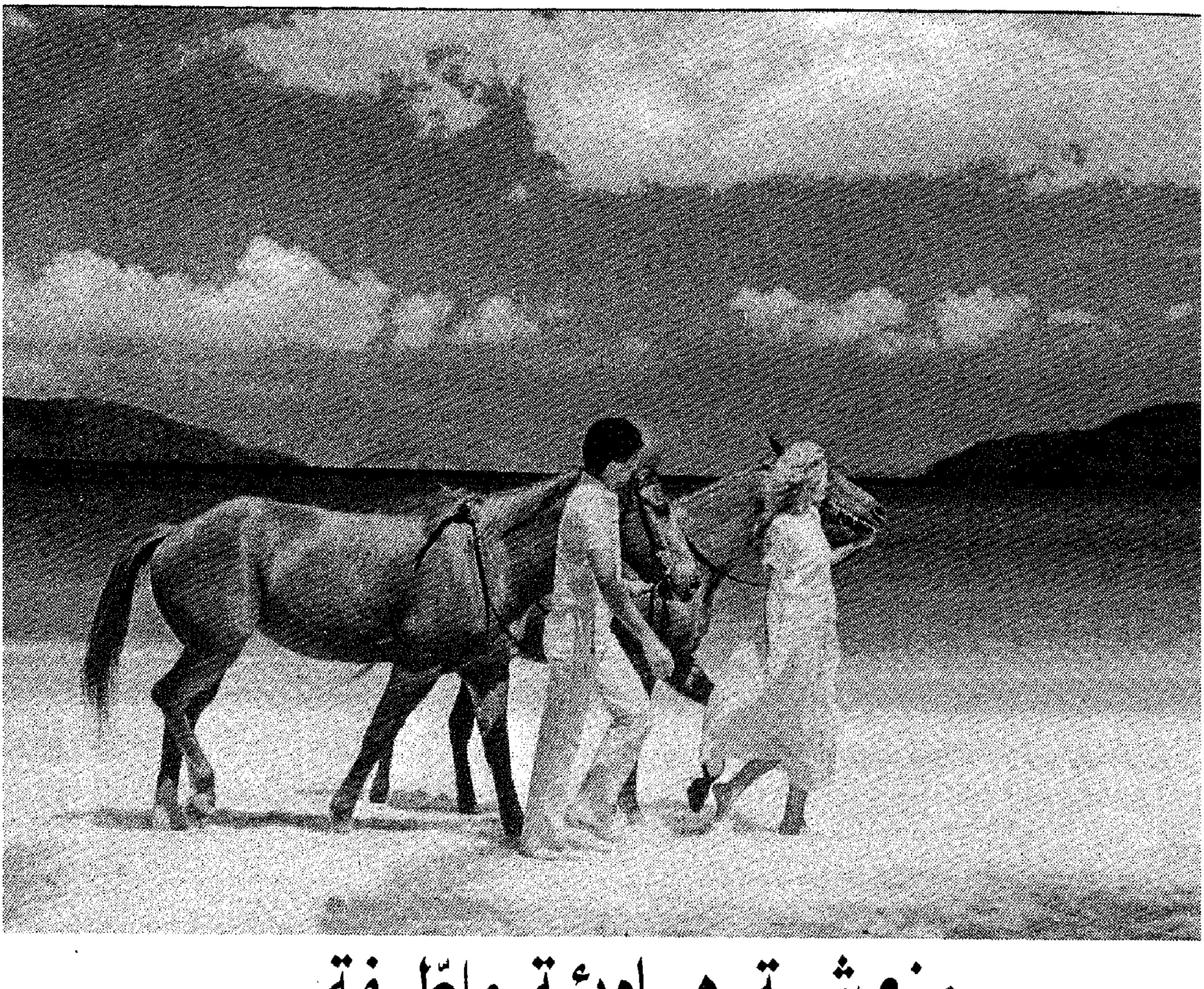
احتضار ديان بيان فو

سقطت تقريباً كل نقاط الارتكاز حول المطار والمدرج. وظلت قوتان تحاولان الدفاع عن المدرج تبعد إحداهما عن الأخرى خمسة كيلومترات. واستمرت الهجمات والهجمات المضادة التي كانت تنتهي بالقتال بالسلاح الأبيض. وكانت الخسائر كبيرة. وسقطت المراكز الفرنسية واحداً بعد الآخر. وصار الفرنسيون يدافعون عن حياتهم، لا طمعاً في نصر. في السابع من أيار انتهت المقاومة، فلم تبق مؤن ولا ذخائر. وحوالي الساعة ١٧,٣٠ استسلم من ظلوا على قيد الحياة. وكان العدد ١١٧٢١ بينهم ٤٥٠٠ جريح، جعلوا في مخيمات بانتظار اتفاقيات جنيف، في ما بعد.

وقد فقد الفرنسيون خمسة أسداس معداتهم، مما لم يسمح لهم بمتابعة أي معركة بعد ديان بيان فو. لذلك كان عليهم أن يفكروا بمعارك خارج نطاق فييتنام.

■

المرجع: A la une
العدد ١٠٣ (١٩٨١)



العلاقة بين الفتوة والصوفية

لقد جرت العادة عند الباحثين الذين تناولوا موضوع الفتوة، الحديث عن نوع من أنواعها إسمه «الفتوة الصوفية» نشأ نتيجة استئثار الصوفية بخصال الفتوة وقيمها في حدودٍ زمانية ومكانية معينة ــ كما هو حال نشوء الأنواع الأخرى ــ وكأن الفتوة بعد أن دخلت ــ جزئياً أو كلياً ــ في الصوفية، أو اصطبغت بصبغة صوفية أمحت وتلاشت في الحركة الصوفية.

ولكن الفتوة ــ في فترة ظهور الحركة الصّوفية في المجتمع الإسلامي ــ لم تزل ــ من الناحية التنظيمية ــ كما كانت في عهد صدر الاسلام وقبله، ذات طابع شعبي تمثله خصال حميدة يتحلى بها الأفراد بصفة فردية، لذا فهي وإن تلاحقت مع الصوفية وتزامنت معها في القرن الثاني الهجري وما بعده، لم تتغير معالمها لتكون بملامح صوفية خالصة، لأنها تمتلك قاعدة شعبية واسعة لم تخضع جميعها لدائرة سيادة الأفكار الصّوفية، بقدر ما أثرت الفتوة في الصوفية من خلال الدخول في صلب أفكارها ومن خلال احتلالها مقاماً متقدماً من مقاماتها.

لقد استعار التصوف مبادىء الفتوة وقيمها، وخصوصاً تلك التي تعكس الجانب الأخلاقي المحض لنظام الفتوة، فقد «أخذَ المتصوفة من تعاليم الفتوة العربية أهمَّ مميزاتها وهو الأيثار، وأضافوا إليها صفات أخرى متصلة بها، مثل كف الأذى وبذل الندى وترك الشكوى وإسقاط الجاه ومحاربة النفس والعفو عن زلّات الناس[١]»، كما أخذت الكرم والسخاء، حيث «ورد في الأصل الحادي والأربعين من رسالة الملامتية في قول أبي الحفص الحداد لعبد الله الحجّام: إن كنتَ فتى فيكون بيتكَ يومَ موتِكَ موعظة للفتيان[٢]» كما انتقى المفهوم الصوفي للفتوة ــ وخصوصاً عند الملامتية ــ معالمه من أبرز خصال الأنبياء والصالحين الذين يمثلون اعلاماً شامخةً في الفكر الديني والصوفي، فعرف بعض الملاتية الفتى بأنه «من كان فيه اعتذار آدم، وصلابة نوح، ووفاء إبراهيم وصدق إسماعيل، وإخلاص موسى، وصبر أيوب، وبكاء داؤد، وسخاء محمّد صلىّ الله عليه وسلم، ورأفة أبي بكر، وحمية عمر، وحياء عثمان، وعلم علي، ثم هو مع كل هذا، يزدري نفسه، ويحتقر ما هو فيه، ولا يقع بقلبه خاطر ما هو فيه أنه شيء، ولا أنه حال مرضي، يرى عيوب نفسه ونقصان أفعاله، وفضل إخوانه عليه في جميع الأحوال[٣]».

ولم يكن دخول الفتوة في الأفكار الصوفية، وخصوصاً فيها وخصالها التي غذّاها الإسلام، أمراً جعلها تتلاشى في الدائرة الصوفية، لأن تأثير الفتوة الفكري هذا ناجم عن الأثر الأخلاقي والاجتماعي النابع من عمق واتساع الفتوة في المجتمع، ويمكن القول أن ما بلغته الفتوة من تأثير في الصوفية لم تبلغه في حركة

أخرى ــ فكرية أو اجتماعية ــ حتى كانت الفتوة النواة الأولى والحقيقية للتصوف، فالصوفي يجب أن يتحلى بخصال الفتوة قبل أن يكون صوفياً ومصداق ذلك قول أبي الفتح البستي(٤):

تنازَعَ الناسُ في الصوفي واختلفوا

قدماً، وظنّوه مشتقاً من الصوفِ

ولستُ أنحلُ هذا الاسمَ غير فتى

صفا، فصوفي، حتى لقب الصوفي

وهكذا استطاعت الفتوة: هذه القاعدة الأخلاقية والاجتماعية التي غذاها الإسلام أن تؤثر في التصوف الإسلامي، وذلك بالتظافر مع حركة الزهد التي تنامت في أواخر القرن الهجري الأول بشكل ملحوظ نتيجة جملة إخفاقات عمّت الحياة بأوجهها السياسية والدينية خصوصاً في العراق، حيث كان التصوف الاسلامي قد نشأ في حركة الزهد(٥)».

ويبدو هذا التضافر بين نظام الفتوة ونزعة الزهد في التأثير في التصوف في «دائرة الحسن البصري الذي أطلق عليه أيوب بن أبي تميمة (سيّد الفتيان) وكان الحسن من أوائل الذين مهدوا للتصوف الإسلامي، وقد تتلمذ عليه مالك بن دينار وأبوحمزة الصوفي وغيرهم(٦)» من أعلام التصوف الأوائل، واضحاً وضوحاً جيداً.

وبالرغم من أثر الفتوة في التصوف ككل ــ بكل فرقه ومدارسه ــ إلّا أن هذا الأثر كان أكثر وضوحاً وأعمق دخولاً في فكر أهل الملامة الصوفي، حيث نجد في رسالة الملامتية (منشورة في كتاب الصوفية والملامتية وأهل الفتوة) ترابطاً وثيقاً بين الفتوة والتصوف من خلال إبراز العديد من معالم الفتوة وخصالها من أيثار وعفو وكرم وتضحية، داخل إطار صوفي خالص يتجلى ذلك في قول أبي الحفص الحداد فهو بعد أن يبرز معالم الفتوة يذكّر بالموت: الفناء الجسدي للإنسان، وبخلود الذكر بما خلف من موعظة معنويةٍ لرفاقه الفتيان.

وحيث ينصبّ التصّوف على جملة إسقاطات تعكس الاستجابة السلبية لتحديات الحياة في طريق مواجهتها بالهروب منها وعدم دخول معتَرَكها عن طريق التقشف والاعتزال والزهد في الدنيا ومكافحتها ومكابدة الجسد بالرياضة الروحية الشاقة وصولاً إلى غاية الفناء، وهذا واضح في أغلب مدارس التصوف، إستطاعت الفتوة إعطاء التصوف طابع الاستجابة الايجابية في مواجهة تحديات الحياة من خلال اعتماده أهم خصالها كالايثار والكرم والشجاعة وغيرها، ومن خلال تبني بعض فرق التصوف ومدارسه مفهوماً خاصاً للفتوة. ذكر أبوعبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية: «أنه سمع عبد الرحمن بن الحسين الصوفي يقول: بلغني أن مشايخ بغداد اجتمعوا عند أبي حفص، فسألوه عن الفتوة ــ فقال: تكلموا أنتم فإن لكم العبارة واللسان، فقال الجنيد: الفتوة عندي إسقاط الرؤية، وترك النسبة، فقال أبو الحفص: ما أحسن ما قلت، ولكن الفتوة عندي أداء الانصاف وترك مطالبة الانصاف» يوضح عمر الدسوقي الاختلاف بين تعريفيهما وماذهب إليه كل منهما بقوله «فالجنيد يرى الفتوة إسقاط الرؤية، أي عدم النظر إلى الأعمال نظرة اعتبار وتقدير، وترك النسبة، أي إسقاط الروابط التي تربط الانسان بأي شيء أو موجود غير الله، وعلى ذلك فالفتوة عنده الزهد الكامل. أما أبو الحفص فيرى الفتوة في أداء ما يراه الصوفي إنصافاً وعدلاً، أي القيام بجميع الواجبات الشرعية والاجتماعية بدون أن يطالب القائم بها بإنصافٍ من جانب الشرع أو من جانب المجتمع، أي أن الفتوة عنده هي التضحية الكاملة». ومن هنا تتوضّح أيضاً روحياً عملية يمكن أن نُنْسِبَ إلى الفتوة منحَها للتصوف في بعض مدارسه، وبذلك حافظت الفتوة على معالمها كنظام أخلاقي ــ إجتماعي حتى عند دخوله في التصوف وبالرغم من إضفاء بعض مدارس التصوف الأخرى طابع التصوف النظري على الفتوة.

وقد خلق هذا الوضع تداخلاً في فهم الصلة بين الفتوة والتصوف، فإذْ يرى البعض ذوبان الفتوة في التصوف ومسخ معالمها الأساسية وطغيان النزعة الصوفية من رياضة النفس والمجاهدة والاعتزال وصولاً إلى الفناء، وبذلك ظهور نوع من أنواع الفتوة هو «الفتوة

الصوفية» بمعالم تعبوية وفكرية خاصة، ويرى البعض الآخر بالرغم من ظهور هذا النوع «بأن إقبال الفتيان على التصوف لايتفق وأخلاق الفتوة كما عرفها العرب والمسلمون من قبل، وذلك لأن الفتى العربي يغضب إذا كان ثمة مايدعو للغضب، يغضب لشرفه ويغضب لعقيدته، ويغضب إذا امتهن أو أهين، وهو لايحب الجبن ولايعرفه فكيف يتفق مع التصوف الذي يدعو إلى إزالة القوة الشهوانية والغضبية في الانسان؟...[٧]» كما هو رأى المستشرق (ثورنج) وأيده الدسوقي بتبريره الذي استند إلى التصوف بمعناه الفلسفي، ويرى البعض الآخر بوجود الصلة بينهما بالرغم من اختلاف طبيعتيهما، كما هو رأى الدكتور أبو العلا العفيفي في كتابه الصوفية والملاتية وأهل الفتوة وبذلك خالف سابقيه.

والحقيقة، على الرغم من أن لكل منهما طبيعة خاصة بادية عليها، كان بين فكر الصوفية والفتوة صلة تأثير وتلاقح متبادلة، فالفتوة دخلت في صلب فكر الصوفية وأثرت فيها منذ أوائل نشأة النزعة الصوفية حتى احتلت مكاناً متقدمة في القاموس الصوفي في كافة مدارس التصوف، فنراها عند متصوفة العراق كالحلّاج والجنيد، ونراها عند متصوفة نيسابور كأبي الحفص عمرو بن سالم، ونراها عند الملامتية كحمدون القصّار، ونقرأها في كتابات اعلام الفكر الصوفي كأبي عربي والجرجاني وأبي عبد الرحمن السّلمي والقشيري وغيرهم.

وبالرغم من بعض الخصوصية التي أخذتها الفتوة عند كل من هؤلاء المتصوفة جميعاً من حيث المعنى بالذات، فقد كان للصوفية أثرٌ كبير ــ أيضاً ــ في الفتوة، يمكن تبيُّنه في ما أعطاه بعض المتصوفة لها من أبعاد جديدة ذات منحى صوفي خالص، فقد صارت الفتوة دعوة خاصة يلتزم بها كل فتى صوفي أي أن «الفتى الصوفي في نظر بعض المتصوفة من كانت له دعوى يرافع عنها، ويضحي بنفسه في سبيلها كالحلّاج[٨]»، الذي لم يتخذ منها دعوى فحسب، بل منزلة يتفرد لذاته، بانت بوضوح في شطحاتها المعروفة، كما صارت الفتوة عند الملامتية عامية أسمى وأوسع من التصوف حيث «فسّروا الملامة على أنها نوع من الفتوة أو الرجولة»[٩] كما اعتبر غيرهم وبالذات «رجال التصوف من مدرسة نيسابور الفتوة مثلاً أعلى يهدفون إليه[١٠]».

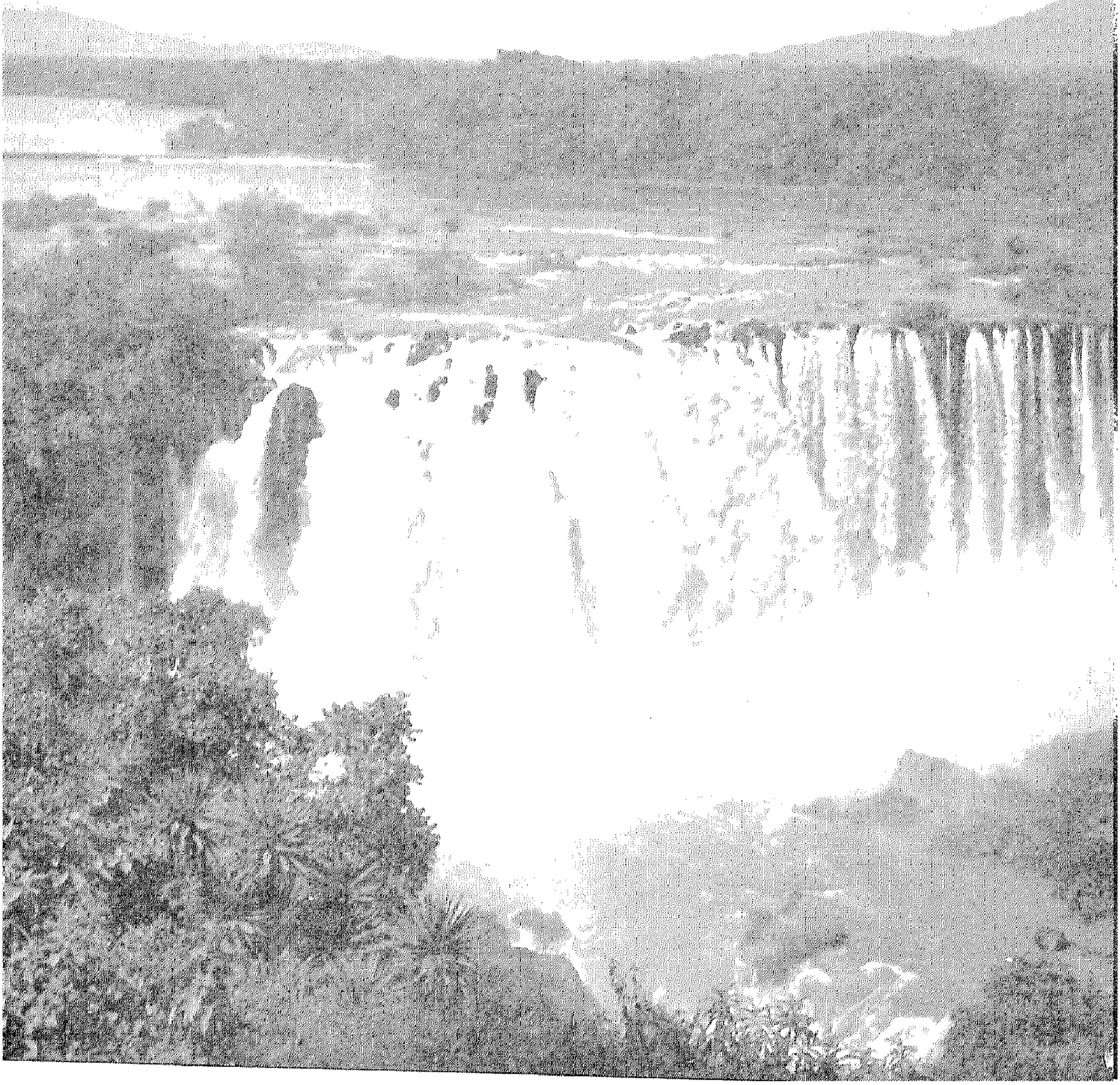
إننا يمكن أن نقصر هذا الأثر الذي نتلمسه في هذه الأبعاد التي أعطاها بعض المتصوفة للفتوة، يمكن أن نقصره في مجال زيادة ترسيخ الفتوة في المجتمع وبالذات في ظرف بدأ التصوف فيه يجد مكانة لدى أغلب شرائح المجتمع مما أدى إلى الاقتراب نحو الصيغة التنظيمية لنظام الفتوة العربية تأثراً بما لدى الصوفية من نظام الهيئات والمدارس المنظمة من مراتب الرؤساء والشيوخ والأقطاب والمبردين وغيرها، جرياً على سُنّة التطور، ويتجلى هذا التطور الذي أصاب نظام الفتوة العربية في شجرة سند الفتوة التي صيغت في زمن الخليفة العباسي الناصر لدين الله، ضمن هذا انبثاق هذا النظام إنبثاقاً رسمياً، حيث ظلت معالم الفتوة في طورها الشعبي قبل ذلك شاخصة فيه، حيث أن أغلب الذين يعتبرون سند الفتوة كانوا زهاداً ومتصوفة، مما يؤكد الامتداد الطبيعي لنظام الفتوة في مساره التأريخي وطورَيهِ الشعبي والرسمي. أي أن الصّوفية دخلت في سند الفتوة خلال مسارها التأريخي نتيجة التفاعل بينهما واشتراكهما في السّند الأول (الأصل) الذي يعتبر أنه ممثل في الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجههُ، ضمن وحدة الفتوة ووحدة تأريخها.

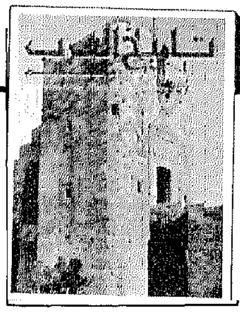
إدهام محمد حنش
نينوى ــ العراق

«الهوامش»

(١) الفتوة عند العرب: عمر الدسوقي، ص ٢٢٠.
(٢) الصوفية والملامتية وأهل الفتوة. أبو العلاء عفيفي.
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) الشعر الصوفي، حتى مدرسة بغداد وظهور الغزالي: عدنان حسين العوادي، ص ٣٤.
(٥) المصدر السابق نفسه: ص ٥٣.
(٦) الفتوة عند العرب: ص ٢٢٠ ــ ٢٢١.
(٧) المصدر السابق نفسه، ص ٢٢٢ ــ ٢٢٣.
(٨) المصدر السابق نفسه، ص ٢٢٣.
(٩) المصدر السابق نفسه، ص ٢٥٤.
(١٠) المصدر السابق نفسه، ص ٢٢٥.

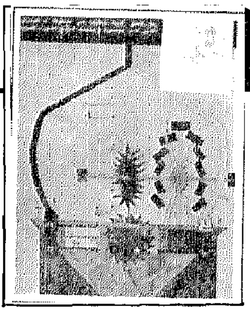
شلالات النيل الأزرق





الغلاف الأول
مدينة حلب
(راجع المقالة ص٢)

- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.



الغلاف الأخير
الفيزياء عند العرب
(راجع المقالة ص١١)

رسم تفصيلي لمضخة ميكانيكية من مخطوطة لـ «الجـ
(القرن ١٣م) موجودة في متحف تاريخ الفنون ـ كا

